الحضارة الإسلامية في بغداد

في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري

٤٦٧هـ - ٥١٢هـ

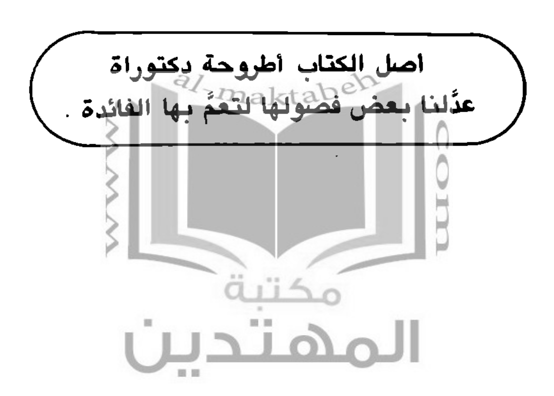
د. محمد حسين شندب

دار النفائس



أصل الكتاب أطروحة دكتوراة

عدَّلنا بعض فصولها لتعمَّ بها الفائدة .



الحضارة الإسلامية في بغداد

في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري

(٤٦٧ - ٥١٢هـ)



الطبعة الأولى

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م



◦ دار النفائس

بيروت - ص.ب : ١١/٦٣٤٧ - هاتف : ٨١٠١٩٤ - برقياً : دانفايسكو

الإهداء

إلى العاملين لإعلاء راية الحق رغم غطرسة الباطل ،
إلى الذين يجهدون من أجل حياة عزيزة كريمة ،
إلى الذين ينقبون على كنوز الحضارة الإسلامية ،
إلى أجيالنا الصاعدة ، المتعطشة إلى المعرفة والهدى ،

أقدم هذا البحث
عسى أن يجدوا في صفحاته معالم هداية أو مصابيح خير وثقافة .

د. محمد حسين شندب

مقدّمة البحث

إن الذي يراقب تطورات الأحداث التي شهدها العالم الإسلامي بعد سقوط الخلافة العثمانية يلاحظ أن الاستعمار الغربي قد عاد بجيوشه الصليبية كي يشكل تحدياً جديداً للأمة الإسلامية في مختلف أقطارها . ومن أهم النتائج التي أسفرت عنها مرحلة الاستعمار زرع دولة بني صهيون في قلب هذا العالم كي تكون الأخطبوط الذي يمتص دماءه ، فينشر فيه الدمار والخراب ويمنعه التفكير في محاولة النهوض والتقدم .

وهكذا يبدأ عصر الاعتداءات الإسرائيلية ، فإذا بالأخطبوط الصهيوني يصبح القوة التي تتحكم بمصير الشرق وسط أنظمة مهلهلة متداعية .

هذه الحالة من التشتت والضعف عرفتها الأمة الإسلامية حين تحولت الخلافة العباسية إلى منصب رمزي حيث لا يملك الخليفة السيطرة حتى على عاصمته بغداد. عندئذ اكتسحت جحافل الجيوش الصليبية الشرق الإسلامي من أنطاكية إلى شواطىء مصر حيث لم تلق مقاومة تذكر لأن المسلمين كانوا غارقين في صراعاتهم الداخلية ونزاعاتهم المذهبية ، وقد بلغ التحدي أوجه يوم سقوط القدس سنة **٤٩٢** هـ بعد أن نفذ المحتلون مجزرة رهيبة داخل المسجد الأقصى وفي حرمه .

والأمر العجيب حقاً بعد سيطرة الصليبيين على السواحل السورية أن يبقى الخصام قائماً بين الفاطميين والسلاجقة من جهة وبين السلاطين السلاجقة

أنفسهم من جهة ثانية ، ثم ظهور الحركة الباطنية التي خاضت كفاحاً مريراً ضد السلاجقة والعباسيين على السواء .

في هذه الأجواء القاتمة على الصعيد السياسي والعسكري كانت الحضارة الإسلامية في بغداد قد بلغت أوجها في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ؛ حيث تعاقب على منصب الخلافة المقتدي بالله العباسي والمستظهر بالله العباسي .

إن التعرف على المظاهر المختلفة لهذه الحضارة من الجوانب السياسية والدينية والاجتماعية والعلمية والعمرانية والاقتصادية يعتبر اليوم واجباً كفائياً على شبابنا الطامح الذي يعمل من أجل تغيير الواقع الأليم .

إن الأحداث التي شهدها المسلمون في تلك الفترة غنية بالتجارب والدروس التي تشكل ثروة تاريخية واقعية يمكن أن نأخذ منها اليوم فوائد كثيرة، تساعدنا في إنارة درب الخلاص الذي تنشده أجيالنا الطالعة .

لذلك قدمت هذه الدراسة بروح علمية متجردة تاركاً للقارىء أن يحكم بنفسه على الأحداث والتجارب ، راجياً من الله تعالى أن يحقق المنفعة منها وأن لا يحرمني الأجر والثواب ، إنه سميع مجيب .

الباب الأول

المقتدي بالله العباسي

٤٦٧-٤٨٧هـ — ١٠٧٤ - ١٠٩٤م.

الخليفة المقتدي بالله العباسي

٤٦٧ - ٤٨٧ هـ ١٠٧٤ - ١٠٩٤ م

مقـدمــة

قبل البدء بدراسة الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصاديـة التي كانت سائدة في عهد الخليفة المقتدي بالله العباسي ، لا بد من تمحيص شخصيته ذاتها وإلقاء الضوء على جوانب من سيرته كبداية مهمة في مطلع هذا الموضوع .

نسب المقتدي

يقول ابن الجوزي : هو عبد الله بن ذخيرة الدين أبي العباس محمد بن القائم بأمر الله ويكنى أبا القاسم[١]

وابن كثير يقول : هو عدة الدين عبد الله بن الأمير ذخيرة الدين[٢] .

أما عبد الملك بن حسين فيقول : هو أبو القاسم عمدة الدين عبد الله بن ذخيرة الدين محمد بن الخليفة القائم عبد الله بن القادر أحمد بـن الأمير إسحاق ابن المقتدر بن المعتضد بن الموفق طلحة بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي بن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس [٣] .

توفي والده ذخيرة الدين ،ولي عهد القائم، قبل أن يبصر هو النور وقد حزن البيت القادري على فراق الخلافة له ، إنما تبدد هذا الحزن بعد ولادة المقتدي

---

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج ٨ ص ص ٢٩١

(٢) البداية والنهاية ج ١٢ ص ١١٠

(٣) سمط النجوم العوالي ج ٣ ص ٣٦٩

وفرح به جده وظهر الارتياح عموماً لمستقبل هذا الطفل اليتيم ، خاصة أن الفروع الأخرى من بني العباس قد وصلوا إلى مرحلة من التبذل والاسفاف لا يحسدون عليها مما جعل العامة في بغداد لا يرتاحون لهم ، ولا يسلمون بإسناد أمر الخلافة إليهم .

ترعرع المقتدي في كنف جده القائم الذي أشرف على تربيته وإعداده لمهمة الخلافة[1] ولقبه المقتدي بالله وكناه أبا القاسم .

والدة المقتدي

إن التفاعل السكاني والحضاري في مدينة بغداد بلغ مداه في هذه الفترة وخير دليل على هذا التفاعل هو زواج الخلفاء العباسيين من نساء أعجميات ، ووالدة المقتدي أم ولد أرمنية تسمى أرجوان وتلقب بقرة العين وقد أدركت خلافة ولدها هذا وخلافة ولده المستظهر وخلافة ولد ولده المسترشد وكانت صالحة كثيرة البر والمعروف وحجت مراراً وبنت بمكة رباطاً وآثاراً حسنة وبنت ببغداد رباطاً وتوفيت سنة اثنتي عشرة وخمسمائة[2] .

أما صاحب كتاب الروضتين في أخبار الدولتين فيقول إن أم المقتدي تركية[3] ويوافقه في رأيه ابن الأثير[4] .

المقتدي يصبح خليفة

توفي القائم بأمر الله[5] في يوم الجمعة الثالث عشر من شعبان سنة

---

(١) ابن القلانسي : **ذيل تاريخ دمشق** ص ١٠٧

(٢) السيوطي : **المستطرف من أخبار الجواري** . حققه الدكتور صلاح المنجد ص ٥٨ .

(٣) أبو شامة : **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين** ص ٢٨

(٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ص ١٣

أم ولد : كانت عبدة فلما تزوجت رجلاً حراً وأنجبت له ولداً أصبحت حرة .

(٥) القائم بأمر الله ٤٦٧/١٠٧٤ : هو عبد الله بن عبد القادر بالله ويكنى أبا جعفر . ولد سنة ٣٩١/١٠٠٠ . وأمه أم ولد تسمى قطر الندى . بويع للخلافة بعد موت أبيه سنة ٤٢٢/١٠٣٠ وبقي إلى حين وفاته ٤٦٧/١٠٧٤

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٨ ص ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩

ابن القلانسي : **ذيل تاريخ دمشق** ص ١٠٩

٤٦٧/١٠٧٤ وكان عمر المقتدي يتراوح بين التاسعة عشرة والعشرين حين جلس في دار الشجرة[١] لأخذ البيعة في اليوم نفسه الذي توفي فيه جده[٢] .

وأثناء جلسة المبايعة ارتدى قميصاً أبيض وعمامة بيضاء لطيفة وطرحة قصب أدرية[٣] وتوافد إلى دار الخلافة الوزراء والأمراء والأشراف ووجوه الناس كي يبايعوه ، وكان أول من بايعه الشريف أبو جعفر بن أبي موسى الحنبلي[٤] وأنشده قائلاً :

إذا سيد منا مضى قام سيد . ثم ارتج عليه فلم يدر ما بعده ، فقال الخليفة :

قؤول بما قال الكرام فعول .

ثم بايعه من شيوخ العلم أبو إسحاق الشيرازي[٥] والشيخ أبو نصر بن الصباغ[٦] والشيخ أبو محمد التميمي الحنبلي[٧] وحضر مؤيد الملك[٨] بن نظام

---

(١) دار الشجرة : هي دار من دور الخلافة من أبنية المقتدر تقوم في وسطها شجرة من الذهب والفضة . ـ ياقوت : **معجم البلدان** ج ٢ ص ٤٢٠ ـ ٤٢١ .

(٢) ابن كثير : **البداية والنهاية** ج ١٢ ص ١١١

(٣) أدرية : قرية من صعيد مصر مشهورة بزراعة الكتان . ـ ياقوت : **معجم البلدان** ج ١ ص ١٢٥ ـ ١٢٦

ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٩٦ .

(٤) أبو موسى الحنبلي : ٤٧٠/١٠٧٧ ـ هو عبد الخالق بن عيسى بن أبي موسى الهاشمي . كان عالماً فقيهاً ورعاً زاهداً قؤولاً بالحق ولا تأخذه في الله لومة لائم . كان يدرس في مساجد بغداد الرئيسية وكان شديداً على المبتدعة حتى أنه حبس من أجل ذلك . كان مذهبه القرآن والسنة . ـ ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٨ ص ٣١٥ ـ ٣١٦ .

ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٩٦ .

(٥) أبو إسحاق الشيرازي : كان واحد عصره علماً وزهداً وعبادة وسخاء . رحل إليه الناس من الأقطار وأخذوا عنه ، بنى له نظام الملك المدرسة النظامية ببغداد فكان يدرس فيها ويديرها . كان زاهداً في الدنيا وكان دائم البشر حسن المجالسة

ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ١٣٢

القسنطيني : **كتاب الوفيات** ص ٢٥٦

(٦) أبو نصر بن الصباغ : ٤٧٧/١٠٨٤ ـ هو صاحب الشامل والكامل وكفاية المسائل وغيرها من التصانيف ـ ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ١٤١

(٧) أبو محمد التميمي : ٤٨٨/١٠٩٥ ـ اجتمع له القراءات والفقه والحديث والأدب والوعظ وجعله الخليفة رسولاً الى السلطان في مهام الدولة . ـ ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٨٨ .

(٨) مؤيد الملك : ٤٩٤/١١٠٠ ـ اشتغل في وزارة السلطان محمد سنة واحدى عشر شهراً ثم كانت وقعة بين محمد وبركيارق فأسر مؤيد الملك وقتل .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٢٩

الملك[١] والوزير فخر الدولة بن جهير وابنه عميد الدولة ونقيب النقباء طراد[٢] والنقيب الطاهر المعمر بن محمد[٣] وقاضي القضاة أبو عبد الله الدامغاني[٤] وغيرهم من الأعيان والأماثل[٥] .

يظهر أنه كان هناك إجماع عليه من الناس كما يصرح الفارقي في تاريخه[٦] وبعد أن تمت له البيعة خرج إلى المسجد وصلى بالناس العصر ثم بعد ساعة خرج تابوت جده القائم بسكون ووقار من غير صراخ ولا نواح ثم صُلّي عليه وحمل إلى المقبرة[٧] .

أخلاق الخليفة المقتدي بأمر الله وميزاته

يجمع أكثر المؤرخين أن المقتدي كان يتمتع بأخلاق طيبة ، ومن صفاته حبه للدين وللخير ، نفسه قوية ، همته عالية ، من نجباء بني العباس ، ذو شجاعة وشهامة ، أيامه كلها مباركة .

ويزيد ابن القلانسي فيصفه بحسن السيرة وجمال السريرة ، وله خبرة بأمور

---

(١) نظام الملك : ١٠٩٢/٤٨٥ - هو الحسن بن علي بن اسحاق بن العباس الطوسي : وزير السلطانين ألب أرسلان وولده ملكشاه . كان يحب العلماء والفقهاء ، وبنى المدارس والمساجد والرباطات .
ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٦٤ - ٦٦
ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٩٦ .

(٢) طراد بن محمد الزينبي : ١٠٩٧/٤٩١
ولي نقابة العباسيين بالبصرة ثم انتقل الى بغداد وساد الناس رأياً ورتبة وكان يحضر مجلسه جميع المحدثين والفقهاء .
ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٠٦

(٣) المعمر بن محمد : ١٠٩٦/٤٩٠
ابن المعمر بن أحمد بن محمد أبو القاسم الحسيني الطاهر . ذو المناقب نقيب الطالبين . كان كريم الأخلاق كثير التعبد .
ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٠٤

(٤) أبو عبد الله الدامغاني : ١٠٨٥/٤٧٨
هو محمد بن علي بن الحسين بن عبد الملك ابن عبد الوهاب بن حمويه . ولد بدامغان ثم دخل بغداد وصارت له الرياسة في مذهب أبي حنيفة وخص بالعقل الوافر والتواضع
ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٢٢ - ٢٤
دامغان: بلد كبير بين الري ونيسابور وهو قصبة قومس .
ياقوت : **معجم البلدان** ج ٢ ص ٤٣٣

(٥) ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٩٦ .

(٦) تاريخ الفارقي : ص ١٩٥

(٧) ابن كثير : **البداية والنهاية** ج ١٢ ص ١١١

الناس ومن أفاضل خلفاء بني العباس[1] .

وشمائله عالية ، وغيرته على حريم الناس لا تضاهى ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويمتاز بالعدل والصلاح ، والتقوى ولين الجانب وكثرة الحلم ، وقد عاش وادعاً مرفهاً[2] .

أعمال المقتدي

إن المؤرخين اختلفوا في تحديد الفترة الزمنية التي قضاها المقتدي في الخلافة ووقعوا في تضارب ظاهر ؛ فبينما يؤكد ابن القلانسي[3] أن مدة خلافته كانت تسع عشرة سنة وخمسة أشهر ويوافقه على هذا الرأي العماد الأصبهاني[4] بزيادة ثلاثة أيام فقط ، نرى بالمقابل ابن تغري بردى[5] يقول بأن مدة خلافة المقتدي تسع عشرة سنة وثمانية أشهر ويتبعه ابن الوردي[6] في تاريخه ويزيد أياماً فقط ، بينما يعلن ابن كثير[7] أن مدة خلافته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر إلاّ يومين .

ومهما يكن من أمر هناك أعمال عمرانية واجتماعية نفذها المقتدي سواء أكان ذلك في مدينة بغداد أم خارجها .

امتاز الخليفة المقتدي بالله بالقوة والهمة وعظمت عمارة بغداد في عهده ، وظهرت في أيامه خيرات كثيرة ومبرات وافرة وآثار حسنة في البلدان القاصية والدانية ، وظاهرة العمران في بغداد وتدفق الخيرات فيها يؤكدها ابن تغري بردى وابن النجار أيضاً[8] .

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٦
ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ص ٢٩٦

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٤٦

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٦

(٤) الأصبهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ص ٢٥

(٥) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٠

(٦) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٩

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٤٦

(٨) الأصبهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ص ٢٥

أولاً ـ على الصعيد الاجتماعي :

ويبدو أن المقتدي كان حريصاً على أخلاق الناس وعلى دينهم ؛ لذلك أخذ يعمل منذ بداية خلافته على تطهير بغداد من عناصر الفساد والفجور ، فمثلاً في شهر شعبان من سنة ١٠٧٢/٤٦٧ ، أمر بإخراج المفسدات من الخواطىء من بغداد ، كما أمرهن أن ينادين على أنفسهن بالعار والفضيحة .

وخرب الخمارات ودور الزواني والمغاني وأسكنهن الجانب الغربي مع الذل والصغار ، ثم هدم أبرجة الحمام ومنع اللعب بها صيانة لحرم الناس ، فأجبر المستحمين باحتراز عوراتهم في الحمامات ومنع أصحابها أن يصرفوا فضلاتها إلى دجلة وألزمهم بحفر آبار لتلك المياه القذرة صيانة لماء الشرب .

يظهر أن التطهير لم يستمر لذلك أصدر أمره مرة ثانية في شوال سنة ١٠٧٤/٤٦٩ بإزالة المنكرات والبغايا ببغداد حيث هرب الفساق منها[1] .

ومن جديد سنة ١٠٨٥/٤٧٨ خرج توقيع الخليفة المقتدي بالله ، بتجديد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل محلة وكسر آلات الملاهي وإراقة الخمور وإخراج أهل الفساد من البلاد .

ثانياً : على الصعيد العمرانيّ :

اهتم المقتدي بأمور العمران في مدينة بغداد فأنشأ فيها عدة محال منها :

البصلية[2] والبساتين التي كانت بباب الأزج[3] والحلبة[4] والأجمة ودرب القيار والمقتدية وخرابة ابن جردة والخاتونية وخرابة الهراس ، وبنى الدار

---

(١) ابن كثير : **البداية والنهاية** ج ١٢ ص ١١١ ، ١١٥ ـ اليافعي : **مرآة الجنان وعبرة اليقظان** ج ٣ ص ١٤٣

(٢) البصلية : محلة في طرف بغداد الجنوبي من الجانب الشرقي متصلة بباب كلواذي .
ياقوت : **معجم البلدان** ج أول ص ٤٤٢ .

(٣) باب الأزج : تقع في بغداد الشرقية على شاطىء دجلة من ناحية الجنوب .
ابن خلكان : **وفيات الأعيان** ج ٢ ص ٤٧٨

(٤) الحلبة : محلة واسعة في شرقي بغداد عند باب الأزج .
ياقوت : **معجم البلدان** ج ٢ ص ٢٩٠

الشاطئية على دجلة والأبنية العجيبة في داخل الدار وكلها في الجانب الشرقي من بغداد .

كان المقتدي يهتم بنظافة المدينة وبجمال شوارعها وعندما كثرت فيها الوحول سنة ٤٧٩ / ١٠٨٦ خصص لها فعلة من أجل نقلها حتى لا تؤذي المارة .

ولم يقف اهتمامه عند هذا الحد بل أقدم على عمل يعتبر ركيزة في مضمار التقدم الاجتماعي ألا وهو تأمين الحاجات الضرورية للناس ومنها المسكن ؛ وهكذا أمر بشراء بيت لكل واحد من الفقراء الذين يأوون الى كويخات بباب الغربة[١] ثم تملكوها ، وذلك في سنة ٤٧٩ / ١٠٨٦[٢] .

وسار فخر الدولة بن جهير على خطا أمير المؤمنين في تشجيع المشاريع العمرانية التي تعود بالنفع على عامة الناس ، ففي سنة ٤٧٥ / ١٠٨٢ جدد عمارة جامع القصر المتصل بدار الخلافة وعمل فيه سقاية وأجرى فيها الماء من داره في قنا تحت الأرض وجعل لها فوارات فانتفع الناس بذلك منفعة عظيمة .

حتى أن عامة الناس شرعوا في المساهمة بالأعمال العمرانية ، ففي سنة ٤٨١ / ١٠٨٨ نرى أهل باب البصرة[٣] يبنون قنطرة وينقلون الآجر في أطباق الذهب والفضة وقد تمثل بهم أهل الكرخ[٤] فبنوا عقداً لأنفسهم أيضاً .

إن التنافس في مجال العمران لم يقتصر على المقتدي وأهالي بغداد بل امتد ليشارك فيه السلطان وحاشيته وهم الذين يملكون مقدرات الأمة وخيراتها .

ونسمع ابن الجوزي يحدثنا عن أعمالهم سنة ٤٨٥ / ١٠٩٢ في مدينة بغداد . إن السلطان ملكشاه تقدم ببناء سوق المدينة لمقاربة داره التي في مدينة

---

(١) باب الغربة : أحد أبواب دار الخلافة ـ ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ١٩٢

(٢) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٢٨ ، ٣٠

(٣) باب البصرة : محلة تقع جنوب شرق بغداد . ياقوت : **معجم البلدان** ج ٤ ص ٤٤٨ .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٤٣ .

(٤) الكرخ : محلة كبيرة تقع في الجانب الغربي من بغداد . **معجم البلدان** ج ٤ ص ٤٤٨ .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٤٤ .

طغرلبك[1] وبنى فيها خانات الباعة وسوقاً عنده ودروباً . وبنت خاتون حجرة لدار الغرب ونودي أن لا تعامل الا بالدنانير ثم بعمارة الجامع الذي تـمّ على يد بهروز الخادم سنة ٥٢٤ / ١١٢٩ وتولى السلطان تقدير هذا الجامع بنفسه ومعه منجمه وجماعة من الرصديين وأشرف على ذلك قاضي القضاة أبو بكر الشامي وجلبت أخشابه من جامع سامرا[2] وكثرت العمارة بالسوق واستأجر نظام الملك بستان الجسر وما يليه من وقوف المارستان مدة خمسين سنة وتجرد لعمارة ذلك داراً وأهدى له أبو الحسن الهروي خانه وتولى عمارة الأبنية أبو سعد بن سمحا اليهودي وابتاع تاج الملك[3] أبو الغنائم دار الهمام وما يليها بقصر بني المأمون ودار ختلع أمير الحاج وبنى جميع ذلك داراً وتولى عمارتها الرئيس أبو طاهـر الأصباغي وجدد المقتدي حفر الأنهار التي كانت قد خربت[4] .

ثالثاً ـ على الصعيد الاقتصادي :

ومن الانجازات التي حققها المقتدي على الصعيد الاقتصادي ، مراقبة حركة البيع والشراء ومنع التلاعب بالموازين والأسعار، وفي سنة ١٠٧٩/٤٧٢ رتب في الحسبة أبا جعفر الخرقي[5] الشـاهد وكـان التطفيف فـاشياً والأمـور فاسدة . وكان أبو جعفر شديداً لا يقبل شفاعة فحزم الأمور وأقام الهيبة وأدب

---

(١) ابن سلجـوق أبو طـالب السلطان من جبل من التـركمان عنـدما دخـل بغداد جلس لـه القائم وفـوض اليه الأعمـال وخاطبـه بملك المشـرق والمغـرب وهـو بـاني دولـة السلاجـقـة : ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٨ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤

(٢) سامرا : مدينة كانت بين بغداد وتكـريت على شرقي دجلة وقد خربت .

ياقوت : **معجم البلدان** ج ٣ ص ١٧٣

(٣) تـاج الملك : ١٠٩٢/٤٨٥ : أبـو الغنـائم المرزبان بن خسرو وهو الذي بنى التاجية وبنى قرية أبي اسحاق . تولى أمر محمود بن ملكشاه وخرج ليقاتل بركيارق فقتل وقطعه غلمان النظام إرباً إرباً لما كانوا ينسبون اليه قتل نظام الملك .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٧٤ .

(٤) ابن الجـوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٤٣ ـ ٤٤ ، ٦٠ ـ ٦١ .

الكرملي : **خلاصة تاريخ العراق** ص ١١٦

(٥) محمـد بن المبـارك ابن عمـر أبـو حفص ابن الخرقي القاضي المحتسب كان حافظاً للقرآن صارماً في حسبته وكان المتعيشون يخافونه ومنع قوام الحمام أن يمكنوا أحداً يدخل الحمام بغير مئزر وتهددهم على ذلك بالاشهار . توفي سنة ١١٠٠/٤٩٤ .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٢٩

المخالفين ونفذ الأحكام .

ورغبة منه في تطوير التجارة الخارجية وتشجيع التجار الذين يحملون البضائع إلى بغداد أصدر أمره في سنة ١٠٨٧/٤٨٠ برفع الضرائب والمكوس، ومن أجل تعميم هذا القرار ، كتب على ألواح وعلق في مختلف مساجد بغداد[١] .

رابعاً ـ المظالم :

ومن أجل إقرار العدالة والمساواة بين الرعية وإعطاء كل ذي حق حقه عين في « ديوان المظالم » رجلاً يمتاز بالعفة والأمانة وخشية الله تعالى وأمره عند تقليده المظالم سنة ١٠٨٦/٤٧٩ بتقوى الله وتحري مرضاته . هذا الرجل هو زعيم الكفاة أبو منصور محمد بن محمد بن الحسين ابن المعوج[٢] الذي أحضره إلى الديوان وخلع عليه في حضور أرباب الدولة وخرج التوقيع بتقليده وفيه «ولما رأى أمير المؤمنين في محمد بن محمد بن الحسين من العفاف والديانة والثقة والصيانة قلده المظالم وقد اخذ عليه تقوى الله وطاعته والسعي في كل ما كان يزلفه عنده ويقربه من أمير المؤمنين » ، ثم خرج فجلس بباب النوبي ثم دعا الأمراء بالمعروف فكانوا أعوانه وكان حازماً نزيهاً ، لم يكتف المقتدي بصاحب المظالم بل كان يستقبل بنفسه أصحاب الحاجة الذين يقع عليهم ظلم من أحد ويستمع اليهم وينزل العقوبة بمن تثبت إدانته ويأمر صاحب المظالم بأن لا يطوي حال أحد من الرعية[٣] .

---

(١) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٨ ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣
المنتظم ج ٩ ص ٣٥

(٢) أبو منصور ابن المعوج : ١١٠٧/٥٠١
يلقب بزعيم الكفاة . كان حاجباً بالديوان مدة ثم ولي حجبة باب النوبي في أيام المقتدي وقلد المظالم وإقامة الحدود والشرطة . كان أبو منصور يقظاً حازماً . فيه شجاعة وقوة نفس وله رغبة في حسن الذكر .
الصفدي : **الوافي بالوفيات** ج أول ص ١٥٩

(٣) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٢٦ ـ ٢٧

أدب المقتدي وشعره

إن المقتدي كان محباً للآداب مكرماً لها ولأهلها وله شعر أورد الأصبهاني بعضاً منه :

أردت صفاء العيش مع من أحبه ... فحاولني عما أريد مريد
وما اخترت بت الشمل بعد اجتماعه ... ولكنه مما يريد أريد
أما والذي لو شاء غير ما بنا ... فأهوى بقوم من الثريا إلى الثرى
وبدلنا من ظلمة الجور بعدما ... دجا ليلها صبحا من العدل مسفرا
لئن نظرت عيني الى وجه غيره ... فلا صافحت أحضانها لذة الكرى
وإن تسع رجلي نحو غيرك أو سعت ... فلا أمنت أن تنزل وتعثرا
فوالله إني ذلك المخلص الذي ... عزيز على الأيام أن يتغيرا

هذا النوع من الشعر الغزلي العذري الذي يخلص فيه المحب لحبيب واحد وهو يمتاز بالرقة والسلاسة رغم ما فيه من تلاعب بالألفاظ[١] .

موت المقتدي

في المرحلة الأخيرة من حياته تدهورت العلاقة بينه وبين السلطان ملكشاه حتى أنه في سنة ١٠٩٢/٤٨٥ عندما دخل السلطان ملكشاه مدينة بغداد طلب من المقتدي أن يترك المدينة ويرحل عنها لأي بلد يريده إلّا أن السلطان وافته المنية قبل أن ينفذ تهديده فاستراح الخليفة قليلاً حيث أخذ يراقب تطورات المرحلة التالية وما ستسفر عنه[٢] .

حينئذ قبضت تركان خاتون زوجة ملكشاه على الحكم ونصبت ابنها الصغير محموداً سلطاناً مكان أبيه وخلع عليه وزير المقتدي عميد الدولة ، إلا أن الحرب شبت بين خاتون وابنها محمود من جهة وبين بركياروق الابن الأكبر

---

(١) خريدة القصر وجريدة العصر ص ٢٥ ـ ٢٦

(٢) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج ٩ ص ٧٤ . ابن طقطقي : الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ص ٢٩٦ .

لملكشـاه من جهة أخـرى وقد أسفـرت المعارك عن انتصـار بـركيـاروق[1] . والخليفة كان يميل الى بركياروق أكثر من محمود وأُمه خاتون ، لأنه رفض طلبها عندما راسلته بكتابة العهد لابنها .

وفي سنة ٤٨٧ / ١٠٩٤ حين دخل السلطان بركياروق إلى بغداد ، حمل معه المال اللازم للبيعة ، وتقدم الخليفة إلى أبي سعـد بن الموصـلايا كـاتب الانشاء أن يكتب عهده لبركياروق فكتب ، ورتبت الخلع ثم وقع الخليفة عليه ، وذلك يوم الجمعة رابع عشر محرم .

ويبدو أن قهرمانة المقتدي شمس النهار كانت ضالعة في مؤامرة للتخلص منه فقدمت له الطعام وقد دست فيه السم ، وهو على أكمـل ما يكـون صحة وعافية[2] .

وعندما تحققت شمس النهار[3] من موته استـدعت عميد الدولة بـن جهير واستوثقت منه على مصالحها وأخبرته بالأمر ثم أحضروا ابنه المستظهر وعزوه بوفاة والده وهنأوه بالخلافة[4] وبايعوه . ويؤكد بروكلمان أن بركياروق هو الذي قتل المقتدي انتقاماً لأنه اعترف بالسلطان محمود بن ملكشاه[5] .

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج ٩ ص ٦٢

(٢) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج ٩ ص ٦١ ، ٨٠ .

(٣) قهرمانة المقتدي تدعى شمس النهار وهي مدبرة شؤون المقتدي في قصر الخلافة

ابن الساعي : الجامع المختصر في عنوان التاريخ وعيون السير ص ٤١

(٤) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج ٩ ص ٨١ .

(٥) تاريخ الشعوب الاسلامية ص ١٣٩

الوزارة في عهد المقتدي بالله

مقدمة

يستمد الوزير نفوذه من نفوذ الخليفة وينوب عنه في إدارة ممتلكاته وأمواله وفي تصريف شؤ ون الناس وحل المشكلات الطارئة، وهو الذي يمثل الخليفة عند السلطان السلجوقي وفي المناسبات العامة .

وقد تولى أمر الوزارة في عهد المقتدي بالله ثلاثة وزراء .

الوزير الأول : فخر الدولة أبو نصر محمد بن محمد بن جهير[1] ٤٨٣ / ١٠٩٠

كان فخر الدولة من عقلاء الرجال ودهاتهم وكان في ابتداء أمره فقيراً مدقعاً ثم انتقل في الخدمات حتى اتصل بابن مروان[2] صاحب ديار بكر فخدمه مدة وأثرى عنده ثروة ضخمة ، فسمت همته إلى وزارة الخليفة ، فأرسل سراً إلى القائم وعرض عليه نفسه وبذل له ثلاثين ألف دينار .

---

(١) بنو جهير : هي إحدى العائلات التي تمكنت من السلطة تمكناً كاملاً وسيطرت على وزارة الخلفاء العباسيين أثناء حكم سلاطين السلاجقة • الكبار إنما دورها بدأ يتراجع بعد موت ملكشاه .
Encyclopédie de L'Islam T. . II . P. : 394 - 395

(٢) ابن مروان : ٤٥٣ / ١٠٦١ هو نصر الدولة أحمد ابن مروان الكردي صاحب ديار بكر استمرت امارته اثنين وخمسين سنة . ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ١٧

وقد تمكن فخر الدولة بأمواله أن يحتل وزارة الخلافة حيث خلع عليه القائم حين وصوله إلى بغداد خلع الوزارة وذلك في سنة ١٠٦٢/٤٥٤

ونجح نجاحاً كبيراً في مهمته واستمال أمراء أطراف بغداد إلى الخليفة بعد أن كانوا قد شقوا عصا الطاعة عليه .

ولما مات القائم قام الوزير فخر الدولة بأخذ البيعة للمقتدي أحسن قيام فأقره على وزارته وبقي فيها حتى سنة ١٠٧٨/٤٧١ حيث وقعت في مدينة بغداد فتنة بين الأشعرية والحنابلة وذلك عندما ورد إلى مدينة بغداد أبو نصر بن القشيري[١] الذي كان يشنع على الحنابلة في أحاديثه ، وقد استغل أصحاب نظام الملك في بغداد هذه الحادثة واتهموا وزير الخليفة بأنه يعادي الأشاعرة ، فأشار نظام الملك على المقتدي بعزله وعلى الفور تم تنفيذ أمره[٢] .

وفي هذه الأثناء أرسل نظام الملك كوهرائين من جديد إلى شحنكية العراق وأمره بالقبض على بني جهير وإيذائهم . انتبه عميد الدولة بن فخر الدولة إلى المكيدة التي تحاك ضد أهله ، فتوجه مباشرة إلى نظام الملك وأخذ يتقرب إليه بدهائه وذكائه حتى استرضاه وتزوج ابنة بنته وعاد إلى بغداد مرتاح البال وذلك في سنة ١٠٧٨/٤٧١

وكان المقتدي قد عين في وزارته أبا شجاع محمد بن الحسين[٣] .

---

(١) أبو نصر عبد الرحيم القشيري : ١١٢٠/٥١٤ كان إماماً كبيراً ، واظب على دروس أبي المعالي الجويني ثم حصل طريقته في المذهب والخلاف وعظ بالنظامية ورباط شيخ الشيوخ ، كان متعصباً للأشعرية شديداً على الحنابلة ، قربه نظام الملك اليه ابن خلكان : **وفيات الأعيان** ج ٣ ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨

(٢) السيوطي : **تاريخ الخلفاء** ص ٤٢٤ . ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥

(٣) ابن الأثير : **الكامل في التاريخ** ج ١٠ ص ١١٠

الوزير الثاني للخليفة المقتدي هو أبو شجاع ظهير الدين محمد بن الحسين الهمذاني : توفي سنة ٥١٣/ ١١١٩

دخل أبو شجاع محمد بن الحسين إلى ديوان الوزارة في يوم السبت سلخ جمادى الآخرة من سنة ٤٧١/ ١٠٧٨ وبقي وزيراً حتى يوم الثلاثاء السادس عشر من ذي القعدة من نفس السنة ، وفي هذه المرة حل مكانه الوزير عميد الدولة . وفي سنة ١٠٨٣/٤٧٦ يوم الخميس النصف من شعبان خلع الخليفة على الوزير أبي شجاع محمد بن الحسين خلع الوزارة من جديد ولقب بظهير الدين .

واستمر في الوزارة إلى سنة ١٠٩١/٤٨٤ حيث خرج توقيع الخليفة بعزله في يوم الخميس التاسع من شهر رمضان وذلك بتأثير الشكوى التي وجهها ضده السلطان ملكشاه[١] .

قرأ الفقه على الشيخ أبي إسحاق الشيرازي وقرأ الأدب وصنف كتباً منها كتابه في التاريخ الذي ذيله على كتاب « تجارب الأمم » تأليف أبي علي أحمد ابن محمد المعروف بمسكويه توفي سنة ٤٢١/ ١٠٣٠[٢] .

استطاع أبو شجاع أن ينهض بأعباء الوزارة على أحسن ما يرام وأن يرفع من شأن الخلافة ، وأن ينشر العدل والأمن ويقضي على الظلم ويحفظ أمر الدين .

قال العماد الكاتب في الخريدة في حقه « وكان عصره أحسن العصور وزمانه أنضر الأزمان ولم يكن في الوزراء من يحفظ أمر الدين وقانون الشريعة مثله ، صعباً شديداً في أمور الشرع ، سهلاً في أمور الدنيا ، لا تأخذه في الله لومة لائم .

ذكره الهمذاني في الذيل فقال « كانت أيامه أوفى الأيام سعادة للدولتين

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ج ٨ ص ٣١٩ . المنتظم ج ٩ ص ٦ ، ٥٦ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ١٣٤ ، ١٣٧ .

وأعظمها بركة على الرعية وأعمها أمناً وأشملها رخصاً وأكملها صحة لم يغادها بؤس ولم تشبها مخافة وقامت للخلافة في نظره من الحشمة والاحترام ما أعادت سالف الأيام وكان أحسن الناس خطاً ولفظاً[1] ، وكان رجلاً ديناً خيّراً كثير الصدقة وقف له على ثبت خرج على وجوه البر والصدقات بما قدره مئة وعشرون ألف دينار ، وكان الذي أورد هذا الثبت كاتباً من جملة عشرة كتبة يكتبون صدقاته الخاصة[2] .

كان يصلي الظهر ويجلس لكشف المظالم إلى وقت العصر وكان الحجاب ينادون في الناس ، من كانت له حاجة فليعرضها .

ومن مناقبه أنه لما وقعت الفتن بين السنة والشيعة في الكرخ وباب البصرة من مدينة بغداد تغاضى عن إراقة الدماء ، غاية التغاضي حتى قال له المقتدي : إن الأمور لا تمشي بهذا اللين الذي تستعمله وقد أطمعت الناس بحلمك وتجاوزك . وحج بيت الله تعالى ولم يؤرخ عن وزير أنه حج في أيام وزارته إلا هذا فإن الوزراء قبله كانوا يحجون بعد خلوهم من الوزارة .

كان يجب الإنفاق في سبيل الخيرات والصدقات فوقف الوقوف الحسنة وبنى المشاهد وأكثر الإنعام على الأرامل والأيتام ، وكان يؤدي زكاة أمواله الظاهرة في سائر أملاكه وضياعه وإقطاعه ويتصدق سراً وعرضت عليه رقعة فيها : إن الدار الفلانية بدرب القيار[3] فيها امرأة معها أربعة أيتام وهم عراة جياع فاستدعى صاحباً له وقال له :مرّ واكسهم وأشبعهم ، وخلع أثوابه وحلف: لا لبستها ولا دفئت حتى تعود إلي وتخبرني أنك كسوتهم وأشبعتهم، ولم يزل يرعد من البرد إلى أن جاء صاحبه[4] وأخبره بذلك وكانت له مبار كثيرة .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ١٣٥ ، ١٣٦

(٢) ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ص ٢٩٧

(٣) درب القيار :ناحية ببغداد الشرقية وهي محلة كبيرة مشهورة .
ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٤١٩ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ١٣٧ ـ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٥٠ ، ١٥١

وكان لا يجلس في الديوان إلا وعنده الفقهاء فإذا وقع له أمر مشكل سألهم عنه فحكم بما يفتونه ، وكان كثير التواضع مع الناس خاصتهم وعامتهم .

في سنة ١٠٩١/٤٨٤ طلب السلطان من الخليفة أن يعزل أبا شجاع من الوزارة بسبب تشدده في أمور الشرع وتضييقه على أهل الذمة ، وبعد عزله خرج يوم الجمعة إلى المسجد ، ماشياً متلفعاً بمنديل من قطن مع جماعة من العلماء والزهاد فعظمت العامة ذلك وانهالت عليه تصافحه وتدعو لـه وكان ذلـك سبباً لإلزامه القعود في داره وهذا دليل على تقدير العامة وتعظيمها له لأنها كـانت تتشوق للعدالة والمساواة .

ثم خرج إلى روذراور[1] وهي موطنه فأقام هناك مدة وبعدها سافـر إلى الحج سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، وجاور بعد الحج بمدينة الرسول ﷺ إلى أن تـوفي في النصف من جمادى الآخـرة سنة ثمـانٍ وثمـانين وأربـع مـائـة ودفن بالبقيع[2] .

قال السمعاني[3] : سمعت من أثق به يقول إن الوزير أبا شجاع وقت أن قرب أمره وحان ارتحاله من الدنيا حمل إلى مسجد النبي ﷺ فوقف عند الحظيرة وبكى وقال : يا رسول الله ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ ولو أنهم إذ ظلمـو أنفسهم جاؤ وك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ (النساء ٦٤) ، وبكى ورجع وتوفي من يومه .

ذكره الحافظ ابن السمعاني في « الذيل » فقال : كان يرجـع إلى فضل كامل وعقل وافر ورزانة ورأي صائب وكان له شعر رقيق مطبوع فحين صرف من الوزارة ذهب إلى بيته وهو يقول :

---

(١) روذراور : هي بليـدة بنواحي همـذان ـ **وفيات الأعيان** ج ٥ ص ١٣٧

(٢) البقيع : مقبرة أهـل المدينـة المنورة : يـاقوت **معجم البلدان** ج ١ ص ٤٥٣ .

(٣) السمعاني : ١١٦٦/٥٦٢ : هو تاج الاسلام أبو سعد عبد الكـريم بن أبي بكر محمـد بن أبي المـظفـر التميمي ، الفقيـه الشـافعي الحـافظ الملقب قوام الدين صنف التصانيف الغزيرة منها تذييل تاريخ بغداد وتاريخ مرو والأنساب . ابن خلكان **وفيات الأعيان** ج ٣ ص ٢٠٩

تولاها وليس له عدو وفارقها وليس له صديق[1]

ومن أشعاره :

لأعذبن العين غير مفكر فيها بكت بالدمع أو فاضت دما
ولأهجرن من الرقاد ولذيذه حتى يعود على الجفون محرما
هي أوقعتني في حبائل فتنة لو لم تكن نظرت لكنت مسلما
سفكت دمي فلأسفكن دموعها وهي التي بدأت فكانت أظلما[2]

هذه الأبيات من عيون شعر الزهد الذي كان شائعاً في العصر العباسي والذي يمثل جانباً هاماً من جوانب هذا العصر .

إن من شتت الجميع من الشمـ ل قدير بأن يجمع أهلا
لست مستيئساً وإن طال هجر رب هجر يكون عقباه وصلا
وإذا أعقب الوصال فراق كان ذاك الوصال في القلب أحلى[3]

هذا غزل رقيق يذوب فيه قلب الشاعر لا ييأس من لقاء حبيبه ولو بعد حين وهو لا يقل قيمة عن جيد الغزل في الشعر العربي .

الوزير الثالث : عميد الدولة محمد بن محمد بن محمد بن جهير ٤٩٣/ ١٠٩٩

هو أبو منصور بن أبي نصر الوزير بن الوزير الملقب عميد الدولة .

كان حسن التدبير كافياً في مهمات الخطوب كثير الحلم لم يعرف أنه عجل على أحد بمكروه وقرأ الأحاديث على المشايخ وكان كثير الصدقات يجيز العلماء ويثابر على صلاتهم .

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٥٦ ـ ابن الطقطقي ـ الفخري ص ٢٩٨
ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ١٣٦

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ١٣٦

(٣) ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ص ٢٩٩

وكان ذا شهامة وصرامة وفصاحة وحماسة وسماحة له من الوقار والهيبة ما لم يعرف في غير الطود الأشم ، والبحر الخضم . كان القائم والمقتدي يرسلانه في رسائل إلى السلاطين فتنجح على يده وكان فاضلاً حصيفاً فاستحلاه نظام الملك وزير السلطان وكان يعجب منه ويقول وددت أني ولدت مثله ثم زوجه ابنته واستوزره المقتدي وفوض الأمور إليه ثم عزله فشفع له نظام الملك فأعيد إلى الوزارة[1] .

فقال ابن الهبارية الشاعر في ذلك يهجو عميد الدولة :

قـل للوزير ولا تفـزعـك هيبتـه	وإن تعـاظم واستـولى لـمنـصبـه
لولا ابنة الشيـخ ما استـوزرت ثانيـة	فاشكر حراً صرت مولانا الـوزير بـه

وكان عميد الدولة في سنة ٤٦٢/١٠٦٩ قد تزوج ابنة نظام الملك زبيدة التي توفيت سنة ٤٧٠/١٠٧٧ ثم عاد فتزوج صفية ابنة بنت نظام الملك في سنة ٤٧١/١٠٧٨[2] .

وعميد الدولة ، خدم ثلاثة خلفاء ووزر لإثنين منهم ؛ تقلد وزارة المقتدي في صفر سنة اثنتين وسبعين فبقي فيها خمس سنين ثم عزل بالوزير أبي شجاع ثم عاد بعد عزل أبي شجاع في سنة أربع وثمانين فلم يزل إلى أن مات المقتدي . ثم دبر أمر المستظهر التدبير الحسن ثماني سنين وأحد عشر شهراً وأربعة أيام وكان عيبه عند الناس الكبير وكانت كلماته معدودة فإذا كلم شخصاً قام ذلك مقام بلوغ الأمل حتى أنه قال يوماً لولد أبي نصر بن الصباغ اشتغل وادأب وإلّا كنت صباغاً بغير أب فلما نهض المقول له ذلك من مجلسه هنأه الناس بهذه العناية . ثم وقع بين عميد الدولة وبين سلاطين العجم وقعة فطلبوا من الخليفة عزله ، فعزله المستظهر في شهر رمضان سنة ٤٩٣/١٠٩٩ ثم حبسه في داره واستصفى أمواله وأموال من يلوذ به من العمال والنواب وأخرج ميتاً في شوال سنة ثلاث

---

(١) ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧ .

(٢) الأصبهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ص ٩٢ . الكامل ج ١٠ ص ١٠٨ ، ١١٠

وتسعين وأربع مابة\وحمل إلى داره فغسل فيها ودفن بالتربة التي استجدها في قراح[1] ابن رزين وقيل إن المستظهر أدخل عميد الدولة بن جهير حماماً وسمّر عليه الباب إلى أن مات فيه وأخرج للشهود ليشهدوا أنه ليس فيه أثر قتل[2] ليقال مات حتف أنفه ودخل في جملة الشهود أخوه الكافي فصاح يا أخي يا أبا منصور قتلوك وجعل يرددها دفعات فقيل إن خمسماية خادم خلعوا مداساتهم وخفافهم وصفعوه بها فوقع ميتاً ولم يسمع بمن مات هذه الميتة .

وكان لعميد الدولة رياسة وهو من الوزراء الممدوحين ؛ قال العماد الكاتب مدحه عشرة آلاف شاعر ويقال إنه مدح بماية ألف بيت ومن شعرائه مسعود بن العلاء المعروف بابن الخباز ومن مدحه فيه من جملة قصيدة :

مجرب الرأي يقظان البصيرة	سجام العزيمة قوام البراهين
يريك في الدست أطراقاً وهيبته	من الصعيد إلى أقطار جيحون
للحمد لديه سوق غير كاسدة	وللمدايح أجر غير ممنون[3]

وقد مدحه الشاعر صردر[4] في قصيدة جاء في مطلعها :

قد بان عذرك والخليط مودع	وهوى النفوس مع الهوادج يرفع
لك حيثما سمت الركائب لفتة	أترى البدور بكل واد تطلع

كان عميد الدولة يقول الشعر ، فمن شعره :

إلى متى أنت في حل وترحال	تبغي العلى والمعالي مهرها غالي
يا طالب المجد دون المجد ملحمة	في طيها خطر بالنفس والمال
ولليالي صروف قلما انجذبت	إلى مراد امرىء يسعى بلا مال

---

(١) قراح ابن رزين : محلة تقع تقريباً في وسط بغداد الشرقية . ياقوت :**معجم البلدان** ج ٤ ص ٣١٥.

(٢) الصفدي الوافي بالوفيات ج أول ص ١٧٤
ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١١٨

(٣) الصفدي : الوافي بالوفيات ج ١ ص ٢٧٢ - ٢٧٣

(٤) صردر : الرئيس أبو منصور علي بن الحسن بن علي بن الفضل الكاتب الشاعر المشهور أحد نجباء شعراء عصره توفي سنة ٤٦٥/١٠٧٢
ابن خلكان : **وفيات الأعيان** ج ٣ ص ٣٨٥ - ٣٨٦ .

هذا شعر حكمي يصور سعي صاحبه نحو المجد والعلا وهو يمتاز بالسلاسة ويحفظ بلا عناء وأورد له السمعاني في الذيل :

يقول صديق للسان مخاتر ... كما قيل في الأمثال عنقاء مغرب
فأما إذا ما رمت شخصاً معيناً ... من الناس موجوداً فذلك متعب[1]

(١) ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ص ٢٩٧ . خريدة العصر ص ٩١

الفصل الثالث

العلاقة بين الخليفة المقتدي والسلطان السلجوقي

مقدمة

عندما بسط السلاجقة نفوذهم على الأجزاء الشرقية من العالم الاسلامي أصبحت مدينة بغداد في منتصف القرن الخامس الهجري جزءاً من مملكتهم ودخل الخليفة العباسي في اطار نفوذهم السياسي[١] وفي عهد السلاطين السلاجقة الذين كانوا يدينون بالمذهب السني ارتفع شأن الخلافة مجدداً ، لأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم خدماً وحراساً لأمير المؤمنين العباسي وهم يضربون بسيفه وينفذون أمره[٢] ويقبلون الأرض بين يديه رمزاً لطاعته وتوقيره[٣]. كل هذا كان من الناحية الشكلية فقط ، أما من الناحية العملية فقد اقتصر نفوذ الخليفة على الأمور الدينية وكان يخطب له على المنابر في مناطق عديدة من العالم الإسلامي كتعبير عن الولاء الديني للخلافة العباسية التي كانت ترمز في نفوس الناس إلى استمرار الدعوة الإسلامية . وعلى العموم أصبحت الخلافة رئاسة تشريفية دينية وانزوى الخلفاء في قصورهم يحاولون استعادة مكانتهم الدينية والاجتماعية وانصرفوا إلى إقامة الشعائر الإسلامية وحماية الدين[٤] .

---

(١) ابن الجوزي : **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** ج ٨ ص ٢٠٨

(٢) ابن الجوزي : المصدر نفسه ص ٢٠٤

(٣) ابن الجوزي : المصدر نفسه ص ٢٠٧

(٤) اطلس : **تاريخ العرب** ص ١٧١ ـ الخربوطلي **الاسلام والخلافة** ص ١٤٦

أولاً - الخطبة للمقتدي

في عهد المقتدي كانت قواعد الخلافة باهرة وحرمتها وافرة[1] وخطب له في الشرق بأسره وما وراء النهر والهند وغزنة والصين والجزيرة والشام واليمن[2] . وفي سنة ٤٧٩/١٠٨٦ أرسل يوسف بن تاشفين صاحب سبتة ومراكش إلى المقتدي يطلب أن يسلطنه ، فبعث اليه الأعلام والخلع والتقليد[3] .

وإذا تتبعنا تطورات الأحداث في كل بلد نرى أن الخطبة للخليفة المقتدي كانت بين مد وجزر بصورة مستمرة .

ففي سنة ٤٦٧/١٠٧٤ خطب للمقتدي في اليمن والشامات وبيت المقدس والحرمين وفي عيد الأضحى من السنة نفسها قطعت الخطبة العباسية والسلطانية من مكة وأعيدت الخطبة المصرية وكانت مدة الخطبة العباسية بها أربع سنين وخمسة أشهر .

إلاّ أنه في سنة ٤٦٨/١٠٧٥ أعيدت الخطبة العباسية بمكة من جديد مرة ثانية وتحسنت العلاقة بين بغداد ومكة سنة ٤٦٩/١٠٧٦ عندما وصل إلى مكة رسول الخليفة أبو طالب الزينبي وأخذ البيعة من أميرها للمقتدي . وما أن أهلّ شهر رمضان من سنة ٤٧٠/١٠٧٧ ، حتى أرسل الخليفة المقتدي إلى مكة منبراً مكتوباً عليه لا إله الا الله محمد رسول الله الامام المقتدي ، كدليل على حسن العلاقة بين الخليفة وأمير مكة[4] .

وإذا بأمير مكة قد قلب ظهر المجن للعباسيين وأقام الخطبة المصرية وكسر

---

(١) الكتبي : فوات الوفيات الجزء الاول ص ٤٨٩

(٢) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٠

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٤٢٤ .

(٤) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج ٨ ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٠٧ ، ٣١١ ، القلقشندي صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧٠ - ٢٧١

المنبر وأحرقه وتستمر الحال هكذا حتى سنة ١٠٧٨/٤٧١ حيث تعود الخطبة العباسية والسلطانية إلى مكة مجدداً وما ينطبق على مكة ينطبق على البلاد الشامية التي كانت مسرحاً للصراع بين الخلافة الفاطمية والسلطنة السلجوقية[١]

أما علاقة المقتدي بالله العباسي بالسلطان ملكشاه السلجوقي فإنها لم تسر على وتيرة واحدة ، رغم الاحترام والتقدير الذي تمتع به الخليفة على صعيد العامة وعلى صعيد السلطان وحاشيته . فالسلطان ملكشاه أعطى البيعة للمقتدي بعد أن بايعه الوزراء وأرباب الدولة ووجهاء البلد وفقهاء المسلمين ولكن اعطاء البيعة من السلطان لا تعني في ذلك الوقت الخضوع لسلطة الخليفة وإنما هي اعتراف بسلطته الروحية فقط[٢] .

ثانياً ـ نظام الملك يتدخل في أمور المقتدي

كان وزير السلطان ملكشاه ، نظام الملك هو الذي يتولى إدارة أمور مملكته ويسهر على شؤون الرعية ويرسم سياسة السلطان ويخطط له .
وكان وزير السلطان هذا يتدخل في كل أمر يجري في مدينة بغداد ؛ مثلاً في سنة ١٠٧٦/٤٦٩ عندما وقعت فتنة بين الحنابلة والأشعرية ، أرسل نظام الملك كتابه إلى وزير الخليفة ، فخر الدولة ، مستنكراً تسلط الحنابلة على الطائفة الأخرى وهذا ما أرهب الخليفة العباسي الذي طلب من وزيره أن يحسم الخلاف على وجه السرعة حتى ينجو من تشنيع الشافعية .

وفي سنة ١٠٧٧/٤٧٠ وجه نظام الملك كتاباً إلى أبي إسحاق الشيرازي يظهر فيه حياده بين المذاهب كما يظهر تأييده للسنن ورفضه للفتن ويعترف بمكانة المذهب الحنبلي في التشريع الإسلامي .

---

(١) ابن الجوزي : **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** ج ٨ ص ٣١٢ ، ٣٢٣ .

(٢) ذكر ابن الجوزي في الجزء الثامن ص ٢٩٤ « وفي يوم الخميس السابع والعشرين من رمضان خرج عميد الدولة أبو منصور وصار إلى حضرة السلطان لأخذ البيعة للمقتدي وحمل معه ثماني مائة ثوب أنواعاً وخمسة عشر ألف دينار » .

وفي سنة ١٠٧٨/٤٧١ مرت العلاقات بين السلطان ملكشاه والخليفة المقتدي في مرحلة حرجة ، ظهر فيها الخليفة ألعوبة بسيطة بين يدي السلطان ووزيره نظام الملك وذلك عندما أرسل السلطان كتاباً إلى المقتدي يطالبه بعزل وزيره فخر الدولة ، وفي نفس الوقت أعطى أوامره إلى الكوهرائين سعد الدولة بمحاصرة باب الفردوس[1] حتى يتم تسليم فخر الدولة بصورة مهينة جداً .

إن التصرفات التي قام بها سعد الدولة وجنوده حول الديوان تعطينا صورة بارزة عن مدى الاحتقار والمذلة التي ألمت بالمقتدي وبمقام الخلافة العباسية ، ولم يتراجع سعد الدولة عن أعماله إلّا بعد أن جاءته الأوامر من السلطان ووزيره النظام .

لقد طرد فخر الدولة من وزارة المقتدي بالقوة وعندما عين الخليفة مكانه الوزير أبا شجاع محمد بن الحسين ، جاءت الأوامر من نظام الملك بأن يعزله ويرتب مكانه عميد الدولة بن فخر الدولة ، فنفذ الخليفة إرادته بدون معارضة .

أما لماذا طرد فخر الدولة من ديوان الوزارة فالآراء فيه متضاربة ، فبينما يرد ابن الأثير السبب إلى الفتنة التي وقعت بين الحنابلة والأشعرية وفخر الدولة هو المسؤول عنها[2] .

نرى بالمقابل أنه طرد بسبب ممالأته على الشافعية كما يذكر ابن كثير[3] .

ويعاكسه في هذا الرأي السيوطي الذي يؤكد بأنه طرد بسبب شذوذه عن الحنابلة[4] .

ومهما تكن الأسباب فإن طرد فخر الدولة ابن جهير من ديوان الخليفة بهذه

---

(١) باب الفردوس : أحد أبواب دار الخلافة ببغداد . ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٢٤٨

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ١٠٩

ابن الجوزي : المنتظم ج ٨ ص ٣٠٥ - ٣٠٦ ، ٣١٢ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ١١٩ .

(٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٤٢٤ .

الطريقة ، يعتبر تحدياً سافراً للسلطة الهزيلة التي يستند اليها المقتدي في بغداد .

ثالثاً ـ المقتدي يتزوج بنت السلطان ملكشاه

وعندما وصلت الأمور إلى هذا المستوى ، كان من الطبيعي أن يفكر الخليفة في تقوية موقفه وتعزيز مركزه عند السلطان السلجوقي ووزيره والمصاهرة هي الوسيلة التقليدية التي يألفها الناس في مثل هذه الأحوال .

لذلك أرسل المقتدي وزيره فخر الدولة ، أبا نصر بن جهير في سنة ١٠٨١/٤٧٤ ، إلى أصبهان كي يخطب له بنت السلطان .

مكث فخر الدولة فترة تقارب السنة عند السلطان وأجرى محادثات عديدة معه من جانب ومع زوجته خاتون من جانب آخر ، أسفرت في النهاية عن قبول زوجة السلطان بتزويج ابنتها إلى الخليفة وفق شروط أهمها أن لا يبقى في دار الخلافة سرية ولا قهرمانة وأن يكون مقامه عندها[١] . واستمرت فترة الخطوبة من سنة ١٠٨٢/٤٧٥ إلى سنة ١٠٨٧/٤٨٠ وفي المحرم منها انتقلت خاتون بنت السلطان إلى دار الخلافة ومعها الجهاز بموكب من الأبهة والعظمة ، وشارك في هذا الموكب أرباب الدولة وفرق البوقات والطبول وانتشرت الزينة في مدينة بغداد بأسرها ولكن رغم كل هذه المظاهر لم يتمكن المقتدي من الحصول على شيء من النفوذ أو الاستقلال ولو في داخل مدينة بغداد ذاتها ، والأحداث التي مرت في أيام المقتدي تبين أن موقفه لم يتحسن ولم يستفد من تقربه إلى السلطان ملكشاه[٢] .

ففي سنة ١٠٨٢/٤٧٥ أرسل الخليفة المقتدي ، الشيخ أبا إسحاق الشيرازي برسالة إلى السلطان ملكشاه ونظام الملك ، هذه الرسالة تتضمن الشكوى من تصرفات العميد أبي الفتح بن أبي الليث ، ضد حاشية الخليفة

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والامم ج ٩ ص ٢ ـ ٣ ، ص ٣٦ ـ ٣٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ١٢٠ ، ١٦٠

والمقربين منه . إذ أن عميد العراق كان يتحكم في أمور الخليفة الخاصة .

وفي سنة ١٠٨٣/٤٧٦ عندما عزل المقتدي عميد الدولة من وزارتـه ، يقول ابن الجوزي بأنه توجه إلى السلطان بدون اذن المقتدي وهذا الأمر استهتار واضح بشأن الخليفة بينما يؤكد ابن الأثير أن السلطان ووزيره نظام الملك قد أرسلا إلى الخليفة يطلبان منه أن يرسل إليهما بني جهير ، فإذا صحت الرواية الثانية يعتبر تكريم بني جهير غمزاً من قناة الخليفة أيضاً[١] .

رابعاً - المقتدي يخلع على ملكشاه

بعد هذه الحادثة بدأت العلاقة تتحسن بين المقتدي والسلطان ؛ ففي سنة ١٠٨٦/٤٧٩ توجه ملكشاه إلى بغداد ، بإيعاز من زوجته خاتون كي تنقل ابنتها إلى دار الخليفة ، وعندما اقترب موكب السلطان من المدينة ، أرسل الخليفة موكباً لاستقباله وتهنئته ، ونزل السلطان دار المملكة وضرب وزيره نظام الملك سرادقاً حتى يقتدي به العسكر فلا يزعجوا الناس .

وبعـد أن قدم ملكشـاه الهدايـا إلى المقتدي ، أقـام الخليفـة استقبـالاً للسلطان ولأمراء عسكره حيث استقبلهم فرداً فرداً وأخيراً استقبل السلطان وخلع عليه[٢] وفوض إليه أمر العباد والبلاد وأمره بالعدل وبعد ذلك قام ملكشاه فقبل خاتم الخليفة ثم خلع الخليفة على نظام الملك أيضاً وأراد السلطان أن يبرهن عن احترامه للخليفة فزاد في إقطاعه وأملاكه[٣] .

وفي أجواء المودة هذه رزق السلطان ملكشاه ولداً أسماه أحمد وجعله ولي

---

(١) ابن الأثير : **الكامل في التاريخ** ج ١٠ ص ١٢٥ ، ١٢٩ ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٣٥ - ابن الأثير - **الكامل** ج ١٠ ص ٢٥٦

(٢) خلع عليه : أي ألبس الخليفة السلطان الأثواب المعدة لهذه المناسبة وهذا رمز لتسليمه السلطة وتفويض أمر البلاد والعباد إليه نيابة عن الخليفة .

(٣) ابن كثير : **البداية والنهاية** ج ١٠ ص ١٥٦ - ١٥٧ - ١٥٨

عهده وطلب من المقتدي أن يخطب له في بغداد فتم له ما أراد، كما نثر الذهب على الخطباء. إنما الفرحة بولي العهد لم تكتمل لأن الموت دهمه في سنة ٤٨١/١٠٨٨ وحزنت عليه مدينة بغداد .

إلّا أن اعتداءات الأتراك أصحاب خاتون زوجة الخليفة أدت إلى نفور العامة منهم لذلك أصدر المقتدي أمره بإخراجهم من الحريم فوراً بصورة مهينة ، فباتوا بدار المملكة وهذا دليل على استعادة بعض نفوذه[١] .

خامساً ـ تدهور العلاقة بين ملكشاه و المقتدي

وما كاد المقتدي يتنفس الصعداء حتى أخذت علاقته بالسلطان تسوء شيئاً فشيئاً ، وكانت بداية هذه الانتكاسة ، تعود إلى سوء التفاهم الذي وقع بين المقتدي وزوجته خاتون ابنة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٢/١٠٨٩ ، وقد تطور هذا الخلاف وانكشف أمره عندما أخبرت خاتون أباها بالأمر وشكت له أعراض المقتدي عنها . وعلى الفور أرسل السلطان إلى الخليفة يطلب ابنته التي توجهت إلى بيت أبيها في أصبهان[٢] بموكب يليق بها مع ابنها الأمير أبي الفضل[٣] جعفر ابن المقتدي وما كادت تستريح في بيت والدها حتى فارقت الحياة في السنة نفسها ، فتمت التعزية بها في أصبهان ومدينة بغداد .

وبدأ السلطان ملكشاه من الآن فصاعداً يخطط لإزعاج الخليفة والانتقام منه عندما تسنح الفرصة[٤] .

في سنة ٤٨٤/١٠٩١ دخل السلطان مدينة بغداد ومكث في دار

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والامم ج ٩ ص ٣٨ ، ٤٤ .

(٢) أصبهان : مدينة ايرانية عظيمة ـ ياقوت : معجم البلدان ج أول ص ٢٠٦

(٣) أبو الفضل جعفر بن المقتدي : ٤٨٦/١٠٩٩ ابن الجوزي : المنتظم ٩ ص ٧٧

(٤) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٤٦ ـ ٤٧ ، ٥٥ ـ ٥٦ ، ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٧٥ ـ ١٧٦

المملكة حتى يكون على مقربة من المقتدي[1] ، الذي بدأ نفوذه يتقلص أكثر فأكثر حتى لم يعد له من الأمر إلّا الاسم ، لا يتعدى حكمه بابه ولايتجاوز جنابه[2] .

وأقام السلطان أيضاً عيد ميلاده على نهر دجلة واشتركت بغداد بزينة باهرة في هذه المناسبة ، في البر والنهر .

خلّد هذا الاحتفال أبو القاسم المطرز فأنشد قائلاً :

« وكل نار على العشاق مضرمة ... من نار قلب أو من ليلة الصدق
نار تجلت بها الظلماء واشتبهت ... بسدفة الليل فيها غرة الفلق
وزارت الشمس فيها البدر واصطلحا ... على الكواكب بعد الغيظ والحنق
مدت على الأرض بسطاً من جواهرها ... ما بين مجتمع وار ومفترق
مثل المصابيح إلّا أنها نزلت ... من السماء بلا رجم ولا حرق
أعجب بنار ورضوان يسعرها ... ومالك قائم منها على فرق
في مجلس ضحكت روض الجنان له ... لما جلت ثغره عن واضح يقق[3]
وللشموع عيون كلما نظرت ... تظلمت من يديها أنجم الغسق
من كل مرهفة الأعطاف كالغصن الميـاد لكنه عار من الورق
إني لأعجب منها وهي وادعة ... تبكي وعيشتها في ضربة العنق[4]

هذا النوع من الشعر الوصفي يعتمد التورية والتكلف وفيه تظهر المحسنات البديعية وإجمالاً هو شعر تغلب عليه صفة التقليد .

وبقدر ما كانت الفرحة تنتاب ملكشاه ، كان الحزن والألم يعصر قلب المقتدي ويعكر صفو حياته .

بعد كل ما جرى من تحطيم لمعنويات المقتدي ، أقدم السلطان ملكشاه

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٥٧ .
(٢) ابن دحية : النبراس ص ١٤٤ ـ ١٤٥
المقريزي : السلوك ج ١ ص ٢١ .
(٣) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٥٧ .
(٤) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٥٨ ، ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ١٩٩

على التدخل المباشر في مصير الخلافة العباسية ، وطلب من المقتدي أن يجعل أبا الفضل جعفراً ابن بنت السلطان ولياً لعهده بدلاً من ابنه الأكبر الإمام المستظهر بالله الذي كان المقتدي قد بايع له بالخلافة من بعده[1] .

وحاول الخليفة أن يتملص من هذا الأمر ، إلاّ أن السلطان كان مصمماً على الانتقام من المقتدي وإجلائه نهائياً عن مدينة بغداد ، فحين دخلها سنة ١٠٩٢/٤٨٥ ، بعث إلى الخليفة يقول له : لا بد أن تترك لي بغداد وتنصرف إلى أي البلاد شئت. فانزعج الخليفة من هذا انزعاجاً شديداً ثم طلب من السلطان أن يمهله شهراً واحداً فرفض السلطان وقال ولا ساعة واحدة . ثم اتصل الخليفة بوزير السلطان تاج الملك أبي الغنائم الذي تمكن من اقناع السلطان أن يمهل الخليفة عشرة أيام كي يرتب أموره ويرحل إلى البصرة أو إلى أي بلد يختاره[2] .

وهكذا حل بالمقتدي ذل وهوان لا مثيل له في حياته كلها وهو لا يستطيع أن يرد عن نفسه ولا يستطيع أن يقف في وجه ملكشاه ، فالتجأ إلى ربه يدعوه ليلاً ونهاراً أن يفرج عنه ويخرجه من هذا المأزق وكان يقوم الليل ويصوم النهار خاشعاً متضرعاً إلى الله تعالى .

وفي هذه الفترة خرج السلطان إلى الصيد فعاد مريضاً ومات قبل أن تنتهي فترة الانذار التي أعطاها للخليفة وعد هذا الأمر كرامة للمقتدي ، وقد تخلص من عار محقق ومأساة واقعة ، وهكذا وصل الخليفة إلى درجة من الضعف لا يحسده عليها عدو[3] .

بموت السلطان ملكشاه ، انقضى العصر الذهبي للسلطنة السلجوقية وبدأ

---

(١) ابن خلكان : **وفيات الاعيان** ج ٥ ص ٢٨٨
عبد الملك بن حسين : **سمط النجوم العوالي** ج ٣ ص ٣٧٠ .

(٢) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٦٢
ابن طقطقي : **الفخري في الآداب السلطانية** ص ٢٩٦

(٣) ابن الطقطقي : **الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية** ص ٢٩٦
ابن خلكان : **وفيات الاعيان** ج ٥ ص ٢٨٩

عهد الانقسامات السياسية والحروب بين ورثة العرش السلجوقي مما أدى إلى تشتيت صفوفهم وإضعاف سلطتهم ولكن رغم هذا الضعف فقد حرص سلاطين السلاجقة على الاستئثار بالسلطة دون الخلفاء وكانوا ينتهزون كل فرصة للتعبير عن هذه الرغبة[1] .

سادساً ـ المقتدي يخلع على محمود بن ملكشاه

كان للسلطان ملكشاه أربعه بنين وهم : بركيارق ومحمد وسنجر ومحمود . وكان محمود طفلاً فبايعوه على السلطنة لأن أمه تركان خاتون[2] كانت مستولية في أيام ملكشاه ولأن الأمراء والوزراء كانوا من صنائعها فاختاروا ولدها والخاتون المذكورة كانت من أولاد الملوك ففضلوا ابنها ، على أن بركيارق كانت أمه سلجوقية وسيطرت خاتون بالأموال التي أنفقتها على الحاشية واستبدت بالأمر .

ثم طلبت الخاتون من المقتدي أن يوافق على ترتيب ابنها محمود في السلطنة وعمره يومئذ خمس سنين ، فأجابها إلى ما أرادت ، وأرسل وزيره عميد الدولة بخلع فأفاضها عليه وهنأ أمه عن الخليفة ، فأعادت إليهْ ابنه الأمير أبا الفضل جعفراً ، وبعد ذلك توترت العلاقة بين المقتدي وخاتون زوجة ملكشاه عندما رفض المقتدي أن يحصر أمر الجيش وجباية الأموال بابنها محمود نظراً لصغر سنه وسانده في هذا الموقف الإمام الغزالي الذي أفتى بعدم جواز هذا الأمر[3] .

---

(١) ابن الأثير : **الكامل في التاريخ** ج ١٠ ص ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ .

(٢) تركان خاتون : زوجة ملكشاه . بنت طراج . أبوها من نسل أفراسياب ملك الفرس . كانت حازمة ، شهمة . حزمت أمور السلطنة بعد موت زوجها باشرت الحروب وقادت العساكر . توفيت سنة ٤٨٧/١٠٩٤ ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٨٤ .

(٣) الأصفهاني : **تاريخ دولة آل سلجوق** ص ٨١ . المقريزي : **السلوك لمعرفة دول الملوك** ج ١ ص ٣٤ . المنتظم ج ٩ ص ٦٢ ـ ٦٣ .

سابعاً - المقتدي بين تتش و بركيارق

كان المقتدي ينتظر الشر الذي سيأتيه من خاتون زوجة ملكشاه وإذا به يتعرض لضغط جديد من تتش بن ألب ارسلان[1] صاحب دمشق وما جاورها من بلاد الشام ، فعندما وصل إليه نبأ وفاة أخيه السلطان ملكشاه توجه نحو حلب وأخذها وكذلك سيطر على أنطاكية والرها وحران وخطب لنفسه بالسلطنة وأرسل إلى المقتدي ان يقيم له الخطبة في مدينة بغداد[2]

وبينما كان المقتدي يفكر كيف سيرد على مطلب تتش ، دخل موكب السلطان بركيارق بن ملكشاه إلى بغداد فأرسل الخليفة وزيره أبا منصور بن جهيركي يستقبله ويهنئه نيابة عنه[3] .

هذا الموقف الضعيف للمقتدي جعله متأرجحاً أمام رغبات رجال البيت السلجوقي وهو لا يملك إلاّ الموافقة على كل ما يفرض عليه .

وفي سنة ٤٨٧ / ١٠٩٤ ، طلب بركيارق بن ملكشاه من المقتدي أن يكتب له عهداً بالسلطنة[4] فكتبه أبو سعد بن الموصلايا كاتب الانشاء وحمله إلى الخليفة فوقع عليه وتأمل الخلع المعدة لبركيارق وعلى الفور قدمت له قهرمانته شمس النهار الطعام ثم لفظ أنفاسه الأخيرة وأسلم الروح[5] .

---

(١) تتش بن ألب ارسلان ٤٨٨/١٠٩٥ : هو تاج الدولة أبو سعيد تتش بن ألب ارسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقي . ملك دمشق سنة ٤٧١/١٠٨٥ واستولى على البلاد الشامية وقتل في معركة ضد أخيه بركيارق . خلفه ولداه :
فخر الملك رضوان استقل بمملكة حلب ودقاق حكم دمشق .
ابن خلكان : وفيات الأعيان ج اول ص ٢٩٥ - ٢٩٦

(٢) ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٢١٩ - ٢٢٠
ابن العديم : **تاريخ حلب** ج ٢ ص ١١٨

(٣) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٧٧

(٤) عهد السلطنة : هو عبارة عن كتاب صادر عن الخليفة يفوض بموجبه السلطان بحكم البلاد التي يسيطر عليها باسم الخليفة ، ثم يطلب منه العدل والسمع والطاعة في أمور الدين ويوقع الخليفة العهد ثم يحمل إلى السلطان ويقرأ أمامه .
ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٨٠ .
ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٢٢٩

(٥) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٨٠ .
ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٢٢٩ .

خاتمة

بهذه البساطة انتهت حياة المقتدي الذي قضى فترة خلافته مغلوباً على أمره محكوماً بإرادة السلطان السلجوقي الذي كان يقدم له الاحترام من باب التبرك به والاستفادة من سلطته الدينية كي يكسب حكمه الصفة الشرعية ويضمن ولاء الناس له في الأقطار التي يفتتحها ويسيطر عليها .

كما أن اعتراف الخليفة بالسلطان كان أمراً مهماً لتأييد الجند له والتفافهم حوله[1] .

---

(١) ابن دحية : النبراس ص ١٤٤ ـ ١٤٥ .

أحوال مدينة بغداد في عهد المقتدي

مقدمـة

يمتـاز عصر المقتدي بالانقسامات السياسية والدينية .

فعلى الصعيد السياسي العام كانت الخلافة الفاطمية في مصر والخلافة العباسية في بغداد ، تتنازعان السيطرة على منطقة الشرق الإسلامي ثم عندما ظهرت السلطنة السلجوقية انضمت إلى الخلافة العباسية واستلمت دورها في منافسة الخلافة الفاطمية الشيعية .

وعلى الصعيد الديني كان الصراع شديداً بين المذاهب الإسلامية واتخذ هذا الصراع في بعض المناطق والبلدان ، طابع العنف والقوة ، مما أدى إلى نشوء فتن ونشوب معارك ، زادت في تمزيق المجتمع الإسلامي وجعلته عاجزاً أمام التحديات الخارجية والداخلية .

وفي عهد الخليفة المقتدي بالله العباسي ، كانت مدينة بغـداد مسرحـاً واسعاً للمذاهب والفرق الإسلامية وفيها وقعت تلك المناحرات والمنافسات التي أدت إلى عملية التكفير وإباحة سفك الدماء التي حرمها الله تعالى بنص القرآن الكريم[1] .

---

(١) « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيهـا وغضب الله عليه ولعنـه وأعد لـه عـذاباً عظيماً » (النساء ـ آية ٩٣) .

أولاً - الصراع بين الحنابلة[1] والأشعرية[2]

وأول فتنة وقعت في عهد المقتدي بين الحنابلة والأشعرية ، كانت سنة ١٠٧٦/٤٦٩ والسبب المباشر لهذه الفتنة أنه أتى إلى بغداد أبو نصر القشيري وجلس في المدرسة النظامية وأخذ يذم الحنابلة وينسبهم إلى التجسيم[3] .

وقد تعصب له أبو سعد الصوفي[4] وأبو إسحاق الشيرازي ، ثم تطور الخلاف بين الأشعرية والحنابلة ، فقام فريق من الأشعرية بهجوم على المسجد الذي يدرس فيه شيخ الحنابلة ، الشريف أبو جعفر[5] ، مما أدى إلى قتل رجل من سوق الثلاثاء[6] .

ثم وصلت الكتب إلى نظام الملك تشكو إليه نفوذ الحنابلة ببغداد ، وكان نظام الملك يميل إلى الأشعرية فطلب من وزير الخليفة فخر الدولة بن جهير أن يحسم الخلاف ويمنع تسلط الحنابلة على الطائفة الأخرى .

---

(١) الحنابلة : هم أتباع مذهب أحمد بن حنبل وهو من علماء السلف الذين لم يتعرضوا للتأويل ولا تهدفوا للتشبيه . الشهرستاني : **الملل والنحل** ج ١ ص ٩٣ .

(٢) الأشعرية : هم أصحاب أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري توفي سنة ٩٣٥/٣٢٤ ، وأبو الحسن الأشعري هو من جملة علماء السلف الذين يثبتون الصفات لله تعالى ، إلا أنه باشر علم الكلام وأيد عقائد السلف بحجج كلامية وبراهين أصولية واستعمل التأويل ولذلك سميت الأشعرية صفاتية .

الشهرستاني : **الملل والنحل** ج ١ ص ٩٣ - ٩٤ .

يقول حسن إبراهيم حسن : كان الأشعريه سنيين مؤولين يلتقون مع الشيعة في كثير من الآراء وقد اتخذوا مذهباً وسطاً بين المعتزلة والسلف الصالح .

تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ج ٤ ص ٣١ .

(٣) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٨ ص ٣٠٥ .
ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ١٠٤

(٤) أبو سعد الصوفي النيسابوري : ١٠٨٦/٤٧٩ هو شيخ الشيوخ بنى رباطا بنهر معلى كما بنى وعوه ووقوف المدرسة النظامية وكان له منزلة عند السلطان .
ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ١٥٩

(٥) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٨ ص ٣٠٥ ، ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ١٠٤

(٦) سوق الثلاثاء : ببغداد يجتمع فيه الناس للتبادل التجاري كل يوم ثلاثاء مرة في الشهر . ياقوت : **معجم البلدان** ج ٣ ص ٢٨٣

عندئذ خاف المقتدي من تشنيع الشافعية عليه عند نظام الملك فأمر بجمع رؤساء الطوائف وإجراء مصالحة بينهم وبعد ذلك استدعى الشريف أبا جعفر بن أبي موسى ، شيخ الحنابلة إلى دار الخلافة ليكون على مقربة منه فيحد من نشاطه ونفوذه. وفي سنة ٤٧٠/١٠٧٧ ورد كتاب من نظام الملك إلى الشيخ أبي إسحاق الشيرازي يشدد فيه على عدم الدخول في الخلافات والفتن المذهبية ويعترف بسيطرة مذهب أحمد بن حنبل[١] في مدينة بغداد .

في هذه الأثناء خرج من النظامية رجل يعرف بالاسكندراني إلى سوق الثلاثاء وتكلم بتكفير الحنابلة مما أدى إلى تجديد حوادث العنف في المدينة ونهبت أماكن بأكملها وزهقت أرواح بريئة[٢] .

في كل مرة كان التفوق في هذه الأحداث من نصيب الحنابلة ويبدو أنهم كانوا يسيطرون على الشارع في مدينة بغداد ، وعندما فشل ابن القشيري في مقاومة نفوذ الحنابلة استدعاه إليه النظام وأرسل الشريف أبا القاسم البكري[٣] المغربي الواعظ ، إلى مدينة بغداد وأذن له في الجلوس في النظامية والتكلم بمذهب الأشعرية ، وكان يذكر الحنابلة ويعيبهم ويقول « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا » والله ما كفر أحمد بن حنبل ولكن أصحابه كفروا[٤] .

وكان أنصار النظام في بغداد والأتراك يساعدون البكري ويؤمنون له الحماية ويشجعون أعوانه بالاعتداء على أصحاب أحمد بن حنبل ؛ فقاموا بهجمات على دار ابن الفراء[٥] فنهبوها وسلبوا منها كتاب الصفات ، فكان البكري يقرأه

---

(١) أحمد بن حنبل : هو الإمام أبو عبد الله المروزي الأصل . كان إمام المحدثين صنف كتابه « المسند » في الحديث وكان يحفظ ألف حديث . عذّب وسجن في فتنة خلق القرآن الكريم .
ابن خلكان : **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٦٣ - ٦٤ .

(٢) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٨ ص ٣١٢ ، ج ٩ ص ٣ .
ابن كثير : **البداية والنهاية** ج ١٢ ص ١١٧

(٣) ابو القاسم البكري ١٠٨٢/٤٧٥ ، كان متعصباً ضد الحنابلة ، أحبه النظام وأجرى عليه الجراية الوافرة . كان متعصباً ضد الحنابلة . جرت له معهم خصومات وفتن .
ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٣ - ٤ .

(٤) ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ١٢٤

(٥) ابن الفراء : ١٠٦٥/٤٥٨ : هو محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن أحمد بن الفراء =

ويشنع على الحنابلة حتى كان يشتمهم ويرميهم بكل منقصة[1] ، مما يؤكد العداوة المستحكمة بين الحنابلة من جهة والشافعية والأشعرية من جهة أخرى في تلك الفترة ، حتى أن النظام عندما دخل بغداد مع السلطان في سنة ١٠٩١/٤٨٤ وبعد أن انتهى من الواجبات السياسية عقد مجلساً مع بعض أصحاب أحمد بن حنبل كي يناقشهم في عقيدتهم وفي الشبهة التي أثارها ضدهم الأشعرية وهي أنهم مجسمة[2] .

وقد انجلى الموقف وتبين له أن الحنابلة هم أهل السنة والجماعة وأنهم بعيدون عن التشبيه والبدعة[3] .

ثانياً ـ الصراع بين السنة والشيعة

في الوقت الذي كانت فيه الفتن بين الحنابلة والأشاعرة تشتعل بين الحين والآخر في مدينة بغداد ، كانت المدينة تعيش صراعاً ثانياً أشد فتكاً وأكثر تدميراً إنه صراع السنة والشيعة .

وكانت بداية الفتن بين السنة والشيعة[4] في عهد المقتدي في مدينة بغداد

= أبو يعلى . كان عالم زمانه وفريد عصره . كان شيخ الحنابلة ، محيطاً بعدة علوم مع ورع وعفة . تولى قضاء بغداد له مصنفات كثيرة أهمها كتاب « الأحكام السلطانية » .

ابن الفراء : **الأحكام السلطانية** ص ١٢ ، ١٤ ، ١٠٦

(١) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٤

(٢) مجسمة : أي يفسرون آيات الصفات المتشابهة على ظاهرها فوقعوا بالتشبه أي تشبيه الخالق بالمخلوق . الشهرستاني : **الملل والنحل** ج ١ ص ٩٢ ـ ٩٣ .

(٣) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٥٨ .

(٤) الشيعة : هم الذين شايعوا علياً على الخصوص وقالوا بامامته وخلافته نصاً ووصية أما جلياً واما خفياً واعتقدوا أن الامامة لا تخرج من أولاده وان خرجت فبتظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده . وقالوا : ليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة وينتصب الإمام بنصبهم بل هي قضية أصولية وهي ركن الدين ولا يجوز للرسل عليهم الصلاة والسلام إغفاله وإهماله ولا تفويضه الى العامة وإرساله ، ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر والقول بالتولي والتبري قولاً وفعلاً وعقداً إلاّ في حال التقية .

الشهرستاني : **الملل والنحل** ج ١ ص ١٤٦

سنة ١٠٨٥/٤٧٨ ، وقد أسفرت عن نهب قطعة من نهر الدجاج[١] حيث قلعت الأخشاب حتى من المساجد فتدخل وزير الخليفة أبو شجاع وأرسل جماعة من الجند كي تفصل بين الطرفين وتمنع سفك الدماء . وامتدت هذه الفتنة أكثر فاحترق شطر من الكرخ ومن باب البصرة وعندما أراد الشحنة تأديب أهل باب البصرة ، قام هؤلاء برجم الديوان وتجار باب الحريم[٢] فاضطر المسؤولون إلى عقد صلح بينهم وبين الشحنة نفسه .

في سنة ١٠٨٦/٤٧٩ ، تجددت الفتن بين السنة والشيعة فتولى عميد العراق وشحنة بغداد تأديب الطرفين وعندما قام النقيبان بتقديم بعض المساعدات المالية للمحاصرين أمر الخليفة بالقبض عليهما وحبسهما .

وما كادت الفتنة الأولى من هذه السنة تنتهي حتى أعقبتها فتنة ثانية أسفرت عن نهب وحرق وتدمير حتى كاد أهل الكرخ يهلكون[٣] .

وتجدد القتال سنة ١٠٨٧/٤٨٠ بين السنة والشيعة ، وتدخل سعد الدولة شحنة بغداد وقاتل أهل باب الأزج وتمكن من إسكات الفتنة بعد أن قتل فيها كثير من الناس .

وما كادت مدينة بغداد تأخذ قسطاً من الراحة وتستعيد أنفاسها ، حتى ألمت بها عاصفة من أعمال العنف والاضطرابات الدموية بين الطائفتين ، سنة ١٠٨٩/٤٨٢ ، وذلك عندما قتل أهل باب البصرة رجلاً من الكرخ فاشتعلت نار الفتن وقتل عدد كبير من الناس ونهبت قطعة كبيرة من الكرخ ولم يتمكن نائب الشحنة من فرض الأمن وأخيراً أرسل الخليفة وجهاء دولته إلى أهل الكرخ يدعوهم إلى السكون والتدين بمذهب أهل السنة وحضور الجمعة والجماعة

---

(١) نهر الدجاج : محلة ببغداد على نهر كان يأخذ من قرب الكوخ .
ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ٣٢٠ .

(٢) باب الحريم : أحد أبواب دار الخلافة وتحيط به بيوت العامة
ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٢٥٠

(٣) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٥ - ١٦ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٤٥ ، ١٥٧

فأجابوه إلى طلبه[1] .

وما كادت الأحوال تهدأ قليلاً حتى قام أهل الكرخ بنهب شارع ابن أبي عوف فهاجت العامة ورفعوا الصلبان وتهجموا على وزير الخليفة أبي شجاع وعندما عجز الخليفة عن إخماد الفتن المتتالية استدعى جيشاً من قبل سيف الدولة أبي الحسن صدقة بن مزيد وبعد بطش بالمتقاتلين تمت السيطرة على الموقف في المدينة المنكوبة حيث أسفرت المعارك عن أكثر من مئتي قتيل عدا الخسائر المادية من تهديم بيوت ونهب أماكن وأسواق وغيرها .

وتنعم مدينة بغداد بأمن واستقرار إلى سنة ٤٨٦ /١٠٩٣ يوم تجدد القتال بين حي الشيعة وأحياء السنة وفي هذه المرة يتحرك شحنة بغداد سعد الدولة إلى الكرخ فينهبها ويحرقها .

وفي سنة ٤٨٧ / ١٠٩٤ تعود الفتن بين الطرفين إلى الاشتعال ولكن يتم إطفاء نارها بسرعة بفضل سيطرة رجال الشرطة ويساندهم المسؤولون ببغداد[2] .

ثالثاً ـ الفتوة

وهكذا يقضي المقتدي أيامه والمتاعب تلاحقه والفتن تحيط به من كل جانب ومما يزيد الحالة سوءاً بمدينة بغداد نمو حركة الفتوة الذين كانوا يشكلون تنظيمات سرية تقوم بالاعتداء على رجال السلطة وعلى الأغنياء في المجتمع وفي بعض الأحيان توجه نشاطها ضد الوجود السلجوقي داخل المدينة[3] .

وفي عهد المقتدي تمكنت جماعة الفتوة من تنظيم نفسها على أسس فكرية وقانونية وقد صنف ابن الرسولي الخباز كتباً في هذا المضمار وأصبح عبد القادر الهاشمي البزاز هو الزعيم الذي يتولى رئاسة هذا التنظيم ويتولى مراسلة

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٣٨ ، ٤٧ ، ابن الأثير الكامل ج ١٠ ص ١٦٢ ، ١٧٧

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٧٧ ، ٨٣ ، ابن الأثير الكامل ج ١٠ ص ٢٢٦ ، ٢٣٩

(٣) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٣٦ ، ١٣٧

المسؤولين في مصر ومكة وغيرها .

وقد اتخذ زعماء الفتيان من مسجد براثا[1] المهجور في مدينة بغداد مركزاً لنشاطهم ثم كشف أمرهم وتمكن الوزير عميد الدولة من القبض على ابن الرسولي الخباز وعبد القادر مع عدد كبير من أنصارهما ونهبت دورهم ونكل بهم بعد أن أفتى الفقهاء بضرورة منعهم من هذا الفساد[2] .

رابعاً ـ أهل الذمة في عهد المقتدي

في الوقت الذي كان فيه الصراع شديداً بين أنصار المذاهب الإسلامية ، كان أهل الذمة (وهم اليهود والنصارى) ينعمون في مدينة بغداد بالأمن والطمأنينة وبحرية العبادة وممارسة الطقوس الدينية ؛ وخير دليل على الاحترام الذي نعمت

---

(١) براثا : محلة في طرف بغداد في قبلة الكرخ وجنوبي باب محول وكان لها جامع منفرد تصلي فيه الشيعة وقد خرب عن آخره .
ياقوت : **معجم البلدان** ج ١ ص ٣٦٢ .

(٢) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٨ ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧ .
العيارون والفتوة : هم لصوص من الصعاليك والشطار والفتيان والزعار والدعار والعياق والحرافيش وأصحاب المهن المحقرة وأشباههم من المعدمين والجياع والعاطلين عن العمل الذين طحنهم الفقر وأعجزتهم البطالة بسبب سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن مصالح العباد وانهماكهم في الملذات . ويجمع بينهم أمران :
الاول : الانتماء إلى فئة اجتماعية منبوذة تعيش على هامش المجتمع .
والثاني : البطولة خارج القانون فهم جميعاً في حالة صراع مع المجتمع الذي لفظهم فما كان منهم إلا أن رفضوا واقعهم المرير وتمردوا على مجتمعهم وحاولوا القيام بالثورة عليه على الرغم من عدم تكافؤ كفتي الصراع لينالوا ما يتصورون أنه حق شرعي لهم ، وهم يمثلون المعارضة الشعبية ضد قوى الظلم الاجتماعي والقهر السياسي والبطش العسكري والتناقض الاقتصادي الرهيب .
محمد رجب النجار : **حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي** ص ٧ ، ٨ ، ١٤٩
العيار : لغوياً : الكثير التجول والطواف الذي يتردد بلا عمل يخلي نفسه وهواها .
الشاطر : لغوياً : من أعيا أهله خبثا وعصا أباه وعاش في الخلاعة .
الزعار : لغوياً : عيارون يترددون بلا عمل .
عياق : قاطع الطريق .
حرافيش : مفردها حرفوش : وهو ذميم الخلق والخلق وهو المقاتل والمصارع واللص .
محمد رجب النجار : حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي ص ٧ ، ٨ ، ٩ .

به الكنيسة في مدينة بغداد، يوم تنصيب مارمكيخا، جاثليقاً[١] على كرسي المشرق وما رافق هذا التنصيب من احتفال شارك فيه المسلمون أيضاً وذلك في سنة ١٠٩٢/٤٨٥ حيث عمّ السرور مختلف أنحاء المدينة[٢] واستطاع اليهود والنصارى في مدينة بغداد في ظل الحرية الدينية أن يسهموا في مختلف نواحي الحياة الاقتصادية والعلمية وكان لهم نصيب وافر في الحياة السياسية أيضاً .

فعلى الصعيد الاقتصادي اشتغل اليهود بالتجارة والضمان والصيرفة وبرع منهم في مجال الضمان ، ابن علان اليهودي الذي ضمن البصرة بكاملها وجمع ثروة تزيد عن أربعمائة ألف دينار كما تمتع بنفوذ سياسي واجتماعي في البصرة لم يصل إليه غيره من وجهائها فيوم ماتت زوجته خرجت البصرة بأكملها وراء جنازتها باستثناء القاضي فقط[٣] .

وفي ميدان السياسة والحكم تمكن أبو سعد بن سمحا[٤] اليهودي أن يصبح وكيلاً للسلطان ولنظام الملك في بغداد وقد استغل هذه العلاقة واتفق مع كوهرائين من أجل السعي مع السلطان والنظام لعزل وزير الخليفة أبي شجاع الذي كان متشدداً على أهل الذمة .

وفي سنة ١٠٩١/٤٨٤ ، تمّ لابن سمحا ما أراد حيث عزل الخليفة وزيره بناء على طلب السلطان والنظام ، وعندما خلا الديوان خلع الخليفة على كاتب الإنشاء ، أبي سعد بن موصلايا واستنابه في الوزارة ولقب أمين الدولة[٥] .

---

(١) الجاثليق النسطوري : هو الرئيس الأكبر للنصرانية في الشرق ، وكانت تنتخبه الكنيسة ويصادق الخليفة على انتخابه ويكتب له عهداً كما يكتب لكبار العمال والمسؤولين .
متز : **الحضارة الإسلامية** ج ١ ص ٧٩

(٢) عمرو بن متى : **أخبار بطاركة كرسي المشرق** ص ١٣٧

(٣) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٨ ص ٣٢٣ ، ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ١١٦

(٤) ابن سمحا اليهودي : ١٠٩٢/٤٨٥ كان وكيل السلطان ونظام الملك . كانت أخلاقه سيئة ومات مقتولاً . ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٦٣

(٥) ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ١٨٦ ـ ١٨٧

والنصارى إجمالاً عملوا في ميدان الطب والصيدلة والكتابة وفي قصور الخلفاء ، والاحتكاك اليومي بين المسلمين وأهل الذمة كان يؤدي إلى تبادل الأفكار حول العقيدة وكان بعض هؤلاء يَدْخُلُ في الدين الإسلامي كما حدث سنة ٤٦٩/١٠٧٦[١] .

رغم كل الميزات التي تمتع بها أهل الذمة في مدينة بغداد بقيت هناك حدود لا بد من مراعاتها والأخذ بها ، خاصة وأن المجتمع هو إسلامي بالدرجة الأولى .

وكل عمل يقوم به اليهود مخالفاً لعهد الذمة[٢] المقطوع عليهم سيقابل بالرفض من جانب الخليفة الذي يعتبر أن مهمته الأولى هي حراسة الدين وحمايته .

وعندما أخل هؤلاء ببعض شروط الأبنية فأعلوها ورفعوا أصواتهم عند تلاوة التوراة صدر أمر المقتدي بنقض ما علا من دورهم وأمرهم بخفض الصوت أثناء تلاوة التوراة وإظهار الغيار[٣] على رؤوسهم وذلك سنة ٤٧٨/١٠٨٥

---

(١) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٨ ص ٣٠٥ .

(٢) عهد الذمة : هو عهد الأمان الذي أعطاه عمر بن الخطاب للنصارى القاطنين في مدائن الشام والجزيرة وفيه شروط لقاء حمايتهم والدفاع عنهم عرفت بالشروط العمرية ؛ هذه الشروط جاءت في صيغ متعددة نقلها صبحي الصالح من مصادرها وشرحها وهي تدور حول ست نقاط رئيسية :
- أحكام البيع والكنائس والصوامع .
- أحكام ضيافتهم للمارة وما يتعلق بها .
- فيما يتعلق بضرر المسلمين والاسلام .
- فيما يتعلق بتغيير لباسهم وتمييزهم عن المسلمين .
- فيما يتعلق باظهار المنكر من أفعالهم وأقوالهم مما نهوا عنه .
- في أمر معاملتهم للمسلمين بالشركة ونحوها .

فإذا خالفوا أحد تلك الشروط فقد نقضوا عهد الذمة .

الصالح : **شرح الشروط العمرية** ص ٣ - ٩ .

(٣) الغيار : هو العلامات التي وضعت على أهل الذمة لتشهيرهم وتمييزهم . ويتناول كل ما خالف المسلمين من أزياء النصارى واليهود وما يوضع على العمائم من الطيالسة العسلية .
والشروط العمرية المتعلقة بعدم تشبه النصارى بالمسلمين في لبس العمامة والمراكب ، عاد القائم بأمر الله وفرضها على أهل الذمة في مدينة بغداد من جديد وحافظ عليها خلفاؤه المقتدي والمستظهر حتى سنة ٤٩٨/١١٠٤ =

وفي سنة ١٠٨٧/٤٨٠ بدأ اليهود يتشبهون بزي المسلمين ويكنون بكناهم فأمر المقتدي بمعاقبتهم ومنعهم من هذا العمل ببغداد وحلة ابن مزيد وغيرهما.

ووصل المقتدي إلى قمة التشديد على أهل الذمة في سنة ١٠٩١/٤٨٤ عندما ألزمهم لبس الغيار والزنار ودرهم الرصاص المعلق في أعناقهم ومكتوب عليه «ذمي».

وأن تلبس النساء مثل هذا الدرهم في حلوقهن عند دخول الحمام ليعرفن وأن تلبسن الخفاف فرداً أسود وفرداً أحمر وجلجلاً في أرجلهن، وقد شدد الوزير أبو شجاع في هذا فأجابه المقتدي إلى ما أشار به.

أمام هذا الضغط الذي يمس كرامة أهل الذمة وخاصة رجال العلم والقلم والذين تتصل مصالحهم بالخلافة من قريب أو بعيد، اضطر عدد منهم أن يعلنوا إسلامهم لا حباً في الإسلام ولكن تخلصاً من الواقع المفروض عليهم.

ومن هؤلاء الذين أسلموا على يد المقتدي:

= وقد جاء تفصيل هذه الشروط في كتاب تحت عنوان: أهل الذمة. ومنها:

- ثمن عمامة الذمي لا يزيد عن ثلاثة دنانير وتتدلى من العمامة ربطة صفراء ورمادية وتبقى صغيرة لا يتدلى منها ذيل الى ما بين الكتفين حتى يتميزوا عن العرب ولأن العمائم من كرامة الاسلام، وصاحب العمامة أكثر احتراماً وصلاته أفضل.

- ولا يلبسون الملابس الجميلة، ولونها يجب أن يكون رمادياً عابقاً.

- ولا يكتبون على خواتمهم باللغة العربية ولا يرتدون الملابس ذات اللون الأصفر، لأن صحابة رسول الله ﷺ كانوا يلبسونها.

- ولا يمتطون حصاناً إنما يمكنهم ركوب البغال والحمير وأرجلهم تتدلى من جهة واحدة.

- ويلبسون في أعناقهم درهم النحاس او الرصاص او الحديد.

- وعند دخول الحمام يلبسون قلنسوة في وسطها قطعة حمراء. ويحزمون وسطهم بزنار، ونساؤهم يلبسن حذاء أسود في قدم وأحمر في القدم الأخرى.

وكان بعض أغنياء أهل الذمة يتخلصون من لبس الغيار بدفع غرامة مالية للخليفة ومن هؤلاء بنو الجزر الذين كانوا يدفعون في السنة خمسمائة دينار إضافية.

حبيب زيات: **مجلة المشرق ١٩٤٩**: ص ٧٥

الصالح: الشروط العمرية ص ٧٩

أبو سعد بن الموصلايا[1] وابن أخته أبو نصر هبة الله[2] . إلّا أن هذا الأمر حدث مرة واحدة فقط ولم يكن قاعدة عامة خاصة بعد أن ناب ابن الموصلايا في وزارة المقتدي وهو الذي يتمتع بثقة الخنيفة وحاشيته[3] .

خامساً ـ الأحداث الطبيعية ببغداد في عهد المقتدي

كان للأحداث الطبيعية التي شهدتها مدينة بغداد تأثير ظاهر في زيادة مآسي الناس وتدهور أوضاعهم الاجتماعية والمعيشية ، وكان أبرزها :

الحرائق : التي كانت تشب في أنحاء مختلفة من بغداد وتحدث أضراراً جسيمة في الممتلكات والأرواح ومن أخطرها النار التي وقعت في سوق نهر المعلى[4] وفي الجانب الغربي من المدينة سنة ٤٦٧/١٠٧٤ .

كما تعرض مسجد التوثة[5] لحريق نتيجة لصاعقة وقعت عليه سنة ٤٧٠/١٠٧٧ .

---

(١) ابن وهب بن موصلايا أبو سعد الكاتب : نال من الرفعة في الدنيا ما لم ينله أحد من أبناء جنسه؛ فإنه ابتدأ في خدمة دار الخلافة في أيام القائم سنة ٤٣٢/١٠٤٠ ، فخدمها خمساً وخمسين سنة وأسلم سنة ٤٨٤/١٠٩١ وناب عن الوزارة في أيام المقتدي وأيام المستظهر نوباً كثيرة وكان كثير الصدقة كريم الفعال حسن الفصاحة ويدل على فصاحته وغزارة علمه ما كان ينشؤه من مكاتبات الديوان والعهود. وحكى بعض أصحابه قال شتمت يوماً غلاماً لي فوبخني وقال أنت قادر على تأديب الغلام أو صرفه فأما الخنا والقذف فاياك والمعاودة له فان الطبع يسرق من الطبع والصاحب يستدل به على المصحوب .

توفي سنة ٤٩٧/١١٠٣ .

ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٤١ .

(٢) أبو نصر هبة الله : كان كاتباً للخلافة جيد الكتابة ولم يخلف وارثاً لأنه أسلم وأهله نصارى فلم يرثوه وكان يبخل إلّا أنه كثير الصدقة . رباه خاله وكتب بين يديه في ديوان الانشاء في الأيام القائمية والمقتدية والمستظهرية فلما توفى خاله رد ديوان الانشاء اليه في الأيام المستظهرية وخرج في الرسالة الى السلاطين مرارا. توفي سنة ٤٩٨/١١٠٤ . وكان لا يقاربه أحد في الانشاء والعبارة ولم يكتب كتاباً قط فرجع فيه الى مبيضة وله أشعار في الألغاز .

ابن الأثير : الكامل ج ١ ص ٣٩٧ .

خريدة القصر وجريدة العصر ص ١٣٢ ـ ١٣٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٨٦ ، ١٨٧ . ابن الجوزي المنتظم ج ٩ ص ١٧ ، ٣٨ ، ٥٥ ، ١٤١ .

(٤) نهر معلى : أشهر وأعظم محلة ببغداد فيها دار الخلافة .

معجم البلدان ج ٥ ص ٣٢٤ .

(٥) التوثة : محلة في بغداد الغربية .

معجم البلدان : ج ٢ ص ٥٦ .

وفي سنة ٤٧٩/١٠٨٦ وقعت صاعقة في خان الخليفة المقابل لباب النوبي[١] فأحرقت جزءاً من كنيسة الخان وفتت أسطوانة منها واندلع حريق بقصد التخريب سنة ٤٨٠/١٠٨٧ فأصاب الحريم كله وما جاوره .

والحريق الذي هز مدينة بغداد ونشر الرعب والدمار فيها هو الذي حدث سنة ٤٨٥/١٠٩٢ فتدخل المقتدي وأمر وزيره عميد الدولة أن يشرف مباشرة على إخماد النيران وحصر أضرارها ومع ذلك احترقت عدة أسواق وهلك خلق كثير من الناس[٢] .

الأمراض والأوبئة

كان للأوبئة والأمراض السارية مساهمة واضحة في زيادة حجم الخسائر ببغداد فالوباء أصاب السوادية[٣] من أسافل دجلة وأهلك أكثرهم سنة ٤٦٧/١٠٧٤[٤] كما اجتاح بغداد الجراد سنة ٤٦٨/١٠٧٥

وفي سنة ٤٦٩/١٠٧٦ ، كثر الموت في المدن والأرياف حتى بقيت الغلال في أماكنها .

وكان الطاعون من أخبث الأمراض التي أصابت بغداد سنة ٤٧٨/١٠٨٥ وهلكت به أعداد كبيرة ووقف الأطباء عاجزين عن الحد من انتشاره وفتكه ، حتى مات الناس أفراداً وجماعات وفرغت قرى وأحياء من سكانها جميعاً وبقي الموتى في العراء أياماً لعدم التمكن من حفر قبور لهم .

وفاضت مياه دجلة فأغرقت أكثر البيوت في تلك السنة وهبت رياح عاتية مع عواصف عنيفة أدت إلى هلاك كثير من المخلوقات وزادت في فواجع هذه السنة ومصائبها .

---

(١) باب النوبي : أحد أبواب دار الخلافة .
ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٢٥١

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٢٨ ، ٣٧ ، ٦١ . ج ٨ ص ٢٩٤ ، ٣١١

(٣) السوادية : هي رستاق العراق وضياعها سميت سوادا لأنها مزروعة بالنخيل والأشجار الخضراء . ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٢٧٢

(٤) ابن الجوزي : المنتظم ج ٨ ص ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٠٧ ، ج ٩ ص ١٤ ، ١٥ ، ١٦

خــاتمــة

إن الصراعات المذهبية التي عاشتها مدينة بغداد في أيام المقتدي ترمز إلى حالة التفكك الاجتماعي التي صبغت حياة الناس كما ترمز إلى انتشار الفوضى وضعف الأمن وتشير إلى غياب السلطة مما أدى إلى زيادة المآسي عند عـامة الناس .

أما أهل الذمة فقد عاشوا بعيداً عن الصراعات المـذهبية وسـاهموا في الحياة الاقتصادية والعلمية إلاّ أن المقتدي كان شديداً عليهم .

من جهة ثانية كان للأحداث الطبيعية أثـر في التخريب والتـدمير الـذي عرفته بغداد في عهد المقتدي .

وإذا كانت الحياة الاجتماعية تشوبها القلاقل والاضطرابات فكيف ستكون الحياة العلمية والفكرية في هذه الفترة ؟

الحياة العلمية ببغداد
في عهد المقتدي

مقدمة

إن الاطلاع على الحياة العلمية في مدينة بغداد ، يعطينا فكرة مهمة عن الإنجازات التي حققتها الحضارة الإسلامية في هذه البرهة من الزمن .

وإذا كانت المدارس الفقهية هي الظاهرة اللافتة للنظر فإنها تعكس لنا تطور الحركة الفقهية وعلم الحديث والتفسير والآداب واللغة لأنها جميعاً كانت مواد التدريس التي يتلقاها طلاب هذه المدارس .

ونشطت في هذه المرحلة علوم عقلية كالتاريخ والفلسفة والفلك والطب ، وزادت الحركة الصوفية توسعاً وأخذت تحتل جانباً أكبر في حياة الناس .

أولاً ـ المدارس في مدينة بغداد

أن انتشار المدارس بمدينة بغداد في عصر السلاجقة هو الحدث الأكبر والأهم الذي حققته الحضارة الإسلامية ، وتعتبر بحق قفزة كبيرة في سلم التطور العلمي بعد أن كان التدريس محصوراً في المساجد وبعض الكتاتيب .

وقد أنشئت لخدمة المذاهب الفقهية ولتغذية أجهزة الدولة بالقدرات العلمية اللازمة ، ولذلك انقسمت المدارس إلى اتجاهين رئيسيين :

أ ـ المدارس الحنفية

وهي التي تهتم بتدريس مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه ويأتي في مقدمتها:

١ ـ **مدرسة مشهد أبي حنيفة**: بناها شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور العميد الخوارزمي مستوفي مملكة السلطان ألب ارسلان السلجوقي، وأنزل بها الفقهاء ورتب لهم مدرساً وعندما دخل أبو جعفر ابن البياضي إليها زائراً أنشد:

ألم تر أن العلم كان مضيعاً ... فجمعه هذا المغيب في اللحد
كذلك كانت هذه الأرض ميتة ... فأنشرها جود العميد أبي سعد[١]

وكانت هذه المدرسة أول مدرسة أنشئت في بغداد وفتحت أبوابها للتعليم قبل نظامية بغداد بحوالي أربعة أشهر وثلاثة عشر يوماً على الأقل من سنة ١٠٦٦/٤٥٩[٢].

من أشهر أساتذة مدرسة أبي حنيفة، أبو طالب الزينبي[٣] وأبو القاسم الشلجي[٤] وأبو يعقوب اللمغاني[٥] وشجاع بن الحسن[٦]. وهي أول مدرسة

---

(١) ابن الجوزي: **المنتظم** ج ٨ ص ٢٤٥.
ابن الأثير: **الكامل** ج ١٠ ص ٥٤.

(٢) عماد رؤوف: **مدارس بغداد في العصر العباسي** ص ٣٥.

(٣) أبو طالب الزينبي ١١١٨/٥١٢.
هو الحسين بن علي بن الحسن بن محمد بن عبد الوهاب لقب بنور الهدى.
ابن الجوزي: **المنتظم** ج ٩ ص ٢٠١.

(٤) أبو القاسم خلف بن أحمد بن عبد الله الضرير الشلجي ١١٢٤/٥١٥
ابن أبي الوفا: **الجواهر المضية في طبقات الحنفية** ج ١ ص ٢٣١.

(٥) أبو يعقوب اسماعيل بن عبد الرحمن أبو يوسف اللمغاني ١١٤١/٥٣٦.
كان فقيهاً ودرس في مشهد الإمام أبي حنيفة.
ابن أبي الوفا: **الجواهر المضية في طبقات الحنفية** ج ١ ص ٢٥٢.

(٦) شجاع بن الحسن بن الفضل البغدادي أبو الغنائم ١١٦١/٥٥٧، كان عالماً بالمذهب والخلاف حسن الطريقة.
إبن أبي الوفا: **الجواهر المضية في طبقات الحنفية** ج ١ ص ٢٦٠.
ومدرسة أبي حنيفة هي أول مدرسة يسكنها الطلاب وينفق عليهم، ولا يزال التدريس جارياً فيها منذ تسعة قرون وهي لذلك أطول المدارس البغدادية عمراً.
نشرة مدينة بغداد سنة ١٩٦٣ ص ٣٣.
ناجي معروف: **نشأة المدارس المستقلة في الاسلام** ص ٢٠.

يسكنها الطلاب وتقدم لهم منحاً تعليمية ، وهي أطول مدارس بغداد عمراً

٢ ـ **مدرسة تركان خاتون** : كانت من أوائل المدارس التي عرفتها بغداد ، أمرت ببنائها تركان خاتون زوجة السلطان ملكشاه السلجوقي وبقيت عامرة حتى أواخر القرن الخامس الهجري وكان موقعها في الجانب الشرقي من بغداد عند دار السلطنة السلجوقية بالمخرم[١] .

٣ ـ **مدرسة باب الطاق** : بنى هذه المدرسة شرف الملك أبو سعد محمد[٢] بن منصور الخوارزمي مستوفي مملكة السلطان ملكشاه في أواسط القرن الخامس للهجرة وأوقفها على الطائفة الحنفية .

كان سلاطين السلاجقة يدينون بالمذهب الحنفي ويشجعون أنصاره ومؤسساته[٣] .

ب ـ مدارس الشافعية

١ ـ **النظامية** : تنسب النظامية إلى الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس أبي علي الطوسي الملقب نظام الملك وزير السلطانين ألب أرسلان وولده ملك شاه الذي بقي في الوزارة مدة تسع وعشرين سنة .

كان أمر المملكة إليه وليس للسلطان الا التخت والصيد ، وتعتبر الفترة التي حكم فيها هي قمة العصر الذهبي التي توصلت اليها العلوم الإسلامية في عصر السلاجقة كان مجلسه عامراً بالفقهاء وأئمة المسلمين وأهل التدين أمثال أبي القاسم القشيري وأبي المعالي الجويني[٤] .

---

(١) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٣٥
عماد رؤوف : **مدارس بغداد** ص ٤٣

(٢) محمد بن منصور : كان متعصباً لأصحاب أبي حنيفة وبنى إلى جانب المدرسة القبة على قبر أبي حنيفة ، وبنى مدرسة بمرو ووقف فيها كتباً نفيسة وبنى أربطة في المفاوز وعمل مصالح كثيرة ثم ترك الأشغال وكان الملوك يصدرون عن رأيه ولم ينعم أحد تنعمه وبذل لجلال الدولة ملكشاه مئة ألف دينار حتى عزله عن الأشراف وتوفي سنة ٤٩٣/١٠٩٩
ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٢٨

(٣) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٢٨

(٤) ابن الجوزي : المصدر نفسه ص ٦٤

وكان يعظم المتصوفة أمثال أبي علي الفارمزي وينفق عليهم .

إن سيرته بهرت العقول جوداً وكرماً وحشمةً وإحياءً لمعالم الدين ، فبنى المدارس ووقف عليها الوقوف وأنعش العلم وأهله وعمر الحرمين وعمر دور الكتب وابتاع لها الكتب فكانت سوق العلم في أيامه قائمة والعلماء مستطيلين على الصدور من أبناء الدنيا بما أغدق عليهم وأكرمهم .

وتقديره للعلم وأهله نابع من فهم عميق للثروة العلمية التي اكتسبها من حفظه لأصول الفقه ولحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ورغم انشغاله في تدبير أمور المملكة كان يغتنم الفرص ويحدث في المدارس النظامية التي أنشأها بمرو ونيسابور والري وأصبهان وبغداد وأملى في جامع المهدي وكان يقول أني لأعلم أني لست أهلاً للرواية ولكني أريد أن أربط نفسي على قطار النقلة لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن مكارمه أيضاً بناء المساجد والرباطات والوقوف عليها وأثره العجيب ببغداد .

مدرسة النظامية : وسقوفها الموقوف عليها وفي كتاب شرطها أنها وقف على أصحاب الشافعي أصلاً وفرعاً وكذلك الأملاك الموقوفة عليها شرط فيها أن تكون على أصحاب الشافعي أصلاً وفرعاً وكذلك شرط في المدرّس الذي يكون بها والواعظ الذي يعظ بها ومتولي الكتب وشرط أن يكون فيها مقرىء يقرىء القرآن ونحوي يدرس العربية وفرض لكل قسطاً من الوقف وتم بناء النظامية وابتدأ العمل فيها سنة ١٠٦٦/٤٥٩ .

وأول من درس فيها أبو نصر بن الصباغ ثم أبو إسحاق الشيرازي كما أن المدرسة كانت تقدم لطلابها السكن والطعام[١] ويذكر ابن الساعي أنها أول مدرسة بنيت في الإسلام[٢] .

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨ . ج ٨ ص ٢٤٦ .

(٢) مختصر أخبار الخلفاء ص ٩٣ ، علي جواد طاهر : الأدب في العصر السلجوقي ص ٦٣ .

٢ ـ **المدرسة التاجية** : كانت ثاني مدرسة شافعية عرفتها بغداد بعد النظامية هي التاجية المنسوبة الى تاج الملك المرزبان بن خسرو أبي الغنائم مستوفي مملكة السلطان ملكشاه التي افتتحها سنة ٤٨٢/ ١٠٨٩

ودامت حتى سقوط بغداد على يد هولاكو سنة ١٢٥٨/٦٥٦ ، وتقع المدرسة بباب أبرز ، ودرس بها أبو بكر الشاشي[١] .

٣ ـ **مدرسة قراح ظفر** : بنى هذه المدرسة في منتصف القرن الخامس الهجري الفقيه أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي المتوفي سنة ١١١٣/٥٠٧ ولم يدرس فيها سواه ، تقع هذه المدرسة في الطرف الشمالي لمدينة بغداد[٢] .

ثانياً : الحركة الفقهية

احتل الفقهاء ورجال العلم منزلة رفيعة في المجتمع الإسلامي بمدينة بغداد في أيام المقتدي بالله العباسي ،وساهموا في معظم الأحداث التي شهدتها المدينة .

وأول من بايع المقتدي يوم نصب خليفة كبار رجال الفقه والعلم[٣] . وتولى له منصب قاضي القضاة ، أبو عبد الله الدامغاني ثم بعد وفاته أبو بكر محمد بن المظفر الشامي[٤] .

---

(١) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٤٦ ، عماد رؤوف : **مدارس بغداد في العصر العباسي** ص ٧٦

(٢) السبكي : **طبقات الشافعية** ج ٤ ص ٥٨ .

(٣) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٨ ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣

(٤) هو ابن بكران الحموي الشامي . قدم بغداد وتفقه على أبي الطيب الطبري وشهد عند قاضي القضاة أبي عبد الله الدامغاني وناب في القضاء بربع المدينة . كان حسن الطريقة وفيه حدة وكان ثقة عفيفاً لا يقبل من سلطان عطية ولا من صديق هدية ولازم مسجده يدرس أكثر من خمس وخمسين سنة . تولى منصب قاضي القضاة بعد وفاة أبي عبد الله الدامغاني ولم يرتزق الى القضاء وكان لا يحابي مخلوقاً رد شهادة الإمام ابن محمد بن أسامة الفرغاني وكان فقيهاً لا يلبس الذهب ، وقال اني لا أقبل شهادة ملكشاه ولا نظام الملك لأنهما يلبسان الذهب . توفي سنة ١٠٩٥/٤٨٨ ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٩٤ ـ ٩٥ ـ ٩٦ ، السبكي : **طبقات الشافعية** ج ٣ ص ٨٣ ـ ٨٤ .

وازدهرت في هذه المرحلة مذاهب الفقه السنية الثلاثة ، مذهب الإمام أحمد بن حنبل ومذهب الإمام الشافعي ومذهب الإمام أبي حنيفة .

وإذا كان المذهب الحنبلي هو مذهب الأغلبية فإن ملكشاه شجع المذهب الحنفي ونظام الملك شجع المذهب الشافعي وحاول نشره عن طريق المدارس ، وفي نفس الوقت كان للمذهبين الشيعي والظاهري أتباع وأنصار .

فقهاء المذهب الحنبلي

يأتي في مقدمتهم عبد الخالق بن عيسى وعبد الله بن سعيد(١) وعبد الملك ابن عبد الغفار(٢) والحسن بن أحمد(٣) وطاهر بن الحسين(٤) وعبد الله ابن محمد(٥) وهبة الله ابن القاضي(٦) ويعقوب بن إبراهيم(٧) وعلي بن

---

(١) ابن حاتم أبو نصر الجزي الوائلي : سمع أبو نصر الحديث وفقه وفهم وصنف وخرج وكان قيماً بالأصول والفروع وله التصانيف الحسان منها الأبانة في الرد على الرافعين . توفي سنة ١٠٧٦/٤٦٩

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٨ ص ٣١٠ .

(٢) ابن محمد بن المظفر بن علي أبو القاسم الهمذاني : سمع خلقاً كثيراً بهمذان وبغداد وكان فقيهاً حافظاً وكان من الأولياء . توفي سنة ١٠٧٧/٤٧٠

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٨ ص ٣١٥ .

(٣) هو ابن عبد الله بن البناء أبو علي المقرىء الفقيه المحدث : صنف في كل فن حكي عنه أنه قال صنفت خمسين ومائة مصنف وكانت له حلقة بجامع القصر وحلقة بجامع المنصور . توفي سنة ١٠٧٨/٤٧١

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٨ ص ٣١٩ .

(٤) تفقه على أبي الطيب الطبري ، ثم تركه وتفقه على القاضي أبي يعلى وأفتى ودرس وكانت له حلقة بجامع المنصور للمناظرة والفتوى ، وكان ثقة ورعاً زاهداً ولازم مسجده المعروف بباب البصرة لا يبرحه خمسين سنة . توفي سنة ١٠٨٣/٤٧٦

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٨ ـ ٩ .

(٥) أبو الحسن البستي قاضي الحريم الشريف : توفي سنة ١٠٨٥/٤٧٨

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٨

(٦) محمد بن علي بن المهتدي أبو الحسن الخطيب : كان إليه القضاء بعد أبيه خرج في أيام الفتنة بين أهل الكرخ وباب البصرة فوقع فيه سهم فمات سنة ١٠٨٦/٤٧٩

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٢٤

(٧) ابن أحمد بن سطور أبو علي البرزباني : تفقه على القاضي أبي يعلى ابن الفراء ودرس في حياته وصنف وحدث فروى عنه أشياخنا وشهد عند أبي عبد الله الدامغاني ورد اليه قضاء باب الأزج . توفي سنة ١٠٩٣/٤٨٦

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٨٠ .

الحسين[1] ومحمد بن أحمد بن محمد[2] وحمزة بن الكيال البغدادي[3] وشافع ابن صالح[4] وعبد الله بن نصر[5] .

فقهاء المذهب الشافعي

أبرز رجال المذهب الشافعي ، محمد بن محمد[6] وأبو إسحاق الشيرازي[7] وعبد السيد بن محمد[8] وعبد الرحمن بن

---

(١) إبن أحمد بن إبراهيم بن جدا أبو الحسن العكبري : هو الشيخ الصالح ، الزاهد الفقيه ، الأمار بالمعروف والنهاء عن المنكر . كان خيراً ثقة شديداً في السنة له مصنف في الأصول . توفي سنة ٤٦٨/١٠٧٥

ابن رجب : **كتاب الذيل على طبقات الحنابلة** ج ٣ ص ١١

(٢) إبن الحسن بن علي بن الحسين بن هارون أبو الحسن التبرداني الفرضي الأمين : كان رجلاً صالحاً صدوقاً ، حافظاً لكتاب الله تعالى ، عالماً بالفرائض وقسمة التركات . توفي سنة ١٠٧٨/٤٧١

ابن رجب : **كتاب الذيل على طبقات الحنابلة** ج ٣ ص ١٣ - ١٤

(٣) أبو يعلى الفقيه الزاهد : كان رجلاً صالحاً ، حافظاً للسنة . توفي سنة ١٠٧٨/٤٧١

ابن رجب : **كتاب الذيل على طبقات الحنابلة** ج ٣ ص ٣٧ .

(٤) ابن حاتم بن أبي عبد الله الجيلي ، أبو محمد : كتب معظم تصانيفه في الأصول والفروع على مذهب أحمد ودرس الفقه في مسجد الشريف أبي جعفر بدرب المطبخ شرقي بغداد . توفي سنة ١٠٨٧/٤٨٠

ابن رجب : **كتاب الذيل على طبقات الحنابلة** ج ٣ ص ٤٩ .

(٥) أبو محمد الزاهد : تفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل . كان خشن العيش متعبداً حج على قدميه بضع عشر حجة . توفي سنة ١٠٨٧/٤٨٠

ابن رجب : **كتاب الذيل على طبقات الحنابلة** ج ٣ ص ٤٩

(٦) ابن محمد بن عبد الله بن أبي الحسن البيضاوي : كان فقيهاً على مذهب الشافعي تولى القضاء بربع الكرخ ، توفي سنة ١٠٧٧/٤٧٠

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٨ ص ٣١٧ .

(٧) ابن يوسف أبو إسحاق الفيروز أبادي الشيرازي : بنى له نظام الملك مدرسة بنهر المعلى وصنف المهذب والتنبيه والنكت في الخلاف واللمع والتبصرة والمعونة وطبقات الفقهاء وكانت له اليد البيضاء في النظر وكثر أتباعه ، وكان قشف العيش متورعاً ويوم قدم إلى نيسابور تلقاه الناس بالحفاوة البالغة ، فكان عندما يصل إلى مدينة من بلاد العجم يخرج أهلها بنسائهم وأولادهم يتمسحون بركابه ويأخذون تراب بغلته للبركة ، ولما وصل إلى ساوة خرج جميع أهلها ولقيه أصحاب الصناعات ومعهم ما ينثرونه على محفته وعلى رؤوس الناس وأجابه السلطان على طلبه . توفي سنة ١٠٨٣/٤٧٦

المنتظم ج ٩ ص ٧ - ٨ .

ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ١٢٥ - ١٢٦

(٨) ابن عبد الواحد بن أحمد بن جعفر أبو نصر ابن =

مأمون[1] وعلي بن أبي يعلى[2] وعبد الرحمن بن أحمد[3] والحسين بن أحمد ابن علي[4] .

فقهاء المذهب الحنفي

أشهرهم محمد بن أبي طاهر[5] وأبو المعالي البغدادي[6] .

فقهاء المذهب الشيعي

أشهر فقهاء الشيعة الذين برزوا في عهد المقتدي هم : يحيى بن

الصباغ : كان فقيه العراق يضاهي أبا إسحاق الشيرازي ويقدم عليه في معرفة المذهب ، وكان ثقة خيراً ومن تصانيفه الشامل والكامل وتذكرة العالم والطريق السالم . ولي التدريس بالنظامية ببغداد قبل أبي اسحاق بعشرين يوماً ثم بعد وفاته ، قال أبو الوفاء بن عقيل : ما كان يثبت مع قاضي القضاة أبي عبد الله الدامغاني ويشفى في مناظرته من أصحاب الشافعي مثل أبي نصر الصباغ . توفي سنة ٤٧٧/١٠٨٤

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٢ ـ ١٣

(١) ابن علي أبو سعد المتولي : درس بالنظامية ببغداد بعد أبي اسحاق ودرس الأصول مدة ثم قال الفروع أسلم ، وكان فصيحاً فاضلاً . توفي سنة ٤٧٨/١٠٨٥

ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٨

(٢) ابن زيد أبو القاسم الدبوسي : من أهل دبوسة ، بلدة بين سمرقند وبخارى ، ولي التدريس بالنظامية في بغداد وتوحد في الفقه والجدل وسمع الحديث . توفي سنة ٤٨٢/١٠٨٩

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٥٠ .

(٣) ابن علك أبو طاهر : ولد بأصبهان وسمع الحديث وتفقه بسمرقند وهو كان السبب في فتحها وكان من رؤساء الشافعية . قال يحيى بن عبد الوهاب بن منده : لم نر فقيهاً في وقتنا أنصف منه ولا أعلم ، وكان بهيج المنظر فصيح اللهجة ، ذا مروءة وكانت له حال عظيمة ونعمة كبيرة وكان يقرض الأمراء الخمسين ألف دينار وما زاد، توفي ببغداد فمشى تاج الملك وغيره في جنازته ولم يتبعه راكب سوى نظام الملك واعتذر بعلو السن وجاء السلطان عشية ذلك اليوم إلى قبره .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٥٨ ـ ٥٩

(٤) هو أبو عبد الله بن العقال : تفقه على القاضي أبي الطيب الطبري ، وكانت له مقامات سنية في النظر والجدال ، كان زاهداً ، ولي القضاء بحريم دار الخلافة عن أبي عبد الله الدامغاني . توفي سنة ٤٧٧/١٠٨٤

السبكي : **طبقات الشافعية الكبرى** ج ٣ ص ١٤٧

(٥) العباسي ويعرف بابن المرحى : شهد عند الدامغاني وناب في القضاء فحمدت طريقته توفي سنة ٤٧٨/١٠٨٥

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٢٤

(٦) هو أحمد بن علي بن قدامة : تولى قضاء الأنبار ثم إماماً بالكرخ ، يدرس الأدب والنحو . توفي سنة ٤٨٦/١٠٩٣

ابن أبي الوفا : **الجواهر المضية في طبقات الحنفية** ج ١ ص ٨٢ .

الحسين[1] ويحيى بن محمد[2] وعبد الرحمن بن محمد[3] .

فقهاء المذهب الظاهري

أشهر فقهاء هذا المذهب : أحمد بن محمد[4] .

ثالثاً : رجال الحديث

وسوق الحديث وحفظه وروايته كانت رائجة في عهد المقتدي وعندما نستعرض الأعلام الذين نبغوا في هذا الميدان ، سنحصل على صورة واضحة للأهمية التي شغلها هذا العلم بمدينة بغداد .

ومن الرجال الذين أتقنوا حفظ الحديث وروايته : محمد بن علي[5] ومحمد بن محمد[6] وأحمد بن محمد[7] وعبد الملك بن أحمد[8] وأحمد بن

---

(١) ابن اسماعيل بن زيد أبو الحسين الحسني : كان مفتي طائفته على مذهب زيد بن علي ، وكانت له معرفة بالأصول والحديث . توفي سنة ١٠٨٦/٤٧٩

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٣٥ .

(٢) ابن القاسم أبو المعمر المعروف بابن طباطبا العلوي : وكان بقية شيوخ الطالبيين وكان هو وأخوه نسابتهم . وكان ينزل بالبركة من ربع الكرخ وكان مجمعاً لظراف الطالبيين وعلمائهم وشعرائهم وفضلائهم ، وكان يذهب مذهب الإمامية وقد قرأ طرفاً من الأدب . توفي سنة ١٠٨٥/٤٧٨

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٢٥ ـ ٢٦

(٣) أبو محمد العماني : كان يتولى قضاء ربع الكرخ ببغداد ثم ولي قضاء البصرة . توفي سنة ١٠٩٢/٤٨٥

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٦٩ .

(٤) أحمد بن محمد : بن عمر بن اسماعيل بن الأخضر . كان على مذهب أهل الظاهر وكان أحسن الناس تلاوة للقرآن ، حسن الطريقة ، حميد السيرة ، مقلاً من الدنيا ، قنوعاً . توفي سنة ١٠٨٠/٤٧٣

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٨ ص ٣٢٧ .

(٥) ابن محمد بن أحمد بن محمد بن أبي موسى الهاشمي : سمع الحديث وولي نقابة الهاشميين . توفي سنة ١٠٧٥/٤٦٨

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٨ ص ٢٩٩

(٦) ابن عبد الله بن عبد الله أبو الحسن البيضاوي الشافعي : كان ثقة خيراً . توفي سنة ١٠٧٥/٤٦٨

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٨ ص ٣٠٠ .

(٧) ابن أحمد بن عبد الله أبو الحسين ابن النقور البزاز ، كان صدوقاً متحرياً فيما يرويه : كان أصحاب الحديث يشغلونه عن الكسب لعياله . توفي سنة ١٠٧٧/٤٧٠

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٨ ص ٣١٤ .

ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ١٠٥ .

(٨) ابن أحمد بن خيرون أبو نصر : روى الحديث =

محمد[1] وحمزة بن علي[2] ومحمد بن محمد[3] ومحمد بن إسحاق[4] وعبد الواحد بن أحمد[5] .

رابعاً : القراء في عهد المقتدي

كان اهتمام المسلمين متوجهاً بالدرجة الأولى نحو القرآن الكريم وما يتصل به من علوم لأنه المصدر الأول والثابت للشريعة الإسلامية . وإذا كان العربي عند فجر الرسالة يتكلم الفصحى بالسليقة فإنه كلما ابتعد به الزمان ونأى به المكان واختلط بشعوب أعجمية ، أدرك الحاجة إلى التعمق في دراسة علم القراءة وما يتصل به من أحكام . وفي زمن المقتدي اشتهر عدد كبير من القراء

وكان زاهداً يختم كل ليلة ختمة . توفي سنة ١٠٧٩/٤٧٢ .

ابن الجوزي : المنتظم ج ٨ ص ٣٢٤ .

(١) ابن إبراهيم بن علي أبو طاهر القصاري الخوارزمي : حدث عنه أشياخنا كان يرسل من الديوان إلى غزنة . توفي سنة ١٠٨١/٤٧٤

ابن الجوزي : المنتظم ج ٨ ص ٣٣٢ .

(٢) ابن محمد بن عثمان أبو الغنائم ابن السواق البندار : كان ثقة صدوقاً من أثبت المحدثين حدثنا عنه أشياخنا . توفي سنة ١٠٨٥/٤٧٨ .

ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٨ .

(٣) ابن زيد بن علي بن موسى بن جعفر بن الحسين ابن علي بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب الملقب بالمرتضى ذو الشرفين : سمع الحديث الكثير وصحب أبا بكر الخطيب وأخذ عنه علم الحديث فصارت له به معرفة حسنة ، وكان يرجع إلى عقل كامل وفضل وافر ورأي صائب ، وصنف فأجاد وكانت له دنيا وافرة ، وكان يملك نحو أربعين قرية بنواحي كش وكان يخرج زكاة ماله فكان ينفذ الأموال إلى جماعة من الأئمة من ألف دينار إلى عشرة آلاف دينار في البلد الواحد ، حبسه ملك ما وراء النهر حتى مات سنة ١٠٨٧/٤٨٠

ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٤٠ ـ ٤١ .

(٤) ابن إبراهيم بن مخلد بن جعفر أبو الحسن الباقرحي : حدثنا عنه أشياخنا وهو من الثقات أهل البيت الحديث والعلم والعدالة من ظراف البغداديين . توفي سنة ١٠٨٨/٤٨١ .

ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٤٦ .

(٥) ابن الحصين الدسكري أبو سعد الفقيه : صحب أبا إسحاق الشيرازي وروى الحديث ثم خرج في المخزن وكان ميالاً لأهل العلم . توفي سنة ١٠٩٣/٤٨٦ .

ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٧٨ .

منهم علي بن عبد الملك[1] ومحمد بن علي[2] وختالغ بن كنتكين[3] ومحمد بن أحمد[4] .

خامساً : رجال التفسير في عهد المقتدي

وعلم التفسير هو أحد العلوم الإسلامية التي لقيت رواجاً واهتماماً من الناس نظراً لارتباطه الوثيق بالقرآن الكريم . وبما أنه لا يمكن لأي رجل أن يخوض في هذا العلم إلّا بعد أن يحصل على مرتبة عالية في فهم اللغة العربية وحديث رسول الله ﷺ وسيرته وأن يصل إلى درجة عالية في فهم الأحكام ومقاصد الشريعة ، لذلك فإن الذين عملوا في هذا الحقل كانوا قلة بالنسبة لغيرهم وأبرزهم في زمن المقتدي :

عبد الخالق بن هبة الله[5] وأبو الحسن القيرواني[6] .

---

(١) أبو الحسن الشهوري المعدل القارىء: كان لذيذ التلاوة قد قرأ بالقراءات الكثيرة توفي سنة ٤٦٧/١٠٧٤

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٨ ص ٢٩٦ - ٢٩٧

(٢) ابن محمد بن موسى بن جعفر أبو بكر الخياط المقرىء . كان أوحد عصره في القراءات وسمع الحديث وكان ثقة . توفي سنة ٤٦٧/١٠٧٤

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٨ ص ٢٩٧

(٣) أبو منصور أمير الحاج : كان شجاعاً وله وقعات مع عرب البرية ، وكانوا يخافونه وكان حسن السيرة محافظاً على الصلوات في جماعة يختم القرآن كل يوم ويختص به العلماء والقراء وله آثار جميلة في المشاهد والمساجد والمصانع بين مكة والمدينة ولبث في أمرة الحاج اثني عشرة سنة . توفي سنة ٤٧٩/١٠٨٦

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٣١

(٤) ابن علي بن حامد أبو نصر المروزي : كان إماماً في القراءات أوحد وقته صنف فيها التصانيف وسافر الكثير في طلب علم القرآن وغرق مرة في البحر .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٦٠

(٥) عبد الخالق بن هبة الله ، ابن سلامة بن نصر أبو عبد الله المفسر الواعظ : كان كثير التهجد والتعبد . توفي سنة ٤٧٩/١٠٨٦

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٣٢

(٦) هو علي بن فضال بن علي بن غالب بن جابرمن ذرية الفرزدق الشاعر :

كان إماماً في اللغة والنحو والأدب والتفسير والسير ، طوف في الأرض وله من التصانيف برهان العميدي في التفسير عشرون مجلداً . الأكسير في علم التفسير خمسة وثلاثون مجلداً . أكسير الذهب في صناعة الأدب . النكت في القرآن . معاني الحروف عنوان الاعراب . مات سنة ٤٧٩/١٠٨٦

السيوطي : **طبقات المفسرين** ص ٢٤

سادساً : الحركة الصوفية

نستطيع أن نقول أن هذا العهد هو الفترة الذهبية للحركة الصوفية ، وتأثيرها أصاب كل فئات المجتمع وفي مقدمتهم نظام الملك الذي كان يعظم الصوفية ويكرمهم كثيراً حتى أنه أنفق مرة على أحدهم ثمانين ألف دينار[١] .

وقد اشتهر منهم في عهد المقتدي : يوسف بن محمد[٢] وأحمد بن محمد[٣] ومحمد بن محمد[٤] وأردشير العبادي[٥] .

سابعاً : الأدب في عهد المقتدي

من الطبيعي أن تنهض الحركة الأدبية في مدينة بغداد بعد إنشاء المدارس النظامية والتاجية وغيرها وبعد إنشاء المكتبات التي تزود طلاب المعرفة بالمصادر والمراجع اللازمة وتسهم في ازدهار الآداب والعلوم على مختلف أنواعها .

وإذا كان نظام الملك قد استأثر بنشر المدارس النظامية في كل من بغداد والبصرة والموصل وأصبهان وآمل وطبرستان ومرو ونيسابور وهراة وبلخ[٦] ، فإنه

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٦٥ .

(٢) يوسف بن محمد : كان رباط الزوزني وكان ثقة . توفي سنة ٤٦٨/١٠٧٥ .
ابن الجوزي : المنتظم ج ٨ ص ٣٠٤ .

(٣) أحمد بن محمد : ابن دوست أبو سعد النيسابوري الصوفي . كان يجمع جماعة من الفقراء ويدور فيهم في قبائل العرب . توفي سنة ٤٧٧/١٠٨٤ .
ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٩ .

(٤) محمد بن محمد : ابن علي بن الحسن أبو نصر ابن أبي طاهر . تزهد في شبابه فانقطع إلى رباط أبي سعد الصوفي ثم انتقل الى الحريم الطاهري وكان ثقة . توفي سنة ٤٧٩/١٠٨٦ .
ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٣٣ ـ ٣٤ .

(٥) أردشير بن منصور أبو الحسين العبادي : دخل إلى بغداد وجلس في النظامية وحضره أبو حامد الغزالي وغصت المدرسة بالناس حتى عجز المكان فكان العدد يناهز الثلاثين ألف والنساء أكثر . كان صمته أكثر من نطقه . إذا تكلم ضج الناس وهاموا وحلق أكثر الصبيان شعورهم وأووا إلى المساجد والجوامع وتوافروا على الجماعات وأريقت الأنبذة والخمور وكسرت آلات الملاهي كان الناس ينقلون الماء الذي يتوضأ به . وله كرامات كثيرة .
ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٧٥ ـ ٧٦ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٠٨
ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٦٦ .
محمد مسفر الزمراني : نظام الوزارة في الدولة العباسية ص ١٩٠

لم يفعل ذلك خدمة للمذهب الشافعي فقط بل خدمة للحركة الفقهية والأدبية أيضاً . وهكذا أغدق على رجال القلم من كتاب وشعراء وقربهم إليه منهم ابن عطية المسمى شبل الدولة(١) .

أما المقتدي فكان يقول الشعر ويتذوقه ولذلك أحب الشعراء وأكرمهم(٢) ، كذلك كان للوزير ظهير الدين أبي شجاع الروذراوري نصيب وافر في النهوض بالحركة العلمية والأدبية وقد عرف عنه تعمقه في دراسة العربية وإلمامه بالأدب وأنشأ مدرسة ببغداد وجعلها وقفاً على أصحاب الشافعي(٣) .

والوزير عميد الدولة كان له ترسل بديع وتوقيعات وجيزة وأشعار رقيقة وكان يكثر من الإغداق على العلماء ورجال الأدب حتى روي عنه أنه مدح بمائة ألف بيت من الشعر ومدحه عشرة آلاف شاعر .

كل هذا الاهتمام جعل الشعر العربي يصل إلى مرحلة متقدمة قبل أن يبدأ بالانحدار والتراجع(٤) .

ومن الشعراء الذين لمعوا في عهده : مسعود بن المحسن(٥) وناصر بن محمد(٦) واسبهند وست بن محمد(٧) .

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٦٨ .

(٢) الأصبهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ص ٢٣١

(٣) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج ٣ ص ٥٨ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ١٣١ - ١٣٢ - ١٣٣

(٥) ابن الحسن بن عبد الرزاق أبو جعفر ابن البياض : له شعر مطبوع . من شعره :

يا من لبست لهجره ثوب الضنى
حتى خفيت به عن العواد
وأنست بالسحر الطويل فأنسيت
أجفان عيني كيف كان رقادي
ان كان يوسف بالجمال مقطع الـ
أيدي فأنت مقطع الأكباد

توفي سنة ٤٦٨/١٠٧٥

ابن الجوزي : المنتظم ج ٨ ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٦) ابن علي التركي المضافري أبو منصور : قرأ القرآن وسمع الحديث وكتب الكثير من اللغة وقال الشعر وتولى قراءة التاريخ بحضرة الشيوخ من شعره :

أحباءنا في بطون الثرى
فأبلين تلك الوجوه الوساما
فلو تبصر العين ما في الصفيح
نهاها تخوفها ان تناما

وله أشعار طويلة . توفي سنة ٤٦٨/١٠٧٥

ابن الجوزي : المنتظم ج ٨ ص ٣٠١ .

(٧) ابن الحسن أبو منصور الديلمي : شاعر مجود

ومنهم محمد بن الحسين[1] وعاصم بن الحسن[2] وعبد الباقي بن محمد[3] .

ثامناً : الكتابة والانشاء

بلغ هذا العلم مرحلة النضج في عصر السلاجقة وأصابه شيء من التكلف مع امتداد الحضارة وصار الكتّاب يهتمون بالصناعة اللفظية وبتنميق العبارات إرضاءً للحكام الأعاجم وديوان الخليفة لا يخلو من كاتب يحسن هذه المهنة من حيث الشكل والمضمون[4] ومن أهم الذين لمعت أسماؤهم في زمن المقتدي نذكر:

كان يشيع وذكر توبته في قصيدة منها :

وأقول خير الناس بعد محمد
صديقه وأنيسه في الغار
ثم الثلاثة بعده خير الورى
أكرم بهم من سادة أطهار

توفي سنة ٤٦٩/١٠٧٦

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٨ ص ٣٠٨ .

(١) ابن عبد الله بن أحمد بن يوسف بن الشبل أبو علي الشاعر:سمع الحديث وكان أحد الشعراء المجودين . من شعره :

يفني البخيل بجمع المال مدته
وللحوادث والأيام ما يدع
كدودة القز ما تبنيه يهدمها
وغيرها بالذي تبنيه ينتفع

توفي سنة ٤٧٣/١٠٨٠

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٨ ص ٣٢٨ .

(٢) ابن محمد بن علي بن عاصم بن مهران أبو الحسين العاصمي : له الأشعار الرائعة النادرة المستحسنة . وكان من أهل الفضل والأدب . كان ثقة متقناً توفي سنة ٤٨٢/١٠٨٩ . من شعره :

ماذا على متلون الأخلاق
لو زارني وأبثه أشواقي
وأبوح بالشكوى اليه تذللاً
وأفض ختم الدمع مع آماقي

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٥١ .

ابن الأثير : **الكامل** : ج ١٠ ص ١٨٠

(٣) ابن الحسين بن داود بن ناقيا أبو القاسم الشاعر ابن الحريم الطاهري : كان أديباً كان يطعن في الشريعة . توفي سنة ٤٨٥/١٠٩٢ . من شعره عند موته :

نزلت بجار لا يخيب ضيفه
أرجى نجاتي من عذاب جهنم
وأني على خوفي من الله واثق
بأنعامه والله أكرم منعم

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٦٨ - ٦٩ .

هذه النماذج الشعرية المنتقاة يغلب عليها صنعة التقليد وهي تمثل مرحلة بداية الانحطاط في تاريخ الشعر العباسي من حيث المضمون والأسلوب .

(٤) زيدان : **تاريخ آداب اللغة العربية** ج ٣ ص ٣٥ .

فاطمة بنت الأقرع[١] وأبا سعد بن الموصلايا[٢] وأبا نصر هبة الله[٣] .

تاسعاً : علم التاريخ

استقر علم التاريخ في هذا العصر ونضجت مواده ورسخت أصوله وتنوعت أهـدافه وانقسمت المجمـوعات التـاريخية إلى سيـر وتواريـخ الدول وتـراجم المشاهير وتواريخ المـدن والبلاد والتـواريخ العـامة . وبـرز في أنحاء العـالم الإسلامي مؤرخون بذلوا جهوداً كبيرة في حفظ تراث أوطانهم وبلادهم[٤] .

ومن هؤلاء الرجال الذين ظهروا في مدينة بغداد في عهد المقتدي : ابن ماكولا[٥] ومحمد بن هلال[٦]

---

(١) الكـاتبـة فـاطمـة بنت علي المؤدب : ٤٨٠/١٠٨٧ ، المعروفة ببنت الأقرع : كان خطها حسناً للغاية ولذلك كتبت كتاب الهدنة إلى ملك الروم ، وذهبت برسالة من الديوان العزيز إلى عميد الملك أبي نصر الكندري ، فأعطاها ألف دينار وسمعت الحديث في حياتها وروى عنها بعض الفقهاء .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٤٠ .

ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ١٦٣

ياقوت : **معجم الأدباء** ج ١٦ ص ١٧٢

(٢) أبو سعد بن الموصلايا : كاتب الانشاء للمقتدي والذي ناب في وزارته .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٤١

(٣) ابن اخته أبو نصر هبة الله : كان جيد الخط .

ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٣٩٧ .

(٤) زيدان : **تاريخ آداب اللغة العربية** ج ٣ ص ٦٥

(٥) ابن ماكولا : توفي سنة ٤٨٦/١٠٩٣ . هو الأمير سعد الملك ، أبو نصر علي بن هبة الله بن علي : كان أبوه وزيراً للقائم وعمه كان قاضياً في بغداد ، وهو من كبار الحفاظ والمحدثين لكنه ألف في التاريخ واللغة . من أهم مؤلفاته :

الإكمال : في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والألقاب وهو معجم تاريخي . وله ذيل اسمه تكملة الإكمال .

وكان يقال عنه الخطيب الثاني . وله كتاب « الوزراء » وكان نحوياً مجدداً ، شاعراً ، صحيح النقل . ما كان في البغداديين في زمانه مثله ، سافر إلى الشام والسواحل وديار مصر والجزيرة والثغور والجبال ودخل خراسان وما وراء النهر وجال في الآفاق . قتله غلمانه بجرجان وأخذوا ماله وهربوا .

قال عنه ابن الجوزي : « سمعت شيخنا عبد الوهاب يطعن في دينه ويقول العلم يحتاج الى دين » .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٧٩ .

الكتبي : **فوات الوفيات** ج ٢ ص ١٨٥ - ١٨٦

(٦) محمد بن هلال : ابن المحسن بن إبراهيم ابو الحسن الصابي الملقب بغرس النعمة : ذيل على تاريخ والده الذي ذيله أبوه على تاريخ ثابت بن سنان الذي ذيله على تاريخ ابن جرير وكان له صدقة ومعروف وخلف سبعين ألف دينار . توفي =

عاشراً : الفلسفة والمنطق

عرفت الدولة السلجوقية وحكامها بالتعصب الشديد للمذهب السني ؛ لذلك تعثرت الفلسفة في هذا العهد لأن البيئة السلجوقية لم تكن تتقبل أي فكر يناقش السلفية[1] .

أما على صعيد عاصمة الخلافة العباسية ، فإن السيطرة كانت لرجال الفقه والحديث وكان الناس يمقتون كل فكر يخالف الشريعة الإسلامية ، وينعتون المعتزلة بالكفر ويلعنونهم في الجوامع . لذلك نلاحظ أن أهل السنة يجبرون محمد بن أحمد بن عبد الله بن أحمد بن الوليد أبا علي المعتزلي ، على لزوم بيته خمسين سنة لا يجسر أن يظهر في الشارع لأنه كان يدرس علم الاعتزال وعلم الفلسفة والمنطق[2] . توفي سنة ٤٧٨/١٠٨٥ .

أحد عشر : علم الكلام

أما علم الكلام فكانت سوقه رائجة في هذه المرحلة وأكثر الصدامات التي وقعت ببغداد ، كانت بين أتباعه وهم الأشعرية وبين الحنابلة . وأبو المعالي الجويني هو أبرز علماء الكلام في عهد المقتدي ، والغريب في الأمر أن تنشط الأشعرية في أيام السلاجقة الأحناف ، والسبب يعود إلى الدعم الذي قدمه لهم نظام الملك[3] .

---

(١) نظام الملك : سياسة نامه . ص ١١ ، ١٢ ، ١٣

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٢٠ ، طاهر : **الشعر العربي في العصر السلجوقي** ص ٦٠ .

(٣) عبد الملك بن عبد الله ابن يوسف أبو المعالي الجويني الملقب بإمام الحرمين : من أهل نيسابور وجوين قرية من قرى نيسابور . درس مكان والده قبل سن العشرين وسمع الحديث الكثير . درس في نيسابور ثلاثين سنة وكان اليه المحراب والمنبر والخطابة ومجلس التذكير يوم الجمعة . كان يحضر درسه كل يوم نحو ثلاث مئة عالم وتخرج عنه جماعة من الأكابر صنف كتابه نهاية =

سنة ٤٨٠/١٠٨٧ ودفن في مشهد علي عليه السلام . ابتنى ابن الصابي شارع ابن عوف دار كتب ووقف فيها نحواً من أربعمائة مجلد في فنون العلم ورتب بها خازناً يقال له ابن الأقساسي العلوي وتردد العلماء إليها سنين كثيرة .

ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٤٢ - ٤٣ ، ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٦٣

ثاني عشر : علم الفلك

راج في هذه المرحلة الاهتمام بعلم الفلك من جانب الدولة السلجوقية ، ومن أهم الإنجازات التي حدثت في عهد المقتدي ، ضبط التقويم ، وإنشاء الرصد .

ففي سنة ٤٦٧ / ١٠٧٤ ، جمع السلطان ملكشاه ونظام الملك ، جماعة من أعيان المنجمين فجعلوا النيروز أول نقطة من الحمل وكان النيروز قبل ذلك عند حلول الشمس نصف الحوت وصار منذ ذلك الحين ما فعله السلطان مبدأ التقاويم .

الرصد : ومن الأعمال المهمة التي أنجزها السلطان ملكشاه في سنة ٤٦٧ / ١٠٧٤ نفسها الرصد الذي قام به مجموعة من المنجمين الذين بلغوا مرتبة عالية في علوم الرياضيات والفلك ومن أبرزهم : عمر بن إبراهيم الخيامي[١] وأبو المظفر الاسفزاري[٢] وميمون ابن النجيب الواسطي وغيرهم ، وقد أنفق

= المطلب في دراية المذهب . وكان قد بالغ في الكلام وصنف الكتب الكثيرة فيه ثم رأى أن مذهب أهل السلف أولى ، فنهى تلاميذه عن الاشتغال بعلم الكلام . توفي سنة ٤٧٨ / ١٠٨٥ .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٨ ـ ١٩

(١) عمر بن إبراهيم الخيام : هو عمر بن إبراهيم الخيامي النيسابوري أبو الفتح . شاعر فيلسوف فارسي ، مستعرب من أهل نيسابور . كان عالماً بالرياضيات والفلك واللغة والفقه والتاريخ . له شعر عربي وتصانيف عربية . بقيت من كتبه رسائل منها : شرح ما يشكل من مصادرات إقليدس ـ ، ومقالة « رسائل في الجبر والمقابلة ـ » و « الاحتيال لمعرفة مقداري الذهب والفضة في جسم مركب منهما ـ » و « الخلق والتكيف ـ » وبلغت شهرة الخيام الذروة بمقطعاته الشعرية والرباعيات نظمها شعراً بالفارسية وترجمت إلى العربية واللاتينية والفرنسية والإنكليزية والألمانية والايطالية والدانمركية وغيرها . وعرف قدره في أيامه فقربه الملوك والرؤساء وكان السلطان ملكشاه ينزله منزلة الندماء وكان من خاصة خلصائه في شبابه « نظام الملك » . توفي سنة ٥١٥ / ١١٢١ كان ذا عقل منظم . حاول تصنيف المعادلات الرياضية وبحسب درجاتها وبحسب عدد الحدود التي فيها .

الزركلي : **الأعلام** ج ٥ ص ١٩٤ ـ ١٩٥

رضا زاده شفق : **تاريخ الأدب الفارسي** ص ٨٩ .

فروج : **تاريخ العلوم عند العرب** ص ٤٣ .

(٢) أبو المظفر الاسفزاري : المظفر بن إسماعيل ، أبو حاتم الاسفزاري : فلكي مهندس . كان

عليهم السلطان ملكشاه الأموال الطائلة حتى سنة ١٠٩٢/٤٨٥ حيث مات وبطل العمل في هذا المرصد[١] .

ثالث عشر : الطب في عهد المقتدي

اهتم المقتدي بالسهر على حياة الناس وسلامة أبدانهم ونال الطب منه عناية كبيرة وكان الخليفة يأمر بتقديم الخدمات الطبية مجاناً للناس وخاصة في أوقات انتشار مرض الطاعون .

والبيمارستان العضدي[٢] كان لا يزال عامراً يقدم فيه الأطباء خدمتهم للناس على مختلف فئاتهم وعين له المقتدي ناظراً أميناً هو علي بن أحمد بن علي أبي القاسم المعروف بابن الكوفي فقام بواجبه خير قيام وأحسن مراعاة المرضى[٣] . وخدم في البيمارستان عدد من الأطباء أشهرهم سعيد بن هبة الله[٤] وابن جزلة[٥]

= معاصراً لعمر بن إبراهيم الخيام وبينهما مناظرات . غلب عليه الاشتغال بعلوم الهيئة والاثقال والحيل الهندسية . وصرف مدة من عمره في عمل ميزان يعرف به « الغش والعيار » فكسره خازن السلطان خوفاً من ظهور خيانته في الخزانة فسمع المظفر بهذا فمرض ومات أسفاً . له تصانيف في الرياضيات منها مقدمة في المساحة - « توفي سنة ١٠٨٧/٤٨٠

الزركلي : **الأعلام** ج ٨ ص ١٦٣

(١) ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٩٨ .
ابن الوردي : **تتمة المختصر في أخبار الشرح** ص ٥٦٩ .

(٢) منسوب إلى عضد الدولة . وهو في الجانب الغربي من بغداد . فرغ من بنائه سنة ٩٧٨/٣٦٨ . وأعد له من الآلات ما يقصر الشرح عنه .
ابن خلكان : **وفيات الأعيان** ج ٤ ص ٥٤ - ٥٥ .

(٣) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٣٣

(٤) سعيد بن هبة الله بن الحسين أبو الحسن : طبيب متميز . واسع الاطلاع من أهل بغداد . خدم المقتدي بأمر الله وولده المستظهر بالله وألف كتباً في الطب والفلسفة والمنطق منها « المغني » و « الإقناع » في الطب و« الحدود والفروق » رسالة في الفلسفة « والتلخيص النظامي » و « خلق الانسان » و« اليرقان » وكان يتولى مداواة المرضى في البيمارستان العضدي . توفي سنة ١١٠١/٤٩٥ وله كتاب « الشامل في الطب » .
ابن أبي أصيبعة : **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** ص ٣٤٢ - ٣٤٣ .

(٥) ابن جزلة صاحب المنهاج : هو أبو علي يحيى ابن عيسى بن جزلة الطيب : صاحب كتاب « المنهاج » الذي رتبه على الحروف وجمع فيه أسماء الحشائش والعقاقير والأدوية وغير ذلك شيئاً كثيراً . كان نصرانياً ثم أسلم وصنف رسالة =

وفي الأوقات الحرجة عندما تنتشر الأمراض السارية كان المقتدي يأمر بجعل التطبيب مجاناً لكل الناس في البيمارستان ويقدم لهم الأدوية بلا ثمن أيضاً حتى أنه في سنة ٤٧٨ / ١٠٨٥ حين اشتد الطاعون ببغداد وأهلك أعداداً كبيرة منها كان المقتدي يقدم للفقراء[١] المال إلى جانب التطبيب والأدوية[٢] . وفي سنة ٤٧٩ / ١٠٨٦ عاد الطاعون من جديد الى العراق وكثر الموت فعاد المقتدي وأمر بتوزيع الأدوية والأشربة على الناس كما أمر بتقديم الأموال اللازمة لهم .

خاتمة

امتاز المقتدي بالهمة والشجاعة والتدين ونفذ في مدينة بغداد عدداً من الانجازات . فعلى الصعيد الاجتماعي عمل على حماية أخلاق الناس وحارب عناصر الفساد، وعلى الصعيد العمراني بنى الدار الشاطئية وعدة أماكن كما أسهم في مشاريع العمران رجال الدولة السلجوقية وحتى عامة الناس . وعلى الصعيد الاقتصادي حاول تشجيع التجارة ومنع التلاعب بالأوزان ، كما سهر على تحقيق العدالة في الأحكام وكان يستمع لشكاوى الناس .

أما وزراؤه الذين خدموه فقد تمتعوا بميزات من الحنكة وحسن التدبير والعدل والتدين وعملوا على تشجيع أهل الأدب والعلم إلا أن نهايتهم كانت غير مرضية .

= في الرد على النصارى وهو تلميذ أبي الحسن سعيد ابن هبة الله بن الحسن وبه انتفع في الطب . وصنف للإمام المقتدي بأمر الله كثيراً من الكتب . فمن ذلك كتاب : « تقويم الأبدان » وكتاب «منهاج البيان فيما يستعمله الانسان » وكتاب « الاشارة في تلخيص العبارة » ورسالة في مدح الطب وموافقته للشرع والرد على من طعن به . ورسالة كتبها الى اليا القس لما أسلم وهو من المشاهير في علم الطب وعمله كان يطبب أهل محلته ومعارفه بغير أجرة وقف كتبه قبل وفاته وجعلها في مشهد أبي حنيفة . توفي سنة ٤٩٣ / ١٠٩٩

ابن خلكان : **وفيات الاعيان** ج ٦ ص ٢٦٧ - ٢٦٨

ابن العبري : **تاريخ مختصر الدول** ص ١٩٥

(١) قال فقهاء الاسلام : إذا جاع رجل يحق له أن يغالب من معه فضل طعام ويأخذه منه بالقوة .

ابن عقيل : **كتاب الفنون** ج أول ص ٤٣٠

(٢) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٤ ، ١٥ ، ٢٧

كان السلطان ملكشاه يعترف بسلطة المقتدي الروحية ويخطب له على منابر الدولة السلجوقية ويقدم له الاحترام في المناسبات الرسمية ، إلا أن الخليفة كان مجرداً من أي نفوذ حتى داخل مدينة بغداد إذ كـان نظام الملك يفـرض على الخليفة ما يريد فيأمره بخلع هذا الوزير وتثبيت ذاك والخليفة لا يرد له طلباً ولا يخالفه ، ورغم زواج المقتدي من بنت ملكشاه غضب عليه السلطان وأمره أن يخرج من بغداد على وجه السرعة .

وبعـد وفاة ملكشـاه كان المقتـدي لعبة هـزيلة بين أيدي خلفـائـه على السلطة ، فهو يعطي العهد لكل طالب ويبارك كل داخل إلى بغـداد ، وأخيراً دسوا له السم عن طريق قهرمانته .

وامتازت الحياة الاجتماعية في عهـد المقتدي بـالانقسامـات المذهبيـة الحادة وسيطر جو من القلق والاضطراب في داخل بغداد شجع حركة الفتوة على الظهور وابتعد أهل الذمة عن مجالات التناحـر الديني إلا أن المقتـدي فرض عليهم الغيار . رغم أجواء الفوضى عـرفت الحركـة العلمية تـطوراً بارزاً وخـاصة في ميـدان التعليم إذ ظهرت المـدارس الفقهيـة التي تـدرس العلوم الإسلامية وفي مقدمتها الفقه والحديث والتفسير وعلوم اللغة العربية .

وعرفت العلوم العقلية ازدهاراً حسناً وخاصة علوم التاريخ والفلك والطب وعلم الكـلام ، إلا أن علم الفلسفة والمنطق قـد أصيب بتراجع كبير وخاصة بعد الهجوم الكاسح الذي شنه أبو حامد الغزالي على الفلسفة الإغريقية . ولاقت الحركة الصوفية تشجيعاً وخاصة من نظام الملك الذي أمدها بنفوذه السياسي ومن أبي حامد الذي زودها بكتابه « إحياء علوم الدين » .

وفي أجواء الصراع بين السـلاطين والسلاجقـة على الصعيد السيـاسي والصراعات المذهبية على الصعيد الديني تولى المستظهر خلافة والده ببغداد .

الباب الثاني

المُستظهر بالله العبّاسيّ

٤٨٧-٥١٢ هـ — ١٠٩٤-١١١٨ م.

مقدمة

بعد أن اطلعنا على أهم الأحداث الداخلية والخارجية التي شهدها عهد المقتدي على الصعيد السياسي والاجتماعي والاقتصادي .

وبعد أن استعرضنا أهم جوانب الحياة العلمية والفكرية التي عرفتها مدينة بغداد في أيامه ، صار من الطبيعي الآن أن ننتقل إلى عهد ابنه المستظهر بالله العباسي لنراقب التطورات التي تمت في داخل بغداد أو في خارجها ، ولنحلل آثارها على صعيد السلطنة السلجوقية وعلى صعيد الخلافة العباسية وخاصة على مستوى عاصمة الخلافة بالذات .

هذا الباب شمل أربعة فصول رئيسة وهي :

١ ـ المستظهر ومؤسسات الخلافة .

٢ ـ علاقة المستظهر بالقوى الخارجية .

٣ ـ أحوال بغداد الداخلية في عهد المستظهر .

٤ ـ الحياة العلمية ببغداد في أيام المستظهر .

في الفصل الأول تركز البحث في ثلاث نقاط مهمة هي حياة المستظهر الشخصية ووزارة المستظهر والتطور الذي أصابها ثم أهم الوظائف التي عرفتها مؤسسات الخلافة العباسية في زمنه .

في الفصل الثاني تناول الحديث خمس نقاط رئيسة هي :

الصراع الذي شغل أولاد ملكشاه بحروب مدمرة وموقف المستظهر من أحداث هذا الصراع حيادياً . وكانت للمستظهر علاقة حسنة بأمير الحلة صدقة بن مزيد وعلاقته بالمرابطين في المغرب العربي تميزت بالمودة والاحترام .

أما التحديات التي تعرضت لها الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية على حد سواء فكانت تارة من الحملات الصليبية التي انتهت باحتلال الساحل السوري وطوراً من الضربات التي وجهتها الحركة الباطنية لرجال السلطنة السلجوقية والخلافة العباسية حتى نشرت الرعب والخوف في نفوس الناس .

كما تناول البحث موقف المستظهر من تلك الأحداث .

في الفصل الثالث ، تناولت أحوال بغداد في ستة موضوعات مهمة .

العلاقة التي كانت قائمة بين أنصار المذاهب الإسلامية تميزت بالصلح والاحترام ، والعيارون أخذوا دور المناهضين لرجال السلطة وكان تنظيمهم يقوى ويشتد ، وأهل الذمة عرفوا في أيام المستظهر عهداً من الاحترام والحرية وحسن المعاملة فاقت العهد السابق بكثير ، والمرأة البغدادية خاصة والسلجوقية عامة شاركت الرجل في ميادين كثيرة ، وعرفت الحركة العمرانية ببغداد تقدماً بارزاً شارك فيه الخليفة والسلاطين

أما الحالة الاقتصادية فلم تستقر وان كان السلطان محمد حرص على تشجيع التجارة .

في الفصل الرابع جرى بحث الحياة العلمية ببغداد وتناول الحركة الفقهية وأهم رجالها ، ثم تطور المدارس الفقهية مع الحديث عن علم التفسير وعلم القراءة والحديث ، ثم ذكرت الحركة الصوفية وعلوم اللغة والأدب وعلم التاريخ والفلسفة وعلم الكلام والفلك والحساب والطب وأهم الأعلام الذين برزوا في كل ميدان ، وموقف العلماء من المستظهر وما هو تأثيره في هذا المجال ، وأهم الانجازات العلمية والفكرية في زمنه .

الفَصل الأوَّل

المستظهر بالله العباسي ومؤسسات الخلافة

مقدمة

شمل هذا الفصل ثلاثة موضوعات رئيسة هي حياة المستظهر الشخصية ، ووزارة المستظهر ووظائف الدولة في عهد المستظهر .

في الموضوع الأول بحثت نسب المستظهر وولادته وكيف تولى الخلافة بعد والده وأولاده وعنايته بهم ، ثم ذكرت نبذة عن أخلاقه وسيرته وشعره وأدبه وكيف انتهت حياته .

في موضوع الوزارة : تناول البحث كيفية اختيار الوزير ومهماته وصفاته ، ثم تحدثت عن وزراء المستظهر وهم عميد الدولة بن جهير وعبد الجليل الدهستاني وسديد الملك الأصبهاني وعلي بن جهير وهبة الله بن المطلب ونظام الدين بن محمد .

وبرز في هذه المرحلة منصب نائب الوزير وأصبح مظهراً من مظاهر تطور الوزارة . أما نهاية الوزراء في عهد المستظهر فلم تكن مرضية بصورة عامة .

وعرفت أجهزة الخلافة العباسية في أيام المستظهر عدداً من الوظائف وفي مقدمتها وظيفة القضاء ولها شروطها المحددة ، ووظيفة قاضي القضاة ، وتولى ديوان الانشاء عدد من الكتاب المشهورين والحجاب كان لبعضهم نفوذ يفوق

نفوذ الوزير ، أما صاحب المخزن فكان يتدخل في صلاحيات الخليفة ، وخزانة الغلات كان لها مسؤول ، وديوان الزمام عمل فيه عدد من الرجال الكبار ،وتولى الحسبة عدد من القضاة المشهود لهم بالهيبة والصرامة .

أما منصب الشحنة فكان يتولاه رجال من قبل السلطان وله صلاحيات عسكرية وإدارية ، وللأنساب الشريفة العباسية والعلوية ، نقباء .

أما رجل العمارة فكان يعينه السلطان وكذلك عميد العراق .

أولاً - شخصية المستظهر ٤٧٠ - ٥١٢/ ١٠٧٧ - ١١١٨

١ - نسب المستظهر

هو أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله أبو القاسم عبد الله بن الأمير الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله أبو جعفر عبد الله بن القادر بالله أبو العباس أحمد ابن الأمير أبو أحمد الموفق بن المتوكل على الله أبو جعفر بن المعتصم أبو إسحاق ابن محمد الرشيد أبو جعفر هارون بن المهدي أبو عبد الله محمد بن المنصور أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله ابن العباس بن عبد المطلب[١] .

٢ - ولادة المستظهر

أبصر النور يوم السبت تاسع عشر من شوال سنة ٤٧٠/ ١٠٧٧ واحتفلت بغداد رسمياً وشعبياً بهذه المناسبة[٢] .

٣ - والدة المستظهر

وتتضارب أقوال المؤرخين حول اسم أمه .

ابن الجوزي يقول إن أمه أم ولد فقط[٣] أما الديار بكري فيقول : وأمه أم

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ص ١٤

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ج ٨ ص ٣١٣ ،

(٣) ابن الجوزي : المصدر نفسه ج ٩ ص ٨١ .

ولد تركية اسمها « التون » وعاشت إلى خلافة ابن ابنها المسترشد[1] . من جهته القرماني يذكر : أن أمه أمة اسمها زهرة[2] اما الكازروني فيقول : إن أمه أم ولد اسمها « كلبهار »[3] .

إن المقتدي تزوج عدة نساء ولذلك وقع المؤرخون في تضارب عند تحديد أسم والدة المستظهر .

٤ ـ أولاد المستظهر

في سنة ٤٨٥/ ١٠٩٢ تزوج المستظهر ، اما ولده البكر فهو أبو منصور الفضل ، المسترشد بالله العباسي[4] الذي تولى أمر الخلافة بعد أبيه . ومن أولاده الذين وصلوا الى منصب الخلافة أيضاً ، أبو عبد الله محمد وهو المقتفي بالله العباسي[5] .

أما بقية أولاده فهم :

إسماعيل[6] وأبو إسحاق[7] وأبو طالب العباسي[8] وأبو القاسم علي[9] وأبو نصر[10] وأبو الحسن[11] .

---

(١) تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس ج ٢ ص ٤٠٢ .

(٢) القرماني : أخبار الدول وآثار الأول ص ١٧٣

(٣) مختصر الدول ص ٢١٥

(٤) المسترشد : ٥٢٩/ ١١٣٤ أمير المؤمنين . كان له همة عالية وشجاعة وإقدام وكان يباشر الحروب بنفسه . قتله الباطنية ودفن بمراغة .
ابن الجوزي : المنتظم ج ١٠ ص ٥٣ ـ ٥٤ .

(٥) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٧٧ .
سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٤ .

(٦) إسماعيل : ٥٦٩/ ١١٧٣ . كان موصوفاً بالقوة وشدة الخلق .
ابن الكازروني : مختصر التاريخ ص ٢١٧

(٧) أبو إسحاق : ٥٥٣/ ١١٥٨ . ابن الكازروني : مختصر التاريخ ص ٢١٧

(٨) أبو طالب : ٥٠٤/ ١١١٠ . روى شيئاً من الحديث وكان له بر ومعروف .
ابن الكازروني : مختصر التاريخ ص ٢١٧ .

(٩) أبو القاسم : ٥٥٣/ ١٥٥٨ كان ذا دين وأدب .
ابن الكازروني : مختصر التاريخ ص ٢١٧

(١٠) أبو نصر : ٥٦٦/ ١١٧٠. ابن الكازروني : مختصر التاريخ ص ٢١٧

(١١) أبو الحسن : ٥٢٥/ ١١٣٠. أمه نزهة وهو أكبر أولادها . خطب له أبوه بولاية العهد بعد أخيه المسترشد . فلما ولي أخوه هرب من دار الخلافة .
ابن الدبيثي : المختصر المحتاج اليه ص ١٢٦ ـ ١٢٨

كان المستظهر حريصاً على تأديب أولاده وتربيتهم ؛ لذلك كلف جمال الدولة أبا نصر بن رئيس الرؤساء بن المسلمة أن يقوم بهـذه المهمة ، فسمي أستاذ دار الخلافة إلى أن توفي سنة ٤٩٤/١١٠٠[١] ، ثم أوكل أمر تربيتهم إلى الشيخ أحمد بن عبد الوهاب السيبي[٢] ، وبعد وفاته قام الشيخ أبو الغنائم[٣] بهذه المهمة وهو الذي وصفه المستظهر بأنه شيخ الأسرة وموجهها من الناحية الدينية .

٥ ـ خلافة المستظهر : ٤٨٧ ـ ٥١٢/ ١٠٩٤ ـ ١١١٨

توفي المقتدي يوم السبت الرابع عشر من شهر محرم سنة ٤٨٧/١٠٩٤ ، وفي هذا اليوم انطلق الوزير عميد الدولة باكراً الى السلطان بركيارق وأخذ منه البيعة للمستظهر ولم يدر بالأمر أحد ، إلا أن الارجاف انتشر بين الناس فطلب الوزير من أرباب المناصب الحضور ، فوصل طراد بن محمد من باب البصرة في الزمرة العباسية ، مظهرين شعار المصيبة وجاء نقيب الطالبيين المعمر في الزمرة العلوية ، فضج الناس بالبكـاء ولـم يحضر السلطان بـل أرسل أعيـان دولته ، ووزيره عـز الملك[٤] بن نظام الملك كي ينوب عنه في مبايعة المستظهر[٥] وجاء أهل العلم وعلى رأسهم قاضي القضاة أبو بكـر الشامي والإمـام الغزالي[٦] ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٢٦ .

(٢) السيبي : ٥١٤/١١٢٠.. سمع الحديث وروى عنه الخليفة المقتفي تولى النظر في مخزن المسترشد وكان كثير الصدقة متعهداً لأهل العلم وخلف مالاً وقفه على مكة والمدينة .

ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٢١٩

(٣) أبو الغنائم : ٥١٧/١١٢٣ . هومحمد بن أحمد ابن محمد المهتدي . الخطيب العدل . سمع الحديث وكان شيخاً ذا هيئة جميلة وصلاح ظاهر، موصوفاً بالصدق والصلاح . ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص.٢٤٨ .

(٤) عز الملك بن نظام الملك : كان شريباً خميراً لا يصيب رأياً ولا يحسن تدبيراً ، معروفاً بالقصور والعجز والتواني . كانت علامته « أحمد الله وأشكره » .

البنداري : تاريخ دولَة آل سلجوق ص ٨٢ .

(٥) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٨٢ .

(٦) الغزالي : ٥٠٥/١١١١ : هو محمد بن محمد ابن محمد بن أحمد حجة الاسلام . زين الدين أبو حامد الطوسي الفقيه الشافعي . لم يكن في آخر عصره مثله . صنف في الفروع والأصول ودرس بنظامية بغداد , ثم ترك الرياسة والتدريس وتزهد ورحل إلى الشام وبيت المقدس وهناك صنف كتاب « إحياء علوم

والإمام أبو بكر الشاشي[١] وابن عقيل[٢] ، فبايعوا المستظهر وجلسوا في العزاء .

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشر محرم خرج تابوت المقتدي ، فصلى عليه المستظهر ، وكان عمره يوم البيعة ست عشرة سنة وشهرين ، وكانت علامته « القاهر بالله » ثم أرسل إلى غزنة[٣] وما وراء النهر[٤] وكرمان[٥] والشام لأخذ البيعة .

٦ ـ أخلاق المستظهر

كان كريم الاخلاق لين الجانب ، سخي النفس ، مؤثراً للإحسان ،

= الدين » على مذهب الصوفية . ثم قصد الإسكندرية وأراد أن يذهب إلى يوسف بن تاشفين صاحب مراكش فبلغه نعيه فعاد إلى وطنه طوس وبنى مدرسة ورباطاً للصوفية وداراً وتشاغل بحفظ القرآن وله كتب عديدة في مختلف فروع المعرفة .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٦٩ ـ ١٧٠

الصفدي : **الوافي بالوفيات** ج ١ ص ٢٧٤ ـ ٢٧٦

فروخ : **تاريخ العلوم عند العرب** ص ٢٨٦

(١) أبو بكر الشاشي : ١١١٣/٥٠٧ . هو ابو بكر بن أحمد بن الحسين بن عمر الشاشي الأصل ، المعروف بالمستظهري . كان فقيه وقته على مذهب الشافعي دخل بغداد ولازم الشيخ أبا إسحاق الشيرازي حتى انتهت إليه رياسة الطائفة الشافعية . صنف كتاب « حلية العلماء » وسماه المستظهري نسبة للخليفة المستظهر . درس في النظامية . كان مهيباً وقوراً ورعاً .

ابن خلكان : **وفيات الأعيان** ج ٤ ص ٢١٩ ـ ٢٢١

الأسنوي : **طبقات الشافعية** ج٢ ص ٨٦ ـ ٨٧ .

(٢) ابن عقيل : ١١١٩/٥١٣ . هو علي بن محمد ابن عقيل . أبو الوفاء . فريد دهره وإمام عصره . تعمق في دراسة العلوم والآداب والفنون المعروفة في عصره . صنف في الفروع والأصول الكتب الكبيرة وأشهرها كتاب « الفنون » كان حنبلياً ، تقياً ، زاهداً ، كريماً .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٢١٢ ـ ٢١٥

(٣) غزنة : مدينة عظيمة وهي الحد بين خراسان والهند .

ياقوت : **معجم البلدان** ج ٤ ص ٢٠١

(٤) ما وراء النهر : يراد به ما وراء نهر جيحون بخراسان وهي بلاد الهياطلة ومنها بخارى وسمرقند والصفد .

ياقوت : **معجم البلدان** ج ٥ ص ٤٥ ـ ٤٧ .

(٥) كرمان : تقع بين فارس ومكران وسجستان وخراسان جنوبها بحر فارس .

ياقوت : **معجم البلدان** ج ٤ ص ٤٥٤ .

حافظاً للقرآن ، محباً للعلم ، منكراً للظلم يحب اصطناع الناس ويفعل الخير ويسارع إلى أعمال البر والمقربات ، مشكور المساعي لا يرد مكرمة تطلب منه ، وكان كثير الوثوق بمن يوليه غير مصغ إلى سعاية ساع ، ولا ملتفت إلى قوله ، ولم يعرف منه تلون وانحلال عزم ، بأقوال أصحاب الأغراض .

وكان حسن الخط جيد التوقيعات لا يقاربه فيها أحد يدل على فضل غزير وعلم واسع[1] .

وكان جميل السيرة متصفاً بالعدل والانصاف ناهياً عن قصد الجور والاعتساف ، سمحاً جواداً ، هيناً ليناً ، حسن المعشر ، قد حسن الله خلقه وخلقه وبره وأدبه ، وجهه أبيض مشرب حمرة تام الطول لطيف المحاسن ، نقش خاتمة « ثقتي بالله وحده » يحب العلماء والصلحاء ، كبير الهمة سهل العريكة[2] .

يوم أصبح المستظهر خليفة ، فوض أموره إلى وزيره عميد الدولة بن جهير وأطلق يده في خزائن المال يتصرف بها كيف يشاء بغير مراجعة ولا محاسبة ؛ بهذا التفويض أصبحت مسؤولية تنفيذ الأعمال بمدينة بغداد منوطة بالوزير مباشرة[3] . ولكن رغم هذا كان المستظهر يشرف بنفسه على أعمال تعود بالنفع على رعيته ، وإذا كان موصوفاً بحسن الخلق فإن التسامح والكرم من أحسن الصفات التي تميزت بها سيرته . ففي سنة ٤٨٧ / ١٠٩٤ ، قبض صاحب المخزن على مطرز حبس عنده أربع عشرة جبة طلساء تزيد قيمتها على خمسمائة دينار ، تعود إلى المخزن ، وبعد ثلاث سنوات اكتشف أمره بعد أن باعها وتصرف بثمنها بسبب حاجته ، وعندما رفع الأمر إلى المستظهر انتظر المسؤولون أن يصدر حكمه بقطع يد هذا الرجل لكنه لم يفعل بل قال : « الذنب للراعي إذا نعس لا للذئب إذا اختلس » ثم أمر بالإفراج عنه[4] .

---

(١) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٨١ ، ٨٢ .

(٢) ابن الكازروني : **مختصر التاريخ** ص ٢١٥

(٣) ابن طباطبا : **الفخري** ص ٣٠٠ .

(٤) ابن الجوزي : **المنتظم** ص ٨٢ ـ ٨٣ .

٧ ـ أدب المستظهر

كان المستظهر إلى جانب حفظه للقرآن الكريم يمتلك موهبة أدبية جيدة ، يصفه ابن الكازروني قائلاً : « كان من أفصح الناس لساناً وأحسنهم نظماً »[١] .

فهو شاعر فصيح بليغ ومن أشعاره :

أذاب حر الجوى في القلب ما جمدا	يوماً مددت على رسم الوداع يدا
فكيف أسلك نهج الاصطبار وقد	أرى طرائق في مهوى الهوى قددا
قد أخلف الوعد بدر شغفت به	من بعد ما قد وفى دهري بما وعدا
إن كنت أنقض عهد الحب في خلدي	من بعد هذا فلا عاينته أبدا[٢]

هذا النوع من الشعر يمثل لوحة التكلف والتصنع التي كانت سائدة في هذه الفترة ، أما أقواله فتدل على نضج أدبي وعلى فهم رفيع المستوى ومنها :

ذخائر المرء لدنياه ذكر جميل ولآخرته ثواب جزيل . شح المرء بفلسه من دناءة نفسه . البذل من شيم الأكارم والضن صفات الآثم . الصبر على الشدائد ينتج الفوائد . أدب السائل أنفع الوسائل . بضاعة العامل لا تخسر وربحها يظهر في المحشر[٣] .

أما رسالته الى زين الملك أبي سعد هندو بن محمد[٤] فتعطينا صورة عن مدى تمكنه من صناعة الكتابة وقد غلب عليها التكلف والسجع . أما نص الرسالة فهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لك يا زين الملك من شريف الارتقاء ما

---

(١) ابن الكازروني : **مختصر التاريخ** ص ٢١٥ ـ حسن خليفة : **الدولة العباسية** ص ٢٢٩

(٢) الاصبهاني : **خريدة القصر وجريدة العصر** ص ٢٨

(٣) الأربلي : **خلاصة الذهب المسبوك** ص ٢٧٠ ابن الكازروني : **مختصر التاريخ** ص ٢١٦

(٤) مستوفي ديوان السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي ، قتله الأمير كاميار في سنة ١١١٢/٥٠٦ بأمر السلطان إذ كان يكثر الطعن عليه وعلى الخليفة .
الأصبهاني : **خريدة القصر وجريدة العصر** ص ٢٨

يزلفك إلى الحسنى في العاقبة والأولى وما أبديته من خبايا الإخلاص فهو يقتفي عطايا الاختصاص والسكون إلى ولائك مستدام يبقى على مرور الأيام والثقة بطاعتك مشتهرة عند الخاص والعام ومع هذه الأسباب والأواخي فما نقنع منك بالإغفال والتراخي والله يعلم أن الشفقة على السيرة الغياثية أمر قد ظهر حكمه وتم وقد قيل « نبه لها عمراً ثم نم » وفي هذه الإشارة مقنع مع خلوص عقيدتك يا زين الملك وأنت أجدر بالمذاكرة بما يجمع بين الأجر والثواب وجميل الذكر المستطاب والله عنده حسن الثواب » .

٨ ـ وفاة المستظهر

بدأت به علة التراقي فمرض ثلاثة عشر يوماً وتوفي ليلة الخميس السادسة والعشرين من ربيع الآخر سنة ١١١٨/٥١٢ وكانت مدة حياته إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وسبعة أيام ، وخلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً ، ثم غسله أبو الوفاء بن عقيل وابن السيبي وصلى عليه الإمام المسترشد بالله ودفن في الدار ثم أخرج في رمضان[١] .

ومن غريب الإتفاق أنه لما توفي السلطان ألب ارسلان توفي بعده القائم بأمر الله ، ولما توفي السلطان ملكشاه ، توفي بعده المقتدي بأمر الله ، ولما توفي السلطان محمد توفي بعده المستظهر[٢] .

ثانياً ـ الوزارة في عهد المستظهر

تأثر منصب الوزير إلى حدٍ كبير بالظروف السياسية والاقتصادية التي مرت فيها الدولة السلجوقية والخلافة العباسية . لقد ترتب على وجود وزير للسلطان السلجوقي ووزير للخليفة ، حدوث احتكاك بينهما وكان وزير السلطان أكثر نفوذاً وسلطة من وزير الخليفة ، وبلغ من نفوذ وزير السلطان السلجوقي أن جهر بعدائه لوزير الخليفة وأخذ يتدخل في تعيينه وعزله ، وهذا ضعف من المستظهر

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٢٠٠

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٥٣٥ .

نفسه . ففي سنة ٤٩٣/١٠٩٩ ، بعث مؤيد الملك بن نظام الملك وزير السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه إلى الخليفة المستظهر بالله يطلب عزل وزيره عميد الدولة بن جهير فتم له ما أراد[١] .

وكان المستظهر يختار وزيره بناء على معرفته للشخص المرشح للوزارة وثقته فيه نتيجة لما قدمه من خدمات للدولة تثبت كفايته لهذا المنصب ، وبناء لترشيح من السلطان السلجوقي ، وإذا استقر رأي الخليفة على إسناد منصب الوزارة إلى شخص معين أمر باستدعائه إلى دار الخلافة وفي اليوم المقرر لمراسم التعيين يحضر الشخص المرشح ومعه كبار رجال الدولة مثل قاضي القضاة وصاحب المخزن وكاتب الإنشاء وحاجب دار الخلافة فيبلغ الخليفة المرشح للوزارة مشافهة باختياره وزيراً له ويخلع عليه خلع الوزارة وتشمل جبة وعمامة وسيفاً ومركباً وفرساً ويسلم إليه العهد بالوزارة ، ثم يركب الوزير من دار الخلافة إلى مقر الوزارة والناس بين يديه وبينهم كبار رجال الدولة وعندما يجلس في دست الوزارة يقرأ كاتب الانشاء عهد الخليفة له بالوزارة ويختتم الحفل بقراءة ما تيسر من القرآن وإنشاد ما نظمه الشعراء في هذه المناسبة من مدائح[٢] .

مهمة الوزير ومرتبه ولقبه

إن مهمة الوزير كما يعرضها ابن الوردي تشمل أربعة أعمال رئيسة :

- الدفاع عن الملك من أوليائه (الرعية) .
- والدفاع عن المملكة من الأعداء .
- ودفاع الوزير عن نفسه من الأكفاء .
- والدفاع عن الرعية من خوف واحتلال .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٩٨ - ٢٩٩
الزهراني : نظام الوزارة في الدولة العباسية ص ١١٩ - ١٢٠

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٤٩
الزهراني : نظام الوزارة في الدولة العباسية ص ١٢٦ - ١٢٧

ومن صفات الوزير : الإقدام على اجتلاب المنافع والإقدام على دفع المضار وعليه أن يكون حذراً من الله والسلطان والزمان وغلبة الأعداء كما عليه أن يتصف بالعدل والاحسان والعدل يشمل الأموال والأقوال والأفعال[1] .

أما مرتب الوزير العباسي في أيام المستظهر فقد بلغ مائة ألف دينار في السنة ونائب الوزير يتقاضى عشرة آلاف دينار في السنة ، إلى جانب الهبات والإقطاعات التي يحصل عليها من الخليفة أو من السلطان[2] .

وكان وزير الخليفة يلقب بألقاب متعددة ، هبة الله بن المطلب لقب بأبي المعالي[3] وعلى العموم لم يكن في أيام المستظهر للوزارة كبيرأبهة ،وقد توالى على هذا المنصب :

١ ـ الوزير عميد الدولة محمد بن محمد بن محمد بن جهير ٤٩٣/ ١٠٩٩

هو الذي تولى أخذ البيعة للإمام المستظهر من السلطان وسائر أرباب الدولة واستمر وزيراً له بعد أبيه المقتدي ، ثم فوض إليه الأمور كلها ووضع الخزائن بتصرفه .

وفي سنة ٤٩٣/١٠٩٩ عزله المستظهر بضغط من وزير السلطان وصادر أمواله البالغة خمسةً وعشرين ألف دينار وقبض عليه وعلى أخوته زعيم الرؤساء أبي القاسم وأبي البركات بن جهير الملقب بالكافي وتوفي محبوساً في دار الخلافة[4] .

٢ ـ الوزير الأعز أبو المحاسن عبد الجليل بن محمد الدهستاني ٤٩٥/ ١١٠١

استوزره السلطان بركيارق ولقبه نظام الدين .

---

(١) ابن الوردي : قوانين الوزارة ص ١٢٣ ، ١٢٤٠ ، ١٤٥ ، ١٦١

(٢) الزهراني : نظام الوزارة في الدولة العباسية ص ١٣٠

(٣) أمين : نظام الحكم في العصر السلجوقي . مجلة سومر بغداد ص ٢١٥

(٤) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٨٢ .

وفي سنة ٤٩٤/١١٠٠ ، جدد عمارة ديوان الخليفة فقربه المستظهر منه وخلع عليه خلع الوزارة ولم يلبث عنده طويلاً لأن السلطان طلبه إليه[١] .

يمدحه ابن الأثير فيقول : كان الدهستاني كريماً واسع الصدر حسن الخلق كثير العمارة وكان حسن المعاملة مع التجار[٢] .

أما البنداري فله فيه رأى مخالف ، يقول عنه :

لم يكن له أثر محمود ولا يوم في الكفاية مشهود بل تفاقم شره إلى أن أخرج أملاك الناس في الاقطاع ، وكان في الظلم مستطيل اليد طويل الباع ، ولم تطل أيامه فإنه بقر بطنه باطني على باب أصفهان[٣] .

٣ ـ سديد الملك أبو المعالي بن عبد الرزاق الأصبهاني

تولى وزارة المستظهر في رمضان سنة ٤٩٥/١١٠١ وخدم فيها حوالي عشرة شهور .

ذكر ابن الهمذاني في التاريخ إنه لما استدعي إلى حضرة الخليفة حين أفيضت عليه خلع الوزارة غلبه الحصر فقال تاج الرؤساء ابن الموصلايا للخليفة :

المفضل بن عبد الرزاق يخدم ويقول : كما قال الله تعالى ﴿ ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك ﴾ . ثم أنشدت له بيتين بأصفهان :

قل للوزير وكلهم جذلان لا تشتموا فوراءه الحدثان
الملك بعد أبي علي لعبة يلهو بها النسوان والصبيان[٤]

سنة ٤٩٦/١١٠٢ ، في منتصف رجب قبض على سديد الملك وحبس في دار الخلافة وكان محبسه جميلاً وسبب عزله جهله بقواعد ديوان الخلافة ،

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٢٠

(٢) الكامل ج ١٠ ص ٣٣٦ .

(٣) تاريخ دولة ال سلجوق ص ٨٧ .

(٤) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٣١

فإنه قضى عمره في أعمال السلاطين وليس لهم هذه القواعد ، وبعده عاد أمين الدولة بن الموصلايا إلى النظر في الديوان .

وقبل أن يسجن كان يسكن في دار عميد الدولة بن جهير ويستمع الى وعظ المؤيد عيسى الغزنوي وإلى أناشيد الناس ومنها :

سديد الملك سدت وخضت بحرا عميق اللج فاحفظ روحك
وأحيي معالم الخيرات واجعل لسان الصدق في الدنيا فتوحك
وفي الماضي معتبر فأسرج مروحك في السلامة أو جموحك

ثم قال سديد الملك من شرب من مرقة السلطان احترقت شفتاه ولو بعد زمان ثم أشار إلى الدار وقرأ :

﴿ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم ﴾ (سورة إبراهيم ـ آية ٤٥) فقبض عليه بعد أيام[١] سنة٤٩٧/١١٠٣ثم أطلق من الاعتقال وهرب إلى سيف الدولة ثم إلى بركيارق الذي سلمه الإشراف على ممالكه[٢] .

٤ ـ نظام الدين زعيم الرؤساء علي بن محمد بن محمد بن جهير : ٥٠٨/١١١٤

أبو القاسم ويلقب بالزعيم كان في أيام القائم وبعض أيام المقتدي متولياً كتابة ديوان الزمام ووزر للمستظهر نوبتين فبقي في الوزارة الأولى ثلاث سنين وخمسة أشهر وأياماً وولي بعده أبو المعالي بن المطلب ثم عزل وأعيد الزعيم إلى الوزارة فبقي فيها خمس سنين وخمسة أشهر إلى أن توفي وتدرج في الولايات والمراتب خمسين سنة وكان معروفاً بالحلم والرزانة وجودة الرأي وحسن التدبير[٣] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣ .
(٢) ابن الأثير : المصدر نفسه ص ٣٧٧ .
(٣) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٨٢ .

٥ ـ أبو المعالي هبة الله بن محمد بن المطلب : ٥٠٣/ ١١٠٩

بعد عزل أبي القاسم علي بن جهير استدعى المستظهر سنة ٥٠٠/١١٠٦ ، أبا المعالي هبة الله إلى دار الخلافة وشافهه بالتعويل عليه وتقدم بافاضة الخلع عليه وخرج إلى الديوان وقرأ أبو الحسين بن رضوان عهده وهو من انشاء ابن رضوان نفسه .

وفي أول محرم سنة ٥٠١/١١٠٧ جددت الخلع المستظهرية على الوزير أبي المعالي هبة الله ووصل إلى الخليفة وشافهه بما رفع قدره ولم يصل معه إلاّ أبو القاسم بن الحصين صاحب المخزن[١] ، إلاّ أن الخليفة اضطر إلى عزله في نفس السنة بضغط من السلطان الذي أعاده إلى الوزارة مرة ثانية وشرط عليه شروطاً منها تحقيق العدل وحسن السيرة وان لا يستعمل أحداً من أهل الذمة[٢] .

كان رجلاً كافياً من كفاة الدولة العباسية وكان قبل الوزارة يتولى ديوان الزمام . حدث عنه بعض أصحابه قال :

دخلت يوماً إليه قبل الوزارة وهو صاحب ديوان فرأيته مفكراً مضطرب الخاطر فسألته عن السبب فقال : كنت قد أنهيت إلى المستظهر في السنة الخالية اجتهادي في عمارة البلاد وضبطي للارتفاع وتثميري للحاصل وقلت قد حصل في هذه السنة إثنا عشر ألف كر[٣] ، وفي السنة المستقبلة يحصل عشرون ألف كر ، فخرج جوابه يشكرني ويثني علي وشرفني بشيء من ثيابه فسررت وقلت : هذه ثمرة الاجتهاد ، ثم جردت همتي للعمارة وانبعثت بجهدي وطاقتي في عمارة المستقبل فاتفق أن انفجر بثق[٤] فتلف من الارتفاع شيء كثير وجرت أحوال أخرى اقتضت خفوق الارتفاع بحيث نقص عن ارتفاع السنة الخالية جملة ، فكتبت مطالعة إلى الخليفة أعرفه فيها بخفوق الارتفاع وذكرت له كمية

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٤٩ ، ١٥٥

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٥٤ .

(٣) كر : قياس للمواد اليابسة في العراق تساوي ست حملات للحمار (قاموس كزيمرسكي) .

(٤) بثق : سد .

الحاصل ولم أشرح له السبب في نقيصة الارتفاع وقلت في نفسي : إن سألني عن السبب شرحته له فخرج جوابه الي يشكرني ويثني علي وشرفني بشيء من ثيابه كما فعل في السنة الخالية ، فقلت في نفسي يا ويلاه هذا حالي معه في حالة الاجتهاد والتقصير وقد شكرني على الحالتين المتناقضتين وهذا يدل على أنه لا يفكر في ما يقوله ويفعله ، فما يؤمنني أن بعض من هو قريب إليه من أعدائي يعرض عليه في أمري ما يكون سبباً لهلاكي فلا يتأمل القضية بل يتقدم بما يوافق غرض العدو . فقلت له يعينك الله ويقيك ما تحذر وما برحت حتى سليته وأزلت غمه.وكان أبو المعالي من علماء الوزراء وأفاضلهم وأخيارهم[1] .

كان هبة الله بن المطلب قلقاً على مصيره ، فهو خائف من تغير المستظهر عليه لقاء دسيسة أحد أعدائه المنافسين له ؛ لأن هذا الوزير اكتشف من خلال احتكاكه بالخليفة إمكانية تقلبه وقد حدث ذلك مع من سبقه من الوزراء .

٦ ـ نظام الدين أبو منصور الحسين بن محمد : ربيب الدولة ٥١٣/ ١١١٩

سنة ١١١٣/٥٠٧ تولى وزارة المستظهر بعد وفاة علي بن جهير[2] . في هذه الأثناء شغر منصب وزارة السلطان محمد وكان أرباب المناصب يسيطرون على الأمور وحتى لا يأتي وزير ينغص عليهم عيشهم ، حسنوا للسلطان طلب وزير من تربية دار الخلافة فاستدعي ربيب الدولة من بغداد إلى أصفهان وسد به المكان وكان لائقاً بتلك الدولة المريضة وكانت علامته « الحمد لله على النعم »[3] .

٧ ـ نواب الوزارة في عهد المستظهر

ظهر منصب « نائب الوزير » بشكل واضح في العهد السلجوقي وألف الناس وجوده حيث أصبح مظهراً من مظاهر تطور الوزارة في ذلك العهد ، وفي

---

(١) ابن الطقطقي : الفخري ص ٣٠٠ ـ ٣٠١

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٧٥

(٣) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص ١١٠

الحقيقة لم يكن لنيابة الوزارة هذه منصب ثابت ضمن وظائف الدولـة الكبرى كمنصب الوزير وكاتب الانشاء وصاحب المخزن وقاضي القضاة ونقيب النقباء وما إلى ذلك وإنما كان منصباً مؤقتاً وكان الخليفة العباسي يعمد إلى تعيين نائب للوزير في فترات محـددة ، وخاصة في الفترات التي تلي عزل أحد الوزراء حتى لا تتعطل أعمال الديوان الإدارية والمالية، فإذا تم اختيار وزير جديد سرعان ما يعزل نائب الوزير[1] .

كان يراعى في من يتولى نيابة الوزارة أن يكون من كبار موظفي الديوان وذلك إضافة إلى عمله الأساسي ، ومن أشهر من تولى نيابة الـوزارة في عهد المستظهر :

أ ـ أبو سعد العلاء بن الحسن بن موصلايا ٤٩٧/ ١١٠٣

كان كاتب الانشاء في الدولة المستظهرية وهو أمين الدولة ويمينها وخادمها لذلك فاز بثقة المستظهر الذي قربه وجعله نائباً في الوزارة كما كان يستشيره في كثير من الأمور لسداد رأيه[2] .

ب ـ قاضي القضاة أبو الحسن علي بن الدامغاني ٥١٣/ ١١١٩

سنة ٤٨٨/١٠٩٥ ولاه المستظهر ، قضاء القضـاة وخلع عليه ، وكـان يحمـل رسائـل الخليفة إلى الأمـراء والحكام . نـاب في الـوزارة في الأيـام المستظهرية والمسترشدية كان متديناً ذا مروءة وعفاف ، كان يتشبث بالحق ولا يقبل شفاعة أحد إلّا إنه كان فيه شيء من الكبرياء والاعتداد بالنفس ، ولا يأخذ إلّا برأي أبي حنيفة في أحكامه[3] .

٨ ـ تأديب الوزراء ومعاقبتهم

إن المستظهر كان حريصاً على إشاعة العدل ومحاسبة أرباب المسؤولية

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٤٩
(٢) الاصبهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ص ١٢٤ ـ ١٢٥
(٣) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٨٣ ـ ٢٠٨

الذين يشاركونه في تصريف أعماله ولو كانوا من أقرب المقربين إليه .

ففي سنة ١١٠٦/٥٠٠ ، أصدر الخليفة أمره بعزل الوزير أبي القاسم علي ابن جهير بسبب انحرافات وقع بها ورغم لجوئه إلى سيف الدولة في الحلة فإن المستظهر أمر بنقض داره في باب العامة التي كان والده أبو نصر بن جهير قد بناها ، والجدير بالذكر أن أبا نصر بن جهير كان قد تعدى على ممتلكات الضعفاء حين شاد هذه الدار[١] .

وفي سنة ١١٠٠/٤٩٤ ، أمر المستظهر بالقبض على عميد الدولة محمد ابن جهير وصادر أمواله ثم قتله[٢] .

هذه العقوبات ترمز إلى ناحيتين ،الأولى :حرص المستظهر على حماية مصالح الناس من تعديات الوزراء ، والثانية:أزمة الثقة التي كانت تميز علاقة الخليفة بوزرائه .

ثالثاً ـ الوظائف في عهد المستظهر ببغداد

عرفت الخلافة العباسية في أيام المستظهر مجموعة من الوظائف المهمة ويأتي في مقدمتها :

وظيفة القضاء في عهد المستظهر

شروط القضاء

حدد الفقهاء شروط القاضي وهي كما أوردها صاحب الأحكام السلطانية ، لا يجوز تقليد القضاء إلا لمن كملت فيه سبع شرائط :

الذكورة والبلوغ والعقل والحرية والإسلام والعدالة والسلامة في السمع

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٤٩ ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٣٨ ـ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ١٨٧ .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٩ .

والبصر والعلم حتى يكون من أهل الاجتهاد وعندها يجوز له أن يفتي ويقضي[1] .

أما ولاية القضاء فتنعقد بألفاظ صريحة وكناية :

فالصريح أربعة ألفاظ « قد وليتك وقلدتك واستخلفتك واستنبتك » .

أما الكناية فهي سبعة ألفاظ « قد اعتمدت عليك وعولت عليك ورددت إليك وجعلت إليك وفوضت إليك ووكلت إليك وأسندت إليك »[2] .

ويجوز أن يكون القاضي عام النظر في خصوص العمل فيقلد النظر في جميع الأحكام في محلة من البلد وقد نص الإمام أحمد بن حنبل على صحتها في مكان مخصوص[3] .

في عهد المستظهر أصبح القاضي ملزماً بأن يصدر أحكامه وفق مذهب أبي حنيفة لأن رجال الدولة السلجوقية يعتنقون هذا المذهب[4] .

وانقسم منصب القضاء إلى مرتبتين :

المرتبة الأولى : مرتبة قاضي القضاة .

إن القضاة الذين شغلوا هذا المنصب في عهد المستظهر هم :

١ ـ أبو بكر محمد الشامي ٤٨٨/ ١٠٩٥

تولى منصب قاضي القضاة في عهد المقتدي وفترة وجيزة في عهد المستظهر وقد امتاز بالعدل والزهد والنزاهة وتحرى الدقة في الأحكام ورفض أن يرتزق بالقضاء[5] .

---

(١) ابي يعلى الفراء : **الأحكام السلطانية** ص ٦٠ ـ ٦٢

(٢) أبي يعلى الفراء : المصدر نفسه ص ٦٤

(٣) أبي يعلى الفراء : المصدر نفسه ص ٦٨

(٤) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٨ ص ٢٤٥

(٥) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ .

٢ ـ أبو الحسن علي بن محمد الدامغاني ٥١٣/ ١١١٩

ولي القضاء للقائم والمقتدي وولاه المستظهر قضاء القضاة وكذلك المسترشد ، كان لا يحابي في قضائه حتى الخليفة ، كان يستعلي على العلماء المعاصرين له ويتعصب لأبي حنيفة ويقرب الأعاجم ، بقي في القضاء عشرين سنة وخمسة أشهر وأياماً[١] .

والثانية مرتبة القضاة : وأشهر من شغل هذه الوظيفة هم :

١ ـ أبو جعفر عبد الله بن محمد الدامغاني : ٥١٨/ ١١٢٤

ولاه أخوه أبو الحسن القضاء بالرصافة وباب الطاق ومن أعلى بغداد إلى الموصل وغيرها من البلاد بعد أن قبل شهادته[٢] . وفي سنة ٥٠٠/١١٠٦ رتب حاجباً للباب ولقب بمهذب الدولة وخلع عليه خلع الطيلسان[٣] وتولى أيضاً النظر في المظالم وإقامة الحدود ، وكان شيخاً جليلاً سلس الأخلاق عبقاً بالرياسة متطلعاً إلى قضاء حوائج الناس من الطراز الأول . كما سمع الحديث[٤] .

٢ ـ القاضي : أبو الفرج عبد الوهاب بن هبة الله السيبي : ٥٠٤/ ١١١٠

سنة ٤٨٨/١٠٩٥ خلع عليه ولقب بشرف القضاة ورد إليه ولاية القضاء بالحريم .

سنة ٤٩٤/١١٠٠ ولي قضاء باب الأزج حين مرض حاكمها أبو المعالي عزيزي ، ثم ناب عن أبي الفرج أبو سعد المخرمي ، وهو مؤدب ولد الخليفة المقتفي توفي سنة ٥٠٤/١١١٠

٣ ـ القاضي أبو العباس الرطبي : ٥٢٧/ ١١٣٢

هو أحمد بن سلامة بن عبيد الله بن مخلد بن ابراهيم أبو العباس ابن

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٢٠٨ ـ ٢١٢ .

(٢) ابن الجوزي : المصدر نفسه ج ٩ ص ٨٣ .

(٣) ابن الجوزي : المصدر نفسه ج ٩ ص ١٥٠ ، ٢٥١

(٤) ابن أبي الوفا : **الجواهر المضية** ص ٢٨٨

الرطبي الكرخي .

تفقه على أبي إسحاق الشيرازي وأبي نصر بن الصباغ وسمع الحديث ، كان قريباً من الخليفة ، سنة ٥٠١/١١٠٧ تولى الحسبة بعد عزل ابن سعد بن الحلواني .

وفي سنة ٥١٠/١١١٦ تولى القضاء بباب النوبي إلى جانب حاجب الباب وخلع عليه بعد ذلك خلعة جميلة[1] .

٤ ـ القاضي عزيز بن عبد الملك : ٤٩٤/ ١١٠٠

منصور أبو المعالي الجيلي ، كان شافعياً في الفروع ، أشعرياً في الأصول ، وكان حاكماً بباب الأزج ، وكان بينه وبين الحنابلة من باب الأزج شنان كبير ، ولهذا لما مات فرحوا بموته كثيراً[2] .

٥ ـ أبو سعد المخرمي ٥١٣/ ١١١٩

المبارك بن علي بن الحسين ، سمع الحديث والفقه وأفتى ودرس وجمع كتباً كثيرة لم يسبقه أحد إلى جمع مثلها شهد عند أبي الحسن الدامغاني وناب في القضاء عن السيبي والهروي وكان حسن السيرة ، جميل الطريقة شديد الأقضية . بنى مدرسة بباب الأزج ثم عزل عن القضاء سنة ٥١١/١١١٧ ووكل به في الديوان على حساب وقوف الترب ، ولما مات دفن إلى جانب أحمد بن حنبل[3] .

٦ ـ أبو منصور الأنباري : ٥٠٧/١١١٣

علي بن محمد بن علي ، سمع الحديث وتفقه على أبي يعلى بن الفراء وأفتى ووعظ في جامع القصر وجامع المنصور وجامع المهدي وشهد عند أبي

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٨٧ ، ١٢٠ ، ١٦٧ ، ١٨٤ . ج ١٠ ص ٣١ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٦٠

(٣) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٢١٥ ـ ٢١٦

عبد الله الدامغاني وولي قضاء باب الطاق[١] .

كتّاب المستظهر

ديوان الإنشاء هو أحد المناصب العالية التي لا يسندها الخلفاء إلا لمن أنسوا فيهم الكفاية والقدرة على معالجة الأمور ، كما كانت مقدمة إلى الوزارة إذا ما ظفر صاحبها برضا الخليفة ولا بد للكاتب أن تكون له بعد اطلاع في الأدب وقدرة في فن الانشاء وحسن الخط لأنه هو الذي يحرر الرسائل الرسمية والسياسية .

وأشهر كتّاب المستظهر :

- أمين الدولة أبو سعد العلاء بن الحسن بن وهب بن موصلايا ١١٠٣/٤٩٧ .

- وابن أخته تاج الرؤساء أبو نصر الموصلايا ٤٩٨/١١٠٤[٢] .

- أبو الفوارس الحسن بن علي الخازن الكاتب المشهور بجودة الخط . توفي سنة ١١٠٨/٥٠٢[٣] .

- الأجل أبو الحسين بن رضوان ١١١٢/٥٠٦

كان يلقب بنظام الدولة استلم ديوان الانشاء في الدولة المستظهرية بعد ابن الموصلايا ، كان خيراً صالحاً كثير الصدقة والبر . له شعر في الألغاز منه :

وقائلة هلم بغير لفظ	ولا لغة تبين من اللغات
ترى عذباتها يخفقن حينا	كما خفق اللواء على القناة[٤]
محلتها سواد القلب ترعى	جناباً منه ليس بذي نبات

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٧٦

(٢) حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ص ٤٣٤ . الصالح : النظم الاسلامية ص ٣٠٤ . خريدة القصر وجريدة العصر ص ١٣٣

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٧٤ .

(٤) الاصبهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ص ١٣٤ - ١٣٦

وهي النار ، ومن عادة العرب توقدها ليلاً للضيف والضال[١]

حجاب المستظهر

اتخذ الخلفاء العباسيون الحاجب وزادوا في منع الناس عن لقاء الخليفة إلا في الأمور الهامة وقد علت مرتبة الحاجب في عصر الدولة العباسية وخاصة في أيام المستظهر فأصبح يستشار في كثير من أمور الدولة ، وقد يستبد بالأمور دون الوزير[٢] .

والخليفة يستقبل الرعية حسب منزلتهم الاجتماعية المقربون يستقبلهم في باب الخاصة وعامة الناس في باب العامة كما يشير عليه الحاجب . وأشهر حجاب المستظهر : .

١ ـ ابن المردوسي : ٥٣٠/ ١١٣٥

ابن علي بن أبي نزار المردوسي أبو الفتح بن أبي عبد الله ، كان حاجباً عند المستظهر ثم ترك ما كان فيه وغير لباسه ولبس الصوف وتزهد[٣] .

٢ ـ أبو جعفر عبد الله الدامغاني :

تولى حجبة المستظهر سنة ١١٠٦/٥٠٠ ، ولقب مهذب الدولة ، وخلع عليه الطيلسان[٤] .

٣ ـ أبو العز المؤيدي

سنة ١١٠٧/٥٠١ عزل المستظهر أبا جعفر الدامغاني عن حجبة الباب وولى مكانه أبا العز المؤيدي[٥] .

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٧٢

(٢) حسن : تاريخ الاسلام السياسي والثقافي والديني والاجتماعي ص ٣٣٥ . الصالح : النظم الاسلامية ص ٣٠٧

(٣) كازروني : ٢١٨ ـ ابن الجوزي : المنتظم ج ١٠ ص ٦٦ .

(٤) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٥٠

(٥) ابن الجوزي : المصدر نفسه ج ٩ ص ١٥٧

صاحب المخزن عند المستظهر

وهو الذي يشرف على مالية الخليفة ، وأشهر من تولى هذا المنصب في عهد المستظهر :

١ ـ أبو القاسم بن الحصين ٥٠٥/ ١١١١

هو الحسن بن عبد الواحد ، صاحب مخزن الخليفة المستظهر بالله تمكن من الدولة تمكناً كبيراً ، وكان يولي ويعزل من الوزير فما دونه ، لأن الوظائف لم تكن محددة المعالم بل كان التداخل في الواجبات أمراً شائعاً وخاضعاً لقوة الموظف نفسه وصلته بالخليفة .

ففي سنة ١١٠٦/٥٠٠ ، عزل المستظهر وزيره أبا القاسم علياً بن جهير ثم نقض داره كل ذلك بايعاز من أبي القاسم بن الحصين .

ثم بعد ذلك استدعاه الخليفة الى باب الحجرة وخلع عليه هناك ابانة لمحله ورفعاً لمنزلته .

ويوم خلع المستظهر على الوزير أبي المعالي هبة الله بن محمد بن المطلب لم يصل معه الى مقام الخليفة إلا أبو القاسم بن الحصين صاحب المخزن ولما اشتد نفوذه قبض عليه السلطان محمد سنة ١١٠٧/٥٠١ وحمله الى القلعة بكنجة[١] وتوفي هناك[٢] .

٢ ـ يوسف بن أحمد : ١١١٨/٥١٢

أبو طاهر الخرزي ، كان صاحب المخزن للمستظهر ، وكان لا يوفي المسترشد حق التعظيم وهو ولي عهد ، فلما صار خليفة أقره مديدة ثم قبض عليه

---

(١) كنجة : مدينة عظيمة وهي قصبة بلاد أران وأهل الادب يسمونها جنزة وكنجة من نواحي لرستان بين خوزستان وأصبهان .
ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٤٨٢ .

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٦٨
فهد : تاريخ العراق في العصر العباسي الاخير ص ٢٩٠ .

وصادر جميع أمواله بعد أن هلك[1] .

أصناف أموال الخزينة في عهد المستظهر

تصب في خزانة الخليفة الموارد التالية :

١ ـ المستغلات وهي مأخوذة من أموال موروثة له .

٢ ـ الجزية المفروضة على أهل الذمة .

٣ ـ أموال التركات ، وهي أموال ليس لها وارث .

٤ ـ أموال الخراج المأخوذة من أرض العراق .

مصارف الأموال

وتنفق هذه الأموال في المصارف التالية :

١ ـ كفاية المرتزقة من جند الاسلام وقد أفاض عليهم من ضروب التشريفات والانعام ما يخلد ذكره على كر الأيام .

٢ ـ كفاية علماء الدين وفقهاء المسلمين القائمين بعلوم الشريعة .

٣ ـ إلى محتاجي الخلق الذين قصرت بهم ضرورة الحال عن اكتساب قدر الكفاية .

٤ ـ في المصالح العامة من عمارة الرباطات والقناطر والمساجد والمدارس فلا ترى هذه المواضع في أيامه إلا معمورة ملحوظة بالتعاهد من القوّام والمتكلفين لها[2] .

خزانة الغلات عند المستظهر

أشهر من عمل في هذا الشأن :

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٢٠٣

(٢) الغزالي : فضائح الباطنية ص ١٨٩ ـ ١٩٠

أحمد بن الحسن الباقلاوي ٤٨٨/ ١٠٩٥

ابن أحمد بن خيرون أبو الفضل الباقلاوي ، سمع الحديث الكثير وكتبه وله به معرفة حسنة ، روى عنه أبو بكر الخطيب ، وكان من الثقات وشهد عند أبي عبد الله الدامغاني ثم صار أميناً له ثم ولي الإشراف على خزانة الغلات عند المستظهر[١] .

ديوان الزمام

أهم الذين عملوا في هذا الديوان :

١ ـ تاج الرؤساء أبو غالب بـن الاصباغي

كان بديوان الزمام في بعض الأيام المستظهرية وناب عن هذا الديوان في أيام المقتدي ، وله تصنيف في علم الكتابة ، وجماعة الحساب وكتاب الطرق يكتبون الحساب على طريقته . أسلم سنة ٤٨٤/١٠٩١ ، كان معاصراً لابني الموصلايا واضطر إلى اعتناق الاسلام لينجو من تذليل النصارى[٢] .

٢ ـ أبو الحسين بن موصلايا ٤٨٧/ ١٠٩٤

كان كاتباً في ديوان الزمام ببغداد[٣]

٣ ـ أبو الحسن علي بن صدقة : ٥٢٢/١١٢٨

تولى هذا الديوان سنة ٥٠٠/١١٠٦ وخلع عليه ولقب عميد الدولة ، وفي سنة ٥٠٣/١١٠٩ تولى عمارة بغداد بأمر من السلطان محمد بن ملكشاه ثم ارتقى به الحال فتولى وزارة المسترشد وكان ذا أدب وفضل ورأي ودهاء[٤] .

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٨٧ .
ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٤٩

(٢) الاصبهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ص ١٣٥
لويس شيخو : شعراء النصرانية بعد الاسلام ص ٢٩١

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ١٤٠ .

(٤) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٥٠ ، ١٦٣ .
العماد الحنبلي : شذرات الـذهب ج ٤ ص ٦٦ .

الحسبة في عهد المستظهر

الحسبة هي أمر بالمعروف اذا ظهر تركه ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله ؛ وهي واسطة بين أحكام القضاء وأحكام المظالم ، ومن شروط المحتسب أن يكون خبيراً عدلاً ذا رأي وصرامة وخشونة في الدين وعلم بالمنكرات الظاهرة وهو مأجور عليها بمرتب يقبضه من بيت المال[1] .

أما القضاة الذين قاموا بمهمة المحتسب في عهد المستظهر فمنهم :

١ ـ أبو سعد بن الحلواني :

ولاه المستظهر حسبة بغداد ثم عزله منها سنة ١١٠٧/٥٠١

هو يحيى بن علي بن الحسن الحلواني البزار بن سعد ، كان من أئمة الفقهاء الشافعية ، صنف كتاباً سماه «التلويح في المذهب» ولي حسبة بغداد ثم عزل عنها وولي التدريس بالنظامية وسمع الحديث أرسله المسترشد الى الخاقان محمد بن سليمان صاحب ما وراء النهر ليفيض عليه الخلع ، فتوفي هناك بسمرقند[2] .

٢ ـ أحمد بن سلامة بن عبيد الله بن مخلد بن ابراهيم أبو العباس ابن الرطبي الكرخي ١١٣٢/٥٢٧

تولى الحسبة عند المستظهر[3] ، أرسله الخليفة سنة ١١٠١/٤٩٥ الى السلطان محمد ليكون معه في جميع مواقفه وليعلم الناس أن الامام قد ولاه جميع ما وراء بابه[4] .

---

(١) أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء : **الاحكام السلطانية** ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥

الصالح : **النظم الاسلامية** ص ٣٢٨ .

(٢) ابن الجوزي **المنتظم** ج ٩ ص ١٥٧

السبكي : **طبقات الشافعية** ج ٤ ص ٢٢٣

(٣) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ١٠ ص ٣١

(٤) ابن الجوزي المصدر نفسه ج ٩ ص ١٣١

٣ ـ محمد بن المبارك : ٤٩٤/ ١١٠٠

ابن عمر أبو حفص بن الخرقي القاضي المحتسب ، كان حافظاً للقرآن صارماً في حسبته ، ولي الحسبة سنة ثلاث وسبعين ، وكان المتعيشون يخافونه ومنع قوام الحمامات أن يمكنوا أحداً من الدخول بغير مئزر وتهددهم بالاشهار[١] .

٤ ـ أبو منصور بن الصباغ : ٤٩٤/ ١١٠٠

أحمد بن محمد بن عبد الواحد ، سمع الحديث والفقه وشهد عند قاضي القضاة أبي عبد الله الدامغاني وكان ينوب في القضاء بربع الكرخ عن القاضي أبي محمد الدامغاني ، وولي الحسبة بالجانب الغربي ، وكان فاضلاً في الفقه وكان يصوم الدهر ويكثر الصلاة .

منصب الشحنة

هي وظيفة سلجوقية جديدة ويعين صاحبها من قبل السلطان ، وهو يتمتع بسلطات عسكرية وإدارية وهو مسؤول عن ادارة المدينة والمحافظة على أمنها واستقرارها ويلاحق الخارجين على النظام ويراقب تحركات الخليفة والقوى الأخرى ببغداد[٢] .

وكثيراً ما كان الشحنة يتجاوز حده ويقوم بأعمال تعسفية ، ومنهم من كان يهتم بتطوير العمران والاقتصاد[٣] .

وفي بعض الأحيان كان الشحنة يتدخل في مساندة سلطان ضد سلطان آخر ؛ وبلغ من نفوذ الشحنة أن شارك الخليفة المقتدي في امتيازاته ، فأمر

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٢٩ .

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٧٧ ، ١٢٥ .
ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٥ ، ٣٥٧ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٩٦ .
ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٤٢ .

بضرب الطبول على بابه في أوقات الصلوات بالرغم من احتجاج الخليفة على ذلك[1] .

إن أهم الأتراك الذين شغلوا هذا المنصب في عهد المستظهر هم :

١ - سعد الدولة كوهرائين : ٤٩٣/ ١٠٩٩

من الخدم الأتراك ، أرسله جلال الدولة ملكشاه برسالة الى القائم بأمر الله فجلس له وأعطاه عهد جلال الدولة وأقطعه ملكشاه واسط ، وكان قد جعل إليه شحنكية بغداد نال دنيا واسعة وكان ليناً عادلاً[2] .

٢ - الأمير ايلغازي بن أرثق : ٥١٦ / ١١٢٢

ابن اكسب نجم الدين التركماني صاحب ماردين ، كان من أمراء تتش صاحب الشام واستولى على حلب بعد موت أولاد تتش وعلى ميافارقين ، كان فارساً شجاعاً كثير الغزو كثير العطاء[3] ، تولى شحنة بغداد سنة **٤٩٥/١١٠١** وجرت له فتن فيها بسبب ظلم عسكره ، وكان موالياً للسلطان محمد مما أدى الى وقوع معارك بينه وبين أتباع بركيارق أدت الى خسائر في الأرواح والممتلكات[4] .

٣ - أق سنقر البرسقي ٥١٩/ ١١٢٥

أبو سعيد الغازي الملقب قسيم الدولة سيف الدين صاحب الموصل[5] والرحبة[6] وتلك النواحي ، ولاه السلطان محمد شحنكية بغداد سنة **٤٩٨/١١٠٤**

---

(١) ابن الاثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٢٨٩

(٢) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١١٦

(٣) الذهبي : **العبر في خبر من عبر** ج ٤ ص ٣٦ .

(٤) ابن الاثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ .

(٥) الموصل : هي باب العراق ومفتاح خراسان ومنها يقصد الى أذربيجان .
ياقوت : **معجم البلدان** ج ٩ ص ٢٢٣

(٦) الرحبة : قرية بحذاء القادسية على مرحلة من الكوفة على يسار الحجاج إذا أرادوا مكة .
ياقوت : **معجم البلدان** ج ٣ ص ٣٣ .

وفي سنة ١١١٣/٥٠٧ حين قتل الأمير مودود بالشام خرج بأمر من السلطان فملك الموصل ودفع الفرنج عن حلب وهو من كبار السلجوقية ، قتله الباطنية في مقصورة جامع الموصل وكان موصوفاً بالخير والدين وحسن العهد[١].

٤ ـ بهروز بن عبد الله : ٥٤٠/ ١١٤٥

أبو الحسن الخادم الأبيض الغياثي ، كان يلقب بمجاهد الدين ، ولي العراق نيفاً وثلاثين سنة وعمر دار السلطان وسد البثق ببغداد ، وكان ابن عقيل يقول : مارأيت مثل تناقض بهروز فانه منع أن يجتمع في السفينة النساء والرجال وجمع بينهم في الماخور .

دفن في رباطه على شاطىء دجلة ، كان صاحب همة في عمل المصالح الجليلة وعمارة البلاد ، واسع الصدر في البذول والانفاقات والمطاولة والمراجعة إذا امتنع عليه الغرض[٢] .

ولاية النقابة على ذوي الأنساب في عهد المستظهر

وهي موضوعة على صيانة ذوي الانساب الشريفة عن ولاية من لا يكافئهم في النسب ولا يساويهم في الشرف ليكون عليهم أرضى وأمره فيهم أمضى .

وإذا أراد الخليفة أن يولي على الطالبيين نقيباً وعلى العباسيين نقيباً ، تخير منهم أجلهم بيتاً وأكثرهم فضلاً وأجزلهم رأياً ، ليجمع شروط الرياسة والسياسة فيسرعوا الى طاعته وتنفيذ أمره[٣] .

وأشهر النقباء الذين تولوا هذا المنصب في عهد المستظهر :

١ ـ طراد بن محمد نقيب العباسيين : ٤٩١/ ١٠٩٧

كان يحضر مجلسه جميع المحدثين والفقهاء وولي نقابة العباسيين بالبصرة

---

(١) ابن الاثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٣٩٦ .
ابن خلكان : **وفيات الاعيان** ج ١ ص ٢٤٢
(٢) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ١٠ ص ١١٧
ابن خلكان : **وفيات الاعيان** ج ٧ ص ١٤٢
(٣) ابو يعلى محمد بن الحسين الفراء : **الأحكام السلطانية** ص ٩٠ .

ثم انتقل إلى بغداد وترسل من الديوان العزيز الى الملوك وساد الناس رتبة ورأياً[١] .

٢ ـ المعمر بن محمد نقيب الطالبيين : ٤٩٠/ ١٠٩٦

ولي النقابة اثنتين وثلاثين سنة وثلاثة أشهر ، وتولى مكانه بعد وفاته ابنه أبو الفتوح حيدرة ولقب بالرضى ذي الفخرين[٢] .

٣ ـ حيدرة بن المعمر : ٥٠١/ ١١٠٧

ابن عبد الله أبو الفتوح العلوي ، نقيب الطالبيين ، كان عفيفاً متشاغلاً بالعلوم غزير الأدب مليح الصورة . مدة ولايته في النقابة اثنتا عشرة سنة وثلاثة أشهر ، تولى بعده أخوه أبو الحسن علي بن المعمر[٣] .

٤ ـ علي بن طراد : ٥٣٨/ ١١٤٣

ابن محمد بن علي بن أبي تمام الزينبي ويكنى أبا القاسم ، ولاه المستظهر نقابة النقباء وخلع عليه ولقبه الرضا ذا الفخرين وهي ولاية أبيه ، ثم وزر للمسترشد والمقتفي ، خرج مع المسترشد لقتال الأعاجم وبعد قتل المسترشد أشار بالمقتفي ووزر له ثم هرب منه الى السلطان[٤] .

كان صدراً مهيباً نبيلاً . كامل السؤدد بعيد الغور دقيق النظر ذا رأي ودهاء وإقدام[٥] .

صاحب العمارة في عهد المستظهر

يقصد بالعمارة الإشراف على المشاريع العمرانية ، وكان يتولى هذا المنصب أحد الرجال الكبار في الدولة السلجوقية ومنهم في عهد المستظهر :

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٠٦
(٢) ابن الجوزي : المصدر نفسه ج ٩ ص ١٠٤
(٣) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٥٨ ـ ١٥٩
(٤) ابن الجوزي : المصدر نفسه ج ١٠ ص ١٠٩
(٥) العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج ٤ ص ١١٧

١ ـ محمد بن الحسن البلخي :

فوض إليه السلطان محمد سنة ١١٠٤/٤٩٨ أمر العمارة ببغداد[١] .

٢ ـ بهروز الخادم : ١١٤٥/٥٤٠

في سنة ١١٠٨/٥٠٢ فوض إليه السلطان محمد عمارة دار المملكة ببغداد وملاحظة الأعمال بالعراق فحفر السواني وعمر القناطر فرخصت الأسعار وبنى رباطاً للصوفية قريباً من النظامية[٢] .

٣ ـ عميد الدولة أبو علي بن صدقة : ١١٢٨/٥٢٢

سنة ١١٠٩/٥٠٣ عندما دخل السلطان محمد بغداد عزل ابن قضاعة عن عمارة بغداد وولى مكانه عميد الدولة بن صدقة أبو علي ، كان حسن السيرة جميل الطريقة متواضعاً ، محباً لأهل العلم مكرماً لهم وله شعر حسن ، تولى وزارة المسترشد[٣] .

العميد

من المناصب التي عرفت في زمن السلاجقة ، يعين من قبل السلطان ، يشرف على كل العراق ووظيفته ادارية ، وقد يتعاون مع الشحنة في تصريف الأمور وخاصة في أيام الفوضى والاضطرابات ، مقرة في مدينة بغداد ، ومن مهامه عمارة البلاد وجباية الأموال ومراقبة الخليفة وحاشيته[٤] .

وأهم من تولى هذا المنصب في أيام المستظهر هم :

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٤٣
(٢) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٥٩
(٣) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٦٣ ـ ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٦٥٣ .
(٤) فاضل الخالدي : الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق ص ٢٥٤ .
أمين : نظام الحكم في العصر السلجوقي . مجلة سومر بغداد ص ٢٢١ .

١ ـ العميد محمد الجوزقاني :

خرساني المولد والأصل ، كان متعصباً لمذهب أبي حنيفة ، متشدداً في معاملة الناس ، يمتاز بالمكر والدهاء[١] .

٢ ـ العميد المهذب ابو المجد الدهستاني :

حين جاء إلى بغداد سنة ٤٩٥ / ١١٠١ من قبل السلطان بركيارق قبض عليه الأمير ايلغازي الموالي للسلطان محمد[٢] .

٣ ـ العميد أبو المحاسن عبد الجليل بن علي بن محمد الدهستاني :

تولى وزارة بركيارق وبعد أن أسره السلطان محمد في معركة سنة ٤٩٣/١٠٩٩ ، جعله عميداً على بغداد[٣] .

خاتمة

تمتع المستظهر بمجموعة من الصفات الحميدة والأخلاق الحسنة ؛ كان يحب العدل ويؤثر الاحسان والجود ويكره الظلم ، وكان يقرب العلماء وهذا الأمر ساهم في دفع الحركة العلمية إلى الأمام ، وكان حافظاً للقرآن ، وعنده موهبة أدبية وشعرية .

حرص المستظهر على اختيار وزرائه من أهل الخبرة والمعرفة في تصريف أمور الناس فمنهم من حقق نجاحاً في عمله ومنهم من أخفق ، وكان المستظهر يخضع لرغبة السلطان في اختيار وزرائه وعزلهم ؛ وهذا الأمر كان يشكل تحدياً لإرادة الخليفة العباسي ، وأكثر وزراء المستظهر تعرضوا للعقوبة بسبب الضغوط السلجوقية ، ومن التطورات البارزة في منصب الوزارة ظهور منصب نائب الوزير الذي كان يتولى أمر الديوان في حال خلوه من وزير أصيل .

---

(١) الاصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٩٧ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٥١ .

(٣) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١١٢ ـ ١١٣

ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥

إن الوظائف العديدة التي شهدتها أجهزة الخلافة تشير إلى نوع من الحكم الذاتي داخل مدينة بغداد وإلى نوع من الاستقلال في تصريف أمور الناس والسهر على أمنهم وراحتهم ، لكن السلطان السلجوقي كان في الوقت نفسه يشرف على سير الأحداث ويراقب أعمال الخليفة من خلال الشحنة والعميد اللذين كانا يتدخلان في كل صغيرة وكبيرة .

الفصل الثاني

علاقة المستظهر بالقوى الخارجية

مقدمة

بعد ان تعرفنا على أحوال المستظهر الشخصية وأوضاع وزارته والوظائف التي عرفتها أجهزة الخلافة ببغداد ، ننتقل الآن إلى دراسة موقف المستظهر من القوى السياسية التي برزت في عهده ، وتركت آثارها في مدينة بغداد خاصة ، وفي العالم الاسلامي عامة .

وقد تم تقسيم البحث إلى خمس نقاط رئيسة :

- علاقة المستظهر بسلاطين السلاجقة .
- علاقة المستظهر بأمير الحلة .
- علاقة المستظهر بالمرابطين .
- موقف المستظهر من الحملات الصليبية .
- موقف المستظهر من الحركة الباطنية .

تولى المستظهر أمر الخلافة في وقت كان الصراع على أشده بين ورثة ملكشاه من أجل السيطرة على العرش السلجوقي ، وقد نتج عن تلك الحروب خراب ودمار في البلدان السلجوقية حتى انتشر الجوع وكثرت الأوبئة .

كان المستظهر يتفرج على تلك الحروب ويستقبل كل فاتح لبغداد وقد أصابه كثير من أذى السلاطين إلا أن علاقته بالسلطان محمد بن ملكشاه امتازت

بالمودة والاحترام المتبادلين مما جعل بغداد تنعم بفترة من الاستقرار والازدهار .

وعلاقة المستظهر **بأمير الحلة** كانت تمتاز بالثقة المتبادلة وان كان صدقة بن مزيد قد أعطى ولاءه للمستظهر فانه تمتع باستقلال داخلي في بلده ، حتى ان الخليفة كان يستنجده في أوقات الأزمات الداخلية .

أما **المرابطون** الذين حكموا المغرب العربي فقد أعلنوا ولاءهم الديني للخلافة العباسية وطلب يوسف بن تاشفين العهد من المستظهر ، وقامت بين الطرفين علاقات روحية وثقافية طيبة وهذا الأمر أعطى قوة لمركز المستظهر ببغداد وخارجها .

وحين قام **الصليبيون** باحتلال الساحل السوري وسيطروا على بيت المقدس ، انتشر الغضب في نفوس الناس بسبب الموقف الضعيف الذي وقفه المستظهر وسلاطين السلاجقة .

أما **الحركة الباطنية** فقد شكلت تحدياً عسكرياً وعقائدياً للدولة السلجوقية وللخلافة العباسية ؛ فالسلاجقة تكفلوا بالقضاء على الباطنية عسكرياً والمستظهر طلب من الغزالي أن يرد فكرياً على عقيدة الباطنية ويدحضها بالحجة والبرهان .

أولاً - صراع سلاطين السلاجقة وموقف المستظهر منهم

كانت الدولة السلجوقية في عهد المقتدي تخضع لسلطان واحد هو ملكشاه حيث وصلت الى قمة قوتها وامتدادها وخطب له من أقصى بلاد الترك الى أقصى بلاد اليمن[1] .

وبعد وفاته بدأت مرحلة من الصراع المرير بين أولاده الأربعة ، حول عرش السلطنة كما أن أخاه تتش بن ألب ارسلان اسهم في مآسي هذا الصراع ومحنه ، لأنه يرى نفسه الأحق بوراثة العرش السلجوقي[2] ، وخطب له على

---

(١) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٧٠ .　　(٢) ابن الاثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٢٤٤

منابر الشام والفرات وبغداد[1] .

أما أولاده الذين كانوا يتصارعون من أجل السيطرة على مقاليد الحكم في الدولة السلجوقية فهم : بركياروق[2] ومحمد[3] وسنجر[4] ومحمود[5] .

---

(١) ابن العديم : **تاريخ حلب** ج ٢ ص ١١٨
القلقشندي : **مآثر الانافة في معالم الخلافة** ج ٣ ص ١٢ ـ ١٣

(٢) بركياروق : ٤٨٧ ـ ٤٩٨/١٠٩٤ ـ ١١٠٤
توفي السلطان بركيارق بن ملكشاه سنة ٤٩٨/١٠٩٤ وكان قد مرض بأصبهان بالسل والبواسير فلما اشتد مرضه خلع على ولده ملكشاه وعلى الأمير اياز وأحضر جماعة من الامراء وأعلمهم انه قد جعل ابنه ولي عهده في السلطنة وجعل الأمير اياز أتابكه .
وكان في طريقه إلى بغداد حين وافته المنية فعاد به جنده الي أصبهان . ولما توفي بركيارق كان عمره خمساً وعشرين سنة ، ومدة وقوع اسم السلطنة عليه اثنتي عشرة سنة واربعة أشهر ، واختلفت به الأحوال بين رخاء وشدة ولم يهزم في حروبه غير مرة واحدة ، وكان أمراؤه قد طمعوا به للاختلاف الواقع ، وكان متى خطب له ببغداد وقع الغلاء وكان أهلها مع ذلك يحبونه ، وكان حليماً كريماً صبوراً عاقلاً كثير المداراة حسن القدرة لا يالغ في العقوبة .
ابن الاثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٣٨٠ ـ ٣٨١ .
أما الصوفي فيقول عنه : كان أشقى سلاطين السلاجقة ، وكل أيامه كانت حروباً ومنازعات .
الصوفي : **تاريخ دول الاسلام** ج ١ ص ١٠٤
وطلس يصفه بالفساد وسوء الادارة . طلس : **تاريخ العرب** ص ١٤٦ .
كما كان ملازماً للشرب ، وفي أيامه بدأت الدولة السلجوقية بالانحلال . حتّي : **تاريخ العرب المطول** ج ٢ ص ٥٧٥ ـ ٥٧٦ .
واتهمه محمد الخضري بعشرة الصبيان . **تاريخ الامم الاسلامية (الدولة العباسية)** ص ٤٣١
وكان توقيعه عبارة « اعتمادي على الله »
الراوندي : **راحة الصدور وآية السرور** ص ٢١٤ .

(٣) السلطان محمد بن ملكشاه : ٤٩٨ ـ ٥١١/١١٠٤ ـ ١١١٧
هو أبو شجاع محمد بن ملكشاه بن ألب ارسلان ، الملقب غياث الدين ، هو وسنجر من أم واحدة ، كان رجل الملوك السلجوقية وفحلهم وله الآثار الجميلة والسيرة الحسنة ، والبر بالفقراء والايتام والحرب للطائفة الملحدة والنظر في امور الرعية .
ابن خلكان : **وفيات الأعيان** ج ٥ ص ٧١ ـ ٧٢ .
كان عمره حين وفاته سبعاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر وستة أيام . لقي من المشاق والأخطار ما لا حد له فلما توفي أخوه بركيارق صفت له السلطنة ، وعظمت هيبته وكثرت جيوشه وأمواله .
اجتمع الناس عليه اثنتا عشرة سنة وستة أشهر ، وكان عادلاً شجاعاً ، اطلق المكوس والضرائب في جميع البلاد التي دانت له .
ابن الاثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٥٢٥ ـ ٥٢٧ .
وكان حريصاً على نشر الاسلام في أطراف البلاد السلجوقية ، وعلى شواطىء بحر الخزر ، والرسالة التي بعث بها إلى أهالي بعض الثغور هناك تدل على اهتمامه الديني والسياسي ، =

ورغم العلاقة الحسنة التي كانت قائمة بين المستظهر وسلاطين السلاجقة فإنه لم يتمكن من تحقيق أي نوع من الاستقلال ولو في إدارة شؤون مدينة بغداد الداخلية كما أنه وقف متفرجاً أمام النزاعات العنيفة التي عصفت بوحدة البيت السلجوقي ولم ينتهز الفرصة السانحة كي يحقق لنفسه شيئاً من القوة والسيادة ، إلا أن هيبته قويت في عهد السلطان محمد بن ملكشاه . ففي سنة ١٠٩٤/٤٨٧ حين أسند أمر الخلافة إلى المستظهر كان السلطان بركيارق ببغداد فركب عميد

وحبه واكرامه لمن يعتنق عقيدة التوحيد ، وعمل كل ما في جهده لارجاع السطوة للدولة السلجوقية بعد الضعف الذي حل بها من جراء الانقسامات والحروب .

الصفدي : **تاريخ دول الاسلام** ج ١ ص ١٠٦

إلا أنه لم يكن موفقاً في اختيار كبار مملكته في الاعمال المهمة فكثرت الاضطرابات في البلاد .

ستشتسجفسكا : **تاريخ الدولة الاسلامية** ص ٣٤١ .

كان يكره الظلم ويمنع امراءه من ممارسته في الرعية . الخضري : **تاريخ الأمم الاسلامية (الدولة العباسية)** ص ٤٣٣ .

ولعله مات بسم دسه له أحد أنصار الحشاشين .

بروكلمان : **تاريخ الشعوب الاسلامية** ص ١٤١

وكان توقيعه عبارة « استعنت بالله » .

الراوندي : **راحة الصدور وآية السرور** ص ٢٣٤ .

(٤) سنجر بن ملكشاه : ١١٥٧/٥٥٢

هو أبو الحارث واسمه أحمد ولد بسنجار في بلاد الجزيرة في رجب سنة تسع وسبعين واربع مائة حين توجه أبوه إلى غزو الروم ونشأ ببلاد الخزر وسكن خراسان واستوطن مرو وكان قد دخل إلى بغداد مع أخيه السلطان محمد على أمير المؤمنين المستظهر بالله فحكى هو قائلا : لما وقفنا بين يديه ظن أني أنا السلطان فافتتح كلامه معي فخدمت وقلت يا مولانا السلطان هو وأشرت إلى أخي ففوض إليه السلطنة وجعلني ولي العهد بعده بلفظه . فلما توفي السلطان محمد لقب سنجر بالسلطان واستقام أمره في الحكم ، وكان مهيباً كريماً رفيقاً بالرعية ، وكانت البلاد آمنة في زمانه فجلس على سرير الملك احدى وأربعين سنة وكان قبلها في ملك وسلطنة نحواً من عشرين سنة ولم يملك احد من الخلفاء والسلاطين هذه المدة وخطب له على اكثر منابر الاسلام وروى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ١٠ ص ١٧٨

(٥) السلطان محمود بن ملكشاه : ١٠٩٤/٤٨٧

كانت أمه قد عقدت له الملك وأنفقت بسببه الأموال ، قاتله بركيارق فكسره ولزم بلده أصبهان فمات بها وحمل إلى بغداد فدفن بالتربة النظامية ، كان من أحسن الناس وجهاً وأظرفهم شكلاً ، وحين ماتت أمه تركان خاتون انحل نظامه وفرط عقده .

ابن كثير : **البداية والنهاية** ج ٢ ص ١٤٨

الدولة باكراً إليه وأخذ منه البيعة للخليفة[1] كما أرسل المستظهر الخلع والتقليد بدوره إليه[2] .

ومن جديد أراد تاج الدولة تتش أن يفرض سيطرته على عاصمة الخلافة ويأخذ البيعة من المستظهر لذلك أرسل سنة ١٠٩٥/٤٨٨ الأمير يوسف بن آبق التركماني[3] شحنة إلى بغداد فدخلها وأراد نهبها فاستعد له الناس وحملوا السلاح وتحارسوا وقبل أن يبدأ بتنفيذ مخططه حمل إليه أخوه أخبار المعركة التي جرت قرب الري[4] بين تتش وبركيارق وأدت إلى مقتل تتش وهزيمته . عندئذ تخلصت بغداد من شره فتركها راحلاً إلى حلب[5] .

وما كاد بركيارق يستريح بعد قتل عمه تاج الدولة تتش بن ألب ارسلان ، حتى برز له منافس أشد صلابة ومراساً هو أخوه السلطان محمد الذي سيطر على بلاد أرّان[6] واتخذ وزيراً له مؤيد الملك[7] عبيد الله نظام الملك العدو اللدود

---

(١) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٨٢ .

(٢) ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٢٢٩

(٣) يوسف بن آبق التركماني : **١٠٩٦/٤٨٩**
أرسله تتش شحنة لبغداد من قبله ، فحاول صدقة بن مزيد صاحب الحلة أن يقف في وجهه ، وعندما دخل بغداد أراد نهبها ، ولكن فاجأه خبر موت تتش فانسحب إلى حلب ، وهناك قتله المجن وهو صاحب الأحداث وله أتباع كثيرون .
ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٢٤٤ ، ٢٥٥ .

(٤) الري : مدينة مشهورة من أمهات البلاد ، كثيرة الفواكه والخيرات وهي محط الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبل ، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخاً وإلى قزوين سبعة وعشرون فرسخاً .
يقاوت : **معجم البلدان** ص ١١٦

(٥) ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٢٤٤ - ٢٤٥

(٦) أران : تشمل كنجة وبرذعة وشمكور وبيلغان .
ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ١٣٦

(٧) مؤيد الملك عبيد الله بن نظام الملك : **١١٠٠/٤٩٤** .
كان مصرفاً للسيف والقلم ، عارفاً بلغتي العرب والعجم . ولم يكن في أولاد نظام الملك أكفى منه ، وكان أوحد العصر ، بليغاً في النظم والنثر ، نظم أمور بركيارق حين تولى وزارته سنة **١٠٩٤/٤٨٧** ، كانت علامته «الحمد لله على نعمه» قاتل تتش وحقق النصر لبركيارق ، ثم اعتقل وحبس وخرج إلى السلطان محمد وتقرب منه وجعله وزيره وشجع محمد بن ملكشاه على طلب السلطنة فخرج على أخيه وأخذ أصفهان وقبض على الخاتون زبيدة وخنقها .
وفي سنة **١١٠٠/٤٩٤** جرت وقعة بين محمد وبركيارق أسر فيها مؤيد الملك وقتل .
كان نحيلاً سيء السيرة مع الأمراء إلا أنه كان كثير المكر والحيل في اصلاح أمر الملك . =

لبركيارق ، ثم أعلن نفسه سلطاناً سنة **١٠٩٨/٤٩٢** وخطب لنفسه وضرب بالطبل ، وهكذا بدأت مرحلة من المعارك بين الأخوين ، مزقت وحدة البلاد السلجوقية وأتت على اقتصادها وخيراتها بعد أن حل فيها الدمار والخراب ، وقد نالت بغداد نصيبها من هذه النكبات لأنها مقصد كل متسلط حتى يكسب حكمه صفة الشرعية أمام العامة .

ولما اشتد أمر السلطان محمد ، وأجتمعت إليه النظامية سار اليه سعد الدولة كوهرائين من بغداد بعد أن استوحش من السلطان بركيارق ، واجتمع به في مدينة قم[١] وخلع عليه وعاد إلى بغداد ، ثم خاطب الخليفة بقطع خطبة بركيارق والخطبة للسلطان محمد فأجابه المستظهر إلى ما أراد بغير مناقشة ، وأطلق على السلطان لقب غياث الدنيا والدين[٢] .

أراد بركيارق ان ينتقم من كل بلد أعطى ولاءه للسلطان محمد لذلك أطلق لعسكره العنان في نهب واسط والحلة اثناء سيره الى بغداد سنة **١٠٩٩/٤٩٣** كي يؤدب سعد الدولة كوهرائين الذي هرب إلى النهروان .

وهكذا عادت الخطبة للسلطان بركيارق من جديد ، والخليفة سارع فأرسل وزيره عميد الدولة كي يقوم بمراسم الاستقبال وفرح الاطفال والنساء بقدومه كما أنفذ إليه الخليفة هدية تشتمل على خيل وسلاح .

ورغم الحفاوة التي أحيط بها بركيارق فقد أقدم على استفزاز الخليفة واهانته وذلك حين وصل إليه عميد الدولة حاملاً الخلع المستظهرية فألقى القبض عليه مطالباً بالأموال التي جمعها هو وأبوه من ديار بكر والجزيرة والموصل في أيام جلال الدولة ملكشاه ، وحين وصل الخبر إلى الخليفة كتب إلى السلطان كتاباً

= البنداري : **تاريخ دولة آل سلجوق** ص ٨٣ - ٨٥ .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٢٩

(١) قم : مدينة ايرانية فيها أماكن مقدسة عند الشيعة .

(٢) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٠٩ - ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

مشحوناً بالعتب والتهديد والغلظة وقال فيه :

« فلا يغرك امساكنا عن مقابلة الفلتات فوحق السالف من الآباء المتقدمين بحكم رب السماء لئن قصر في أن يعاد شاكراً وبالحباء موفوراً لنفعلن » .

وهكذا حين رأى بركيارق غضب الخليفة وتشدده أطلق سراح عميد الدولة بعد أن أخذ منه مئة وستين ألف دينار[1] .

وفي شهر رجب سنة ٤٩٣/١٠٩٩ اندلعت معركة عنيفة بين السلطان بركيارق والسلطان محمد على مقربة من همذان[2] أسفرت عن هزيمة بركيارق الذي التقى بعد ذلك مع أخيه سنجر وحقق عليه نصراً محدوداً .

ثم أرسل السلطان محمد الأعز أبا المحاسن عبد الجليل بن علي بن محمد الدهستاني عميداً إلى بغداد ، وطلب من المستظهر أن يعيد إليه الخطبة فأجابه إلى ما أراد[3] .

ويبدو ان مؤ يد الدولة وزير السلطان محمد كان حانقاً على بني جهير ، لذلك أمر العميد أبا المحاسن أن يتصل بالخليفة حتى يعزل وزيره عميد الدولة ويأخذ أمواله التي بلغت خمسة وعشرين ألف دينار . ونفذ الخليفة الأمر وسجن ابن جهير بدار الخلافة حتى وفاته .
وهكذا كان المستظهر يتلقى الأوامر حتى من وزير السلطان الذي يستبد بشؤون الخلافة وأعمالها الصغيرة .

لم يكن للمستظهر أي نوع من التقدير والاحترام في نفس بركيارق فحين خلع المستظهر على أبي المحاسن عبد الجليل بن محمد الدهستاني وأسند إليه منصب وزارته في صفر سنة ١١٠٠/٤٩٤ ، أرسل بركيارق كتاباً إلى الوزير

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١١١ - ١١٢
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٩٣ - ٢٩٤

(٢) همذان : أكبر مدينة بالجبال وهي من بلاد ايران اليوم .
ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ٤١٠

(٣) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١١٢ - ١١٣ ،
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٩٤ - ٢٩٥

يستدعيه إليه فسارع إلى ذلك في جمادى الآخرة تاركاً ديوان الخليفة[1] .

ويشتد الصراع سنة ٤٩٤/١١٠٠ ويلتقي عسكر السلطان بركيارق والسلطان محمد في منطقة خوزستان[2] وينهزم السلطان محمد ويقع وزيره مؤيد الملك في الأسر ويقتله بركيارق بيده .

على أثر الهزيمة التي حلت بالسلطان محمد عقد صلحاً مع أخيه سنجر وسارا سوياً إلى دامغان وخرباها مع البلاد التي وقعت تحت سيطرتهما حتى حل الغلاء والجوع في تلك الأصقاع وأكل الناس بعضهم بعضاً[3] .

أما بركيارق فقد دخل إلى بغداد التي أعطت ولاءها لأخيه السلطان محمد فأرسل الخليفة امين الدولة بن الموصلايا في الموكب لاستقباله ثم دخل بعده ابنه ملكشاه بن بركيارق واستقبله أهل المناصب ، وصارت الخطبة على منابر بغداد له للمرة الثانية ، وفي يوم الاضحى من هذه السنة بعث الخليفة منبراً للسلطان فنصب في دار المملكة وجملاً للأضحية وحربة للنحر ، وكان بركيارق مريضاً ، ورغم كل هذا التكريم الذي لاقاه السلطان فإنه فرض على المستظهر أن يدفع له خمسة آلاف دينار[4] لكي يصرفها على عسكره ، ولم يكتف عسكر بركيارق بذلك بل مدوا أيديهم إلى أموال الناس وعم ضررهم[5] .

في الوقت الذي كان فيه أهالي بغداد يعانون من إزعاج عسكر بركيارق وصل إليهم السلطان محمد وأخوه سنجر وانحاز بركيارق إلى الجانب الغربي حيث جرت اشتباكات بين الطرفين على جانبي دجلة ، ثم انسحب بركيارق إلى واسط التي نهبها عسكره ونزل السلطان محمد بدار المملكة وسنجر بدار سعد

---

(١) ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٢٩٨ - ٢٩٩
ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١١٤ ، ١٢٠

(٢) خوزستان : تقع بين فارس والبصرة وواسط وجبال أصبهان .
ياقوت : **معجم البلدان** ج ٢ ص ٤٠٤

(٣) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٢٣
ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٣٠٥

(٤) أما القلقشندي فيقول أن بركيارق أخذ من المستظهر خمسين ألف دينار .
مآثر الانافة في معالم الخلافة ج ٣ ص ١٢ - ١٣ .

(٥) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٢٣ - ١٢٤
ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٣٠٧ .

الدولة ، وفي الخامس والعشرين من جمادى الآخرة قطعت خطبة بركيارق وخطب للسلطان محمد واستبشر الناس به خيراً اما المستظهر فقد أخرج توقيعاً للسلطان محمد يتضمن الامتعاض من سوء سيرة بركيارق ومن معه ويثني على محمد وأخيه سنجر .

وهكذا فان المستظهر يستقبل كل فاتح ويخلع عليه ويدعو له على المنابر[1] .

وعندما مكث السلطان محمد في بغداد أراد المستظهر أن يتقرب منه ويحسن علاقته به فجلس له ولأخيه سنجر وعلى كتفه البردة المحمدية وفي يده القضيب وبعد أن جرت مراسم الاستقبال خلع عليهما الخلع وأمرهما بالتطاوع وقرأ عليهما الآية الكريمة :

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ (سورة آل عمران ـ آية ١٠٢)

وما أن خرج السلطان محمد وأخوه من بغداد حتى وردت الأنباء بعزم بركيارق على العودة إليها فاستدعى الخليفة السلطان محمد وقرر مناصرته ، وأمر بالاحتراز والاستعداد وجمع السفن .

وفي شهر ربيع الأول من سنة ١١٠١/٤٩٥ وقع الصلح بين الأخوين على ان يكون السلطان بركيارق والملك محمد وان يضرب له ثلاث نوب واقتسموا البلاد بينهما ، وحلف كل واحد منهما لصاحبه بصدق الوفاء[2] .

إلا أن فترة الصلح بين الفريقين لم تطل كثيراً لأن السلطان محمد كان يشك في نوايا أخيه لذلك جرت معركة رابعة سنة ١١٠٢/٤٩٦ في الري خرج منها السلطان محمد منهزماً ، وفر إلى أصبهان حيث تحصن فيها وصبر على الحصار الذي ضربه بركيارق على المدينة من شهر ربيع الأول إلى شهر ذي

---

(١) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٠٤

حسنين : **سلاجقة ايران والعراق** ص ٩٦ .

(٢) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٣٠ ـ ١٣١

ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠ .

الحجة وأخيراً تمكن من النجاة بنفسه بعد انعدام المؤن وانتشار الجوع في جيشه ويأسه من النصر[١] . وفي شهر ربيع الأول من سنة ١١٠٢/٤٩٦ أعيدت في بغداد الخطبة لبركيارق بعد انتصاره على السلطان محمد ، وفي جمادى الآخرة من نفس السنة وقعت حرب جديدة بين الأخوين في أذربيجان[٢] أدت إلى هزيمة السلطان محمد الذي فر إلى بلاد أرمينية[٣] ، وأخذ يستعد من جديد للقاء أخيه[٤] ، حين انحاز المستظهر إلى جانب بركيارق ، تحرك سيف الدولة[٥] صدقة صاحب الحلة والموالي للسلطان محمد وشن غارات على ضواحي بغداد ، وعاث جنوده فساداً مما اضطر الخليفة إلى إرسال قاضي القضاة أبي الحسن الدامغاني وأبي نصر بن الموصلايا كي يتوقف عن هذا العمل[٦] .

كما ان ينال[٧] صاحب السلطان محمد دخل بغداد وزرع الخراب والدمار والتعدي على الأعراض والممتلكات ولم يراع حرمة للخليفة إطلاقاً ، والمستظهر غير قادر على رد العدوان أو الوقوف في وجهه ، فهو لا يملك إلاّ

---

(١) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٣٤

ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٣٣٣ - ٣٣٤

(٢) أذربيجان : اقليم واسع يمتد من برذعة مشرقاً الى أرزنجان مغرباً وشمالاً إلى بلاد الديلم والجيل ، أشهر مدنها تبريز .

ياقوت : **معجم البلدان** ج ١ ص ١٢٨

(٣) أرمينية : صقع واسع في جهة الشمال ، اليوم في تركيا .

ياقوت : **معجم البلدان** ج ١ ص ١٦٠

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٣٤

(٤) ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٣٥٩ - ٣٦١ .

(٥) سيف الدولة صدقة : ١١٠٧/٥٠١ ، هو سيف الدولة صدقة بن منصور ابن دبيس بن مزيد الأسدي ، أمير العرب وهو الذي بنى الحلة السيفية بالعراق ، وكان قد عظم شأنه وعلا قدره واتسع جاهه واستجار به صغار الناس وكبارهم فأجارهم ، كان متشيعاً ، وكان له من الكتب المنسوبة الخط شيء كثير ، كان يقرأ ولا يكتب ، كان جواداً حليماً صدوقاً كثير البر والاحسان ، وكان عادلاً ، عفيفاً ، أميناً تحبه رعيته ، وكان متواضعاً ، محتملاً ، يحفظ الأشعار ، وكان من أشد أنصار السلطان محمد الى أن دب الخلاف بينهما وقتله .

ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٣٤٥ .

(٦) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٣٤ - ١٣٥

(٧) ينال بن أنوشتكين الحسامي : ١١٠٢/٤٩٦ ، هو أحد أمراء السلطان محمد ، دخل بغداد وظلم الناس وصادر ممتلكاتهم واعتدى على العامة فأرسل اليه المستظهر قاضي القضاة أبا الحسن الدامغاني ينهاه عن ذلك ، وعندما اشتد فساده استنجد الخليفة بأمير الحلة سيف الدولة صدقة وآل أمره إلى الهروب من السلطان محمد ثم قتل .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٣٥

الكلمة ، وسواه بيده القوة والسلاح[1] .

ولما طالت الحروب وعم الفساد وصارت الأموال منهوبة والدماء مسفوكة والبلاد مخربة والقرى محرقة والسلطنة مطموعاً فيها محكوماً عليها ، وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين ، وكان الأمراء الأكابر يؤثرون ذلك ويختارونه ليدوم تحكمهم وانبساطهم ، ولما رأى السلطان بركيارق المال عنده معدوماً والطمع من العسكر زائداً ، راسل أخاه السلطان محمد باجراء الصلح سنة ١١٠٣/٤٩٧ ، ولما وافق اخوه محمد تم تحديد البلاد التي يحكمها كل سلطان ، ثم وصل إلى بغداد رسول بركيارق وأخبر الخليفة المستظهر بالصلح وسأله بإقامة الخطبة لبركيارق فأجابه الخليفة إلى طلبه وقطعت خطبة محمد .

وهكذا تجري الحروب بين المتنافسين ويتم الصلح والخليفة يتفرج وينتظر نتيجة المعركة حتى يقدم خلعه للفائز ، وفي ذي القعدة من هذه السنة أرسل الخلع إلى بركيارق والعهد بالسلطنة وحلفوا جميعاً له وتعاهدوا[2] .

بعد موت السلطان بركيارق سنة ١١٠٤/٤٩٨ ، استراح السلطان محمد من منافسه العنيد الذي نغص عليه حياته ، ولكنه أسند أمر السلطنة لابنه ملكشاه وعمره لا يزيد عن أربع سنوات وثمانية أشهر وجعل الامير أياز أتابكه ، وقد خطب له في مساجد بغداد ، ولقب بألقاب جده منها جلال الدولة[3] .

عندما وفد الخبر إلى السلطان محمد بوفاة أخيه أسرع إلى بغداد ، وكانت حاشية بركيارق وعلى رأسهم الامير اياز مصممة على قتاله ، وأخيراً اجتمع الرأي على مبايعته بالسلطنة ، وجرى الصلح بينهم وبين السلطان محمد ، ثم تخلص محمد من الامير اياز عندما شك في اخلاصه وأصبح سيد الموقف بغير

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٣٥

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٦٩ - ٣٧٠ - ٣٧١ .

ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٣٨

يدّعي كوك بأن المستظهر كان يحرك بعض سلاطين السلاجقة ضد بعضهم ، وهذا الأمر لم يحدث ولو كان صحيحاً لحاول أن يستقل بنفسه أولاً . بغداد مدينة السلام ص ١٦٣

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٨٠ ، ٣٨٢

ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٤٢

منازع[1]. لذلك سارع المستظهر فأرسل ابن جهير فخلع على السلطان محمد وقصد دار وزيره سعد الملك وحمل إليه من دار الخليفة الدست والدواة والخلع ، وكذلك السلطان محمد أراد أن يرد المعروف للمستظهر فخلع على الوزير الزعيم وأنفذ إلى كل واحد من الكتاب ثياباً وجاء سعد الملك[2] إلى دار الزعيم مسلماً وزائراً ، وهكذا كان نوع من الاحترام المتبادل بين السلطان والخليفة[3] .

استمرت العلاقة في تحسن بين السلطان والمستظهر ، ففي سنة ١١٠٧/٥٠١ ، دخل السلطان محمد إلى بغداد وقدم هدية إلى دار الخلافة تبلغ أربعين ظبياً كان قد اصطادها في طريقه وبدوره أرسل الخليفة وزيره أبا المعالي في الموكب لخدمة السلطان ومعه هدية مكونة من بعض ملابسه الخاصة ومجلدٍ بخط الخليفة يشتمل على دعاء رواه العباس عم النبي ﷺ فقام السلطان ودعا شاكراً هذا الاهتمام .

كما أرسل الخليفة إلى وزير السلطان ابن نظام الملك رسالة تتضمن مدح بيته وسلفه فقام وقبّل الأرض ودعا وشكر أيضاً[4] .

وتدخل الخليفة المستظهر في النزاع الذي نشب بين السلطان محمد وملك الحلة صدقة بن مزيد لأنه أوى سرخاب بن كيخسرو صاحب ساوة الذي فر من محمد واستجار به ، وكاد الخليفة ينجح في مسعاه للصلح وجمع الكلمة لأن كلاً منهما يثق بالخليفة ويقدره، لكن الزمام أفلت من يده قبل وقوع الصلح بقليل وذلك حين أقدم بعض عسكر السلطان على النهب فرد عليهم أعوان صدقة

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٨٨ .
ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٤٣

(٢) سعد الملك الآبي : ٥٠٠/١١٠٦ ، صلبه السلطان محمد لأنه نسبه إلى الخيانة ولأنه كان على صلة قوية بابن عطاش فأراد أن يقضي على السلطان فكشف أمره وصلب . الراوندي : راحة الصدور وآية السرور ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥

(٣) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٤٣

(٤) ابن الجوزي : المصدر نفسه ج ٩ ص ١٥٥

وجرت معركة كبيرة قتل فيها ضدقة نفسه وهو الذي كان حليفاً قوياً للسلطان محمد ، وهكذا بدأ نفوذ المستظهر يزداد شيئاً فشيئاً[1] ، حتى أن أمراء الدولة السلجوقية كانوا يتوجهون إلى المستظهر ويطلبون منه إقرارهم على إقطاعاتهم التي يسيطرون عليها ، ومن هؤلاء مسعود بن نامندار الذي بعث رسالة إلى ديوان الخلافة يلتمس من الإمام المستظهر تشريفاً ولواء بأنواع أدوار وإقطاع وعدة أملاك وضياع في مناطق جنزة[2] وبيلقان[3] ومزارع حولهما .

اغتنم المستظهر فرصة الصفاء والاحترام القائمة بينه وبين السلطان محمد فأراد أن يوثق صلته أكثر فأكثر بالبيت السلجوقي كما فعل والده سابقاً ، لذلك أرسل سنة ٥٠٢/١١٠٨ إلى السلطان يطلب اخته تركان خاتون الثانية بنت ملكشاه كزوجة له ، فاستقبل طلبه بالترحاب ، وكان الذي خطب خطبة النكاح القاضي أبو العلاء صاعد بن محمد الفقيه النيسابوري الحنفي[4] ، وكان المتولي لقبول العقد نظام الملك احمد بن نظام الملك[5] ، وزير السلطان بوكالة من الخليفة ، وكان الصداق مائة ألف دينار ونثرت الجواهر والدنانير وأُجرِيَ العقد في أصبهان[6] .

---

(١) ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٤٤١ ـ ٤٤٨ .
ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٥٦

(٢) جنزة : أعظم مدينة بأران ، وهي بين شروان وأذربيجان تسميها العامة كنجة .
ياقوت : **معجم البلدان** ج ٢ ص ١٧١

(٣) بيلقان : مدينة قرب الدربند الذي يقال له باب الأبواب ، تعد في أرمينية الكبرى قريبة من شروان .
ياقوت : **معجم البلدان** ج ١ ص ٥٣٣ .

(٤) أبو العلاء صاعد بن محمد الفقيه النيسابوري : ٥٠٢/١١٠٨
ابن عبد الرحمن أبو العلاء البخاري من أهل أصبهان سمع الحديث بها وببغداد ومكة وتفقه على مذهب أبي حنيفة وبرع حتى صار مفتي البلد ، وكان متديناً وقتل في الجامع يوم الفطر .
ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٦٠

(٥) نظام الملك أحمد بن نظام الملك : ٥٤٤/١١٤٩
أبو الحسن علي نصر ، وزر للمسترشد والسلطان محمد وقد سمع الحديث وكان من خيار الوزراء ، كانت علامته «أحمد الله تعالى على نعمه» اتصف بالدهاء والحنكة .
البنداري : **تواريخ آل سلجوق** ص ٩٤ .
ابن كثير : **البداية والنهاية** ج ١٢ ص ٢٢٦

(٦) ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٤٧١
ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٥٩ ـ ١٦٠

وفي سنة ٥٠٤/١١١٠ خرج زين الاسلام أبو سعد الهروي [١] لاستدعاء خاتون بنت ملكشاه زوجة الخليفة فدخلت بغداد ونزلت بدار المملكة عند أخيها السلطان محمد وزينت بغداد ونقل جهازها في رمضان فكان على مئة وإثنين وستين جملاً وسبعة وعشرين بغلاً ، ونصبت القباب وعلقت الزينة وعم الفرح المدينة ، وكان الزفاف ليلة العاشر من رمضان [٢] .

ويقضي المستظهر أيامه الاخيرة بعد زواجه براحة واطمئنان وينعم بالمودة القائمة بينه وبين ابن عمه السلطان محمد الذي كان يحرص على تقديم التوقير والاحترام للخليفة ويعترف برياسته الدينية ويتبرك بدعواته وثيابه وهو المشهور بالتدين والتقوى [٣] .

ففي سنة ٥١٠/١١١٦ أقام السلطان طول السنة ببغداد على مقربة من أمير المؤمنين وحين أراد الرحيل عنها قدم لصهره هدية ثمينة من الخيل والدنانير المغربية ، والثياب وأنواع العطور ، كما طلب من الخليفة شيئاً من ملبوسه ولواء ومصحفاً .

وهكذا تحولت العلاقة بين السلطان والخليفة إلى نوع من المحبة والمودة انعكست آثارها على حياة الناس ببغداد ، رفاهية ورخاء وازدهاراً [٤] .

ويأتي ذو الحجة من سنة ٥١١/١١١٧ كي يطوي صفحة مشرقة من العلاقات الطيبة التي قامت بين المستظهر والسلطان محمد الذي اشتهر بعدله وإحسانه وشدته على الباطنية ؛ ففي هذا الشهر فارق السلطان محمد الحياة بعد

---

(١) أبو سعد الهروي : ٥٣٦/١١٤١ ابن أسد من أهل هراق سكن بلخاً ، وكان أديباً ، فاضلاً عالماً باللغة ، دخل بغداد وحدث بها وقرىء عليه بها الأدب ، وهو الذي استدعى خاتون بنت ملكشاه زوجة المستظهر سنة ٥٠٤/١١١٠ . أصبح قاضياً لكل الممالك السلجوقية سنة ٥١٥/١١٢١

ابن الجوزي : المنتظم ج ١٠ ص ٩٩ ، ١٦٥ ، ٢٢٣

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٦٥ ـ ١٦٦
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٨٣ ـ ٤٨٤ .

(٣) الراوندي : راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية ص ٢٣٥

(٤) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٨٤

أن فوض أمر السلطنة الى ابنه محمود وعمره يزيد عن أربع عشرة سنة وأوصاه بالعدل والإحسان[1] .

ويأمر المستظهر بالخطبة للسلطان محمود بن محمد على منابر بغداد سنة ١١١٨/٥١٢ مستجيباً لطلبه متمنياً استمرار الثقة بينه وبين السلطان الجديد ، ولم يعكر صفو بغداد بعد تولي محمود بن محمد أمر السلطنة في عهد المستظهر سوى معركة وقعت بين الأمير منكوبرس[2] والامير أقسنقر البرسقي من أجل شحنكية بغداد ، أسفرت عن هزيمة منكوبرس ، وقد حاول المستظهر ان يتدخل في إصلاح ذات البين ولكن جهوده باءت بالفشل[3] .

شهدت البلاد السلجوقية مرحلة من الصراع المرير بين ورثة ملكشاه من أجل السيطرة على العرش السلجوقي ، وقد استمرت معارك هذا الصراع من سنة ٤٨٧ / ١٠٩٤ إلى سنة ١١٠٣/٤٩٧ ، وكان أعنفها تلك الحروب التي وقعت بين الأخوين بركيارق ومحمد والتي زرعت الدمار والخراب في عدد من مناطق السلطنة .

كان المستظهر يحرص على حسن العلاقة مع كل السلاطين لذلك كان بستقبل كل داخل إلى بغداد ويخلع عليه ويبارك عمله ، ولكن السلطان بركيارق كان يزعج الخليفة ويتعمد اساءته فقد ألقى القبض على وزيره عميد الدولة حين هب لاستقباله عند دخوله بغداد سنة ٤٩٣/ ١٠٩٩

وفي سنة ٤٩٤/ ١١٠٠ فرض بركيارق على المستظهر خمسة آلاف دينار وعثا عسكره فساداً في بغداد ، كذلك كان الخليفة يصبر على الأذى الذي يحدثه أصحاب السلطان محمد ، أمثال العميد عبد الجليل الدهستاني والامير ينال

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٥٢٥ .

(٢) الأمير منكوبرس : ١١١٩/٥١٣ ، تولى شحنة بغداد ، واستبد بالأمور بعد موت السلطان محمد ، وكان مشهوراً بالظلم ، وأخيراً لجأ إلى السلطان سنجر فسلمه إلى محمود فقتله صبراً . ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٥٥٦ ـ ٥٥٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٥٣٤ .

الذي صادر أموال الناس واعتدى عليهم ، ولكن السلطان محمد أمر بقتله . وبعد ان سيطر السلطان محمد على عرش السلطنة السلجوقية تحسنت العلاقة مع المستظهر وقامت بينهما روابط من الاحترام والقربى حتى أن المستظهر كان يدخل في حل النزاعات التي تقع بين السلطان محمد وأمرائه .

وتشتد أواصر المحبة والمودة بين المستظهر والسلطان محمد وتظهر آثارها في حياة الناس ببغداد حيث ينتشر الأمن والاستقرار ويلمس العامة العدل والمساواة .

ثانياً ـ علاقة المستظهر بأمير الحلة

كان أمير الحلة صدقة بن مزيد الأسدي الملقب بسيف الدولة على مذهب الشيعة ، وكان قد عظم شأنه وعلا قدره واتسع جاهه واستجار به صغار الناس وكبارهم فأجارهم[١] .

كان صدقة من أمراء العرب الشجعان ، يكره المنكرات ويحاربها ، وفي سنة ٤٨٩/١٠٩٥ ، كثر العبث من بني خفاجة وأتوا إلى المسجد بالحائر فتظاهروا فيه بالمنكر فوجه إليهم سيف الدولة عسكراً فكبسوهم في المشهد ، وقتل منهم خلق عند الضريح ، وكان صدقة على علاقة حسنة مع المستظهر بالله العباسي .

ففي سنة ١١٠١/٤٩٥ ، دخل سيف الدولة على الخليفة وقدم طاعته له ، فأرسل إليه الخليفة كتاباً وقد لقبه «بملك العرب» ، ولكن العلاقة بين أمير الحلة والخليفة تتوتر سنة ١١٠٢/٤٩٦ حين يستنجد وفد من العلويين بسيف الدولة الذي يسير بجيشه إلى ضواحي بغداد ويعبث فيها فساداً ويرسل اليه الخليفة وفداً مؤلفاً من قاضي القضاة أبي الحسن الدامغاني وأبي نصر بن الموصلايا كي

---

(١) ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٤٤٠ .

يتوقف عن هذه الأعمال فيحترمهما صدقة ويعد الخليفة بالطاعة وحسن الجوار[1] .

من جهة ثانية كان سيفَ الدولة يأوي وزراء الخليفة الفارين من القصاص ؛ ففي سنة ١١٠٠/٤٩٤ ، أطلق المستظهر زعيم الرؤساء أبا القاسم علي بن فخر الدولة بن جهير من الاعتقال فلجأ إلى صدقة فاستقبله وأكرمه .

وفي سنة ١١٠٣/٤٩٧ ، عندما خرج سديد الملك أبو المعالي وزير المستظهر من السجن هرب إلى الحلة السيفية ومنها إلى السلطان بركيارق فولاه الإشراف على ممالكه[2] .

ومرة ثانية يفر علي بن جهير بعد أن عزل من الوزراة سنة ١١٠٦/٥٠٠ إلى دار سيف الدولة ببغداد ومنها إلى الحلة خوفاً من انتقام الخليفة .

وفي سنة ١١٠١/٤٩٥ ، يوجه الأعز وزير السلطان بركيارق تهمة إلى تاج الرؤساء أبي سعد بن الموصلايا أنه هو الذي يؤثر على الخليفة ويجعله يميل إلى السلطان محمد ، وحتى يفر من الانتقام لجأ إلى سيف الدولة واعتزل خاله أمين الدولة الديوان وجلس في داره ، واستمرت الحال كذلك حتى قتل الوزير الأعز فترك الحلة وعاد إلى منصبه[3] .

كان موقف سيف الدولة ثابتاً من عملية الصراع القائمة بين السلطان بركيارق وأخيه السلطان محمد ، فهو أعلن مساندته للسلطان محمد وهذا ما جعل بركيارق يدخل الحلة سنة ١٠٩٩/٤٩٣ وينهبها .

وفي سنة ١١٠٠/٤٩٤ حين دخل بركيارق بغداد واستقبله الخليفة بالحفاوة فرض على سيف الدولة ألف ألف دينار فرفض أن يدفع منها شيئاً ،

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٩٧ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٢٥ - ٣٢٦ ، ٣٧٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٣٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥١

وخطب للسلطان محمد .

وفي سنة ١١٠٤/٤٩٨ حين دخل الأمير أياز أتابك بركيارق إلى بغداد ظاهره سيف الدولة بالعداوة وبقي على ولائه للسلطان محمد .

ومن العجيب أن يدفع الأمير صدقة دمه وحياته ثمناً لشهامته وإغاثته للملهوف والخائن ، ورغم ولائه للسلطان محمد فانه عندما عصى سرخاب الديلمي (صاحب ساوة وآبة) محمداً هرب منه واستجار بصدقة فطلبه السلطان فامتنع عن تسليمه فسار السلطان على رأس جيش كبير ، وجرت معركة عنيفة سقط فيها أكثر من ثلاثة آلاف قتيل من بينهم صدقة بن مزيد[١] ، وهكذا كان صدقة يتمتع باستقلال في حلته[٢] ، ويدفع ثمن هذا الاستقلال عكس الخليفة الذي كان يستقبل كل فاتح بالترحاب .

ثالثاً ـ علاقة المستظهر بالمرابطين

كانت الخلافة الفاطمية في مصر والسلطنة السلجوقية في إيران في تنافس مستمر من أجل السيطرة على البلاد الاسلامية ، ونفوذ المستظهر الديني مرتبط بامتداد حكم السلاجقة .

أما في المغرب العربي فقد سيطر المرابطون[٣] على مراكش وسواحل

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١١١ ، ١٢٤ ، ١٤٢ ، ١٥٦ ، ١٥٧

(٢) الحلة : مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد ، كانت تسمى الجامعين ، سنة ٤٩٥ انتقل صدقة بن منصور إلى الجامعين وهو موضع في غربي الفرات ، وكانت أجمة تأوي إليها السباع فنزل بها مع أهله وعساكره وبنى بها المساكن الجليلة والدور الفاخرة فصارت ملجأ وقصدها التجار فصارت أفخر بلاد العراق .
ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٢٩٤
تبعد الحلة حوالي ستين ميلاً عن بغداد ، وهي قرب أخربة بابل .
كوك : بغداد مدينة السلام ص ١٦٢ ـ ١٦٣

(٣) المرابطون : لما رأى الشيخ أبو محمد عبد الله بن ياسين شدة قبيلة لمتونة وبلائها وصبرها على جهاد البربر المشركين ، ولما أحس إقدامهم على الموت بقيادة أميرهم أبو زكريا يحيى بن عمر ، سماهم بالمرابطين وأراد أن يظهرهم ويملكهم بلاد المغرب .

المحيط الأطليسي ثم على بلاد الأندلس بعد معركة الزلاقة سنة ١٠٨٧/٤٧٩[١] ، وتمكن يوسف بن تاشفين من إقامة دولة قوية متشعبة الأطراف . هذه الدولة رفضت أن تعطي ولاءها للخليفة الفاطمي بالقاهرة بسبب اعتناقه المذهب الشيعي ، وهم سنيون حريصون على انتمائهم للخلافة العباسية[٢] .

لذلك أراد يوسف بن تاشفين أن يتقرب من الخليفة العباسي ، ويأخذ منه البيعة كي يتصف حكمه بالصفة الشرعية ، وحتى تصبح طاعته على الكافة واجبة ، وهذا الرأي أشار به فقهاء المغرب[٣] .

وقبل أن يبادر أمير المرابطين إلى الاتصال بالمستظهر نفذ في بلاده عدة خطوات ؛ فقد نقش المرابطون اسم الخليفة العباسي على السكة منذ سنة ١٠٥٨/٤٥٠ ، وكانت نقودهم تحمل اسم «عبد الله» ويقصد به الخليفة العباسي حتى لا تتغير السكة بتغير الخلفاء العباسيين ، ويدل على ذلك الرسالة التي بعث بها علي بن يوسف بن تاشفين إلى المستظهر ذاكراً لفظة «عبد الله» مع أن اسم الخليفة «أحمد» .

وبعد أن اتسعت دولة المرابطين رأى زعماؤ ها أن يتخذ أميرهم يوسف بن تاشفين لقب «أمير المؤمنين» ، ولكنه رفض هذا الاقتراح تقرباً إلى خلفاء بني العباس ، واحتراماً لهم ، وقال : «حاشا لله أن نتسمى بهذا الاسم ، وإنما يتسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة ، ولأنهم ملوك

الملثمون : هم المرابطون : من قبيلة حمير ،وكانوا قد فروا من اليمن وتلثموا وصار اللثام زياً لهم وسكنوا المغرب الأقصى ببلاد البربر .
ابن الخطيب : **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية** ص ٨ ـ ١٠

(١) ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٤١٧
القلقشندي : **صبح الأعشى** ج ٥ ص ٢٥٨

(٢) ابن الخطيب : **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية** ص ١٦
الذهبي : **العبر في خبر من غبر** ج ٣ ص ٣٥٧ .

(٣) ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٤١٧ .
اليافعي : **مرآة الجنات** ج ٣ ص ١٦٤

الحرمين مكة والمدينة وأنا رجلهم والقائم بدعوتهم»[١] .

ثم اتخذ المرابطون السواد شعار العباسيين شعاراً لهم في ملابسهم وراياتهم ، وخطبوا للخليفة العباسي على منابر بلدانهم[٢] .

وبعد ذلك أرسل يوسف بن تاشفين ، بعثة[٣] إلى المستظهر سنة ١١٠٤/٤٩٨ تحمل إليه البيعة والهدايا وكتابا يذكر فيه البلاد التي فتحها وحروبه مع الفرنج ، ثم طلبت البعثة من الخليفة أن يعقد ليوسف بن تاشفين على المغرب والأندلس وما يفتحه بالمستقبل بسيف أمير المؤمنين ، فأجابه المستظهر لما أراد ولقبه «بأمير المسلمين وناصر الدين» وسير معه الخلع واللواء ، وكتب له عهداً بذلك ، كما أن الامام الغزالي والقاضي الطرطوشي[٤] أرسلا إليه خطاباً يحثانه على خدمة الاسلام ويفتيانه في ملوك الطوائف[٥] .

وبعد وفاة يوسف بن تاشفين[٦] سنة ١١٠٦/٥٠٠ ، ملك ابنه علي بن

---

(١) ابن الخطيب : **الحلل الموشية** ص ١٦
عبد العزيز سالم : **المغرب الكبير** ج ٢ ص ٧١٧ .

(٢) سبط ابن الجوزي : **مرآة الزمان** ج ٨ ص ١٣
ابن تغري بردى : **النجوم الزاهرة** ج ٥ ص ١٩١ .

(٣) كانت البعثة تتكون من الفقيه أبي محمد بن عبد الله بن العربي ووالده .
فهد : **تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير** ص ١٢ - ١٣

(٤) الطرطوشي : هو أبو بكر محمد بن الوليد الفهري الأندلسي المالكي ، سمع الحديث ببغداد وتفقه على أبي بكر الشاشي ، كان إماماً عالماً زاهداً ورعاً متقشفاً .
الذهبي : **العبر في خبر من غبر** ج ٤ ص ٤٨

(٥) ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٤١٧ .
الذهبي : **العبر في خبر من غبر** ج ٣ ص ٣٥٧ .

(٦) يوسف بن تاشفين : ١١٠٦/٥٠٠
أبو يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتوني أمير المسلمين وملك الملثمين ، وهو الذي اختط مدينة مراكش . كان شجاعاً عادلاً مقداماً ، مال إليه ملوك الأندلس وأعطوه ولاءهم ولما أشتد ضغط الاذفونش بن فره ذلند صاحب طليطلة ملك الفرنج على بلاد الأندلس استنجدوا بابن تاشفين ، الذي هب لنصرتهم وجرت معركة الزلاقة سنة ١٠٨٦/٤٧٩ التي قابل فيها الفرنج وانتصر عليهم ، ثم نزل في اشبيلية بضيافة المعتمد بن عباد ، ثم سيطر على جزيرة الأندلس كلها . كان يميل إلى أهل العلم ويصدر عنهم ، وكان حليماً كريماً ديناً يحب العفو والصفح عن الذنوب . يقول عنه صاحب كتاب العبر في خبر من غبر : كان أكبر ملوك =

يوسف[1] بن تاشفين الـذي واصل سيـاسة والـده في موالاة الخليفة العباسي ومناصرة الشريعة الاسلامية ، وفي سنة ١١١٨/٥١٢ أرسل إليه المستظهر مرسوماً ، جواباً عن رسالة سابقة يطلب فيها عهداً من المستظهر .

وتبدأ الرسالة بحمد الله وشكره والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله ﷺ الذي حمل الدعوة الاسلامية فأنقذ الأمـة من الضلال وأنـار القلوب وأعز الدين ، ثم الصلاة على العباس عم الرسول ﷺ وذريته ، ثم يذكر مواهب الله على أمير المسلمين الذي يحكم بالحق والعدل ويحرص على مصلحة الرعية ويرد عنها نوائب الأيام .

ثم يدعو بالنصر والظفر لجيوشه على أعدائهم ، ويوافقه على جهاد الكفرة والتوسع في البلاد المحاذية لمملكته ، ثم يأمره أن يتخذ القرآن والسنة ويتمسك بالتقوى وأن يثابر على الجهاد ضد الأعداء ، وأن يدعو لأمير المؤمنين على منابر دولته يكن ظاهراً وظافراً ثم يختمها بالسلام عليه وعلى أهل الطاعة[2] .

وبقيت دعوة بني العباس قائمة في المغرب حتى انقطعت دولـة المرابطين[3] .

---

(١) أبو الحسن علي بن يوسف : ١١٤٢/٥٣٧ أمير المسلمين صاحب المغرب ، كان يرجع إلى عدل ودين وتعبد وحسن طوية وشدة إيثار لأهل العلم وتعظيم لهم ، ولما وصلت إليه كتب أبي حامد الغزالي أمر باحراقها ، وكان مستضعفاً من رؤوس أمرائه فلذلك ظهرت مناكير وخمور في دولته ، بعد وفاته تملك ابنه تاشفين

الـذهبي : العبر في خبـر من غبـر ج ٤ ص ١٠٢

(٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٣) ابن أبي السرور : بلغـة الظرفاء في ذكرى تواريخ الخلفاء ص ٦٥

الدنيا في عصـره ، دامت دولته بضعـاً وثلاثين سنة ، وكان بطلاً شجاعاً عديم الرفاهية ، تملك الأندلس ودانت له الأمم .

ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٧ ص ١١٢ - ١٢٣

الـذهبي : العبر في خبـر من غبـر ج ٣ ص ٣٥٧

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٤١٧

اليـافعي : مـرآة الجنـان ج ٣ ص ١٦٣ ، ١٧٤

كانت مدينة بغداد حاضرة العلم والثقافة في الدولة العباسية ، يقصدها رواد المعرفة من جميع أنحاء الأرض وازداد الاقبال عليها بعد انشاء المدارس وعلى رأسها المدرسة النظامية ، وكان الطلاب من بلاد المغرب والأندلس يفدون إلى هذه المدرسة والمدارس الأخرى العديدة الموجودة هنـاك ، وعندما أعطى المرابطون ولاءهم للمستظهر أصبحت العلاقة بين بلاد المغرب والأنـدلس ، وبين الخلافة العباسية على خير ما يرام ، وهذا ما شجع عدداً كبيراً من طلاب العلم كي يرحلوا إلى بغداد وينهلوا من ينابيع المعرفة الدينية والمدنية .

وكان التفاعل العلمي والثقافي بين المشرق والمغرب قد وصل إلى مرحلة متطورة جداً ، وخير دليل على هذا التفاعل الضجة الكبرى التي أحدثتها أفكار الإمام محمد الغزالي في كتابه «احياء علوم الدين» في بلاد الأندلس والمغرب إذ أن فقهاء قرطبة أنكروا أشياء على الامام الغزالي[1] .

ومنهم من بالغ في تطرفه مثل ابن حمدين الذي كفّر جميع من قرأه وعمل به وأغرى به السلطان ، واستشهد بالفقهاء فأجمعوا على حرقه ، وهكـذا أخذ علي بن يوسف بن تاشفين بفتياهم وأمر بحرق «الاحياء» بقرطبة وكتب إلى سائر بلاده يأمر باحراقه وتوالى الاحراق في بلاد المغرب .

أن حرق كتاب الاحياء كان صدمة كبيرة لتيار الصوفية الذي يقوده الإمام الغزالي ، لـذلك عندما وصلت أخبار الاحراق إليه ببغداد غضب غضباً شديداً وتغير وجهه ورفع يديه الى السماء داعياً : «اللهم مزق ملكهم كما مزقوه وأذهب دولتهم كما أحرقوه[2]» .

وإذا كان هذا مصير الاحياء في دولة المرابـطين فمن العجيب أن تكون

---

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٧٦ .

(٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٧٦

أفكار أبي حامد من الدوافع المهمة لقيام دولة الموحدين[١] على أنقاض دولة المرابطين في بلاد المغرب سنة ١١٤٦/٥٤١[٢] .

ويرحل الامام المهدي[٣] في طلب العلم سنة ١١٠٦/٥٠٠ إلى الأندلس ومنها ينطلق إلى المشرق ويقرأ على الامام أبي عبد الله الحضرمي[٤] ، وبمصر على الامام أبي الوليد الطرطوشي ، وببغداد على الامام أبي حامد الغزالي[٥] .

وقد لازم الغزالي فترة من الوقت وتأثر بآرائه التربوية والسياسية التي عبر عنها كتاب « احياء علوم الدين » واعتنق الفكرة التي تبشر بالمهدي الذي سيأتي في آخر الزمان وسيملأ الأرض عدلاً وقسطاً بعدما ملئت جوراً وظلماً ، ويبدو أن عبد الله بن تومرت كان تواقاً الى حكم بلاد المغرب فسأل الشيخ أبا حامد أن يدعو له بزوال المرابطين على يده ففعل الغزالي .

عاد بن تومرت إلى المغرب مشبعاً بأفكار أبي حامد الغزالي ، وذهب إلى بلاد المغرب الأقصى ينشر دعوته ويبشر بالمهدي المنتظر الذي سيكون من نسب رسول الله ﷺ ، ومن بلاد المغرب بالذات ، وكانت الانطلاقة الأولى لهذه الحركة سنة ١١٢١/٥١٥ عندما بايع الشيخ بن تومرت عشرة رجال من أتباعه

---

(١) الموحدون : سموا بالموحدين نسبة الى كتاب التوحيد الذي ألفه لهم أميرهم المهدي وسماه بالتوحيد بلسان البربرية وهو سبعة أحزاب على عدد أيام الجمعة ، وأمرهم بقراءة حزب واحد أثر صلاة الصبح بعد الفراغ من حزب القرآن وهو يحتوي على معرفة الله تعالى ، والعلم بحقيقة القضاء والقدر ، والايمان بما يجب لله تعالى ، وما يجب على المسلم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وآخى بينهم .

ابن الخطيب : **الحلل الموشية** ص ٨٠ .

(٢) ابن الخطيب : **الحلل الموشية** ص ١٠٥

(٣) المهدي : هو محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن ابن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن سفيان بن جابر بن يحيى بن عطاء بن رباح بن ياسر بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، كنيته أبو عبد الله ، وكان يقال لوالده تومرت ، ومعناها بلسان البربر الضياء تلقب بالمهدي لما بايعه الناس سنة ١١٢١/١١٥

ابن الخطيب : **الحلل الموشية** ص ٧٥ .

(٦) أبو عبد الله الحضرمي : ٥٨٩/ .

هو محمد بن عبد الرحمن بن محمد المالكي قاضي الاسكندرية .

الذهبي : **العبر في خبر من غبر** ج ٤ ص ٢٦٩

(٥) ابن الخطيب : **الحلل الموشية** ص ٧٥ .

على القتال والموت في سبيل الله ، وتمتد دعوته وتزداد نفوذاً يوماً بعد يوم ، ويبدأ صراعه مع المرابطين ، والذي أسفر عن القضاء عليهم سنة ١١٤٦/٥٤١[١] ، وعندما اشتد أمر دولة الموحدين تولى الخلافة فيها عبد المؤمن بن علي سنة ١١٢٩/٥٢٤[٢] .

رابعاً ـ موقف المستظهر من الحملات الصليبية

واجهت الخلافة العباسية في عهد المستظهر خطرين داهمين :

الخطر الأول جاء من الشرق على يد الحركة الباطنية التي صممت على مناهضة الخلافة العباسية عسكرياً وفكرياً .

والخطر الثاني جاء من الغرب وقد أحدثته الحركة الصليبية التي استهدفت احتلال الشرق وتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين .

حدثت الحروب الصليبية في وقت كان فيه الشرق الاسلامي يعاني من شر الانقسامات السياسية والمذهبية ؛ فالسلطنة السلجوقية تتصارع مع الخلافة الفاطمية المصرية ، وكانت بلاد الشام مسرحاً أساسياً لسباق السيطرة بين الطرفين .

أما على صعيد الدولة السلجوقية الذاتي فالأمر كان أدهى وأمر ، فقد غرق سلاطين الدولة السلجوقية بعد وفاة ملكشاه في حروب مدمرة حول عرش السلطنة ، وهذه الحروب أتت على الأخضر واليابس ، واستمرت إلى سنة ١١٠٣/٤٩٧ ، مما ترك المجال واسعاً أمام أعداء السلطنة في الداخل والخارج ، وكانت فرصة مناسبة للصليبيين الذين سيطروا على سواحل بلاد

---

(١) ابن الخطيب : **الحلل الموشية** ص ٧٧ ، ٧٨ ، ١٠٥

(٢) عبد المؤمن بن علي : هو عبد المؤمن بن علي ابن علوي بن يعلى بن مروان بن نصر بن علي بن عامر بن الأمثر بن موسى بن عبد الله بن يحيى بن ورجايع بن سطفور بن يعقوب بن ملطاط بن هودج بن نسير بن عيلان بن مضر ، كنيته أبو محمد ولقب بالخليفة أمير المؤمنين .
ابن الخطيب : **الحلل الموشية** ص ١٠٧

الشام بدون مقاومة تذكر[١] .

هذا التفكك الذي أصاب الدولة السلجوقية كان من أكبر عوامل نجاح الحملات الصليبية[٢] ، وكذلك يعتبر النظام الاقطاعي من العوامل التي أسهمت في القضاء على عظمة الدولة السلجوقية إذ انتهز أمراء الاقطاعيات اضطراب أمور البيت المالك بعد موت ملكشاه وأثاروا الحروب والقلاقل في أنحاء تلك الدولة[٣] .

عبر الصليبيون[٤] خليج القسطنطينية[٥] سنة ١٠٩٦/٤٩٠ متوجهين إلى قونية[٦] ومنها إلى انطاكية التي حاصروها مدة تسعة أشهر ، ثم فتحوها بعد أن أعملوا السيف في رقاب أهلها ، ثم انطلقوا إلى معرة النعمان[٧] وفتحوها بعد قتال شديد ، وقتلوا ما يزيد عن مئة ألف من أهلها ثم حاصروا عرقة[٨] وحمص[٩] ودخلوهما صلحاً[١٠] .

سقوط بيت المقدس

حاول الصليبيون السيطرة على عكا[١١] إلا أنها صمدت في وجههم ،

---

(١) ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣
ابن العديم : **تاريخ حلب** ج ٢ ص ١٢٧ ـ ١٢٨

(٢) حمدي : **الشرق الاسلامي قبيل الغزو المغولي** ص ١٥٧

(٣) حسن خليفة : **الدولة العباسية** ص ٢٣٠

(٤) الصليبيون : هم الجنود المسيحيون الذين كانوا يضعون إشارة الصليب على كتف سترتهم اليمنى أثناء حملاتهم تنفيذاً لتعليمات البابا أورليان ، والهدف هو النضال ضد المسلمين الذين يسيطرون على طرق الحجاج المسيحيين إلى فلسطين .
عبد السلام تدمري : **تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور** ص ٢٧٥

(٥) القسطنطينية : اسم اسطنبول وهي دار ملك الروم .
ياقوت : **معجم البلدان** ج ٤ ص ٣٤٧ .

(٦) قونية : من المدن التركية .

(٧) معرة النعمان : مدينة سورية على طريق حلب .

(٨) عرقة : مدينة في عكار .

(٩) حمص : مدينة سورية .

(١٠) ابن الأثير: **الكامل** ج١٠ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨
ابن الشحنة : **روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر موجود في ذيل الكامل** ج ٨ ص ١٨٦

(١١) عكا : مدينة تقع في شمال فلسطين على البحر المتوسط .

وعندما لم يقدروا عليها تركوها متوجهين إلى بيت المقدس ، فدخلوها في السابع من شعبان سنة ٤٩٢/١٠٩٨ ، ولبث الفرنج أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين وفي المسجد الأقصى قتلوا ما يزيد عن سبعين ألفاً فيهم جماعات كثيرة من الأئمة والعلماء والعباد والزهاد ، ونهبوا كل ما وجدوه وغنموا ما لا يقع عليه الاحصاء[١] .

كما جمعوا اليهود في كنيستهم وأحرقوها عليهم[٢] . كثير من المؤرخين تناولوا أحداث بيت المقدس ومنهم القلقشندي الذي يقول بأن الصليبيين أخذوا بيت المقدس من الخلفاء الفاطميين وقتلوا فيه ما يزيد عن تسعين ألف نفس من المسلمين[٣] ، ويؤكد طلس قول المؤرخ « كروست » بأن المسجد الأقصى تحول إلى بركة من الدماء مما جعل هذه الوقعة لطخة في تاريخ الصليبيين[٤] .

أما غود فري فقد وصف مذبحة بيت المقدس بخطاب بعثه إلى البابا ، وقد جاء فيه : « إنّ خيولنا تخوض إلى ركبتيها في بحر من دماء الشرقيين في ايوان سليمان ومعبده »[٥] .

وفي سنة ٤٩٤/ ١١٠٠ ملك الفرنج مدينة سروج[٦] من بلاد الجزيرة ، أما سكان الرها[٧] الأرمن فقد سلموا مدينتهم تسليماً ، وملكوا أيضا مدينة حيفا[٨] وقيسارية[٩] وأرسوف[١٠]. وفي سنة ٤٩٦/ ١١٠٤ حاصر صنجيل مدينة

---

(٩) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٨٣ ، ٢٨٤
ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٠٨
ابن خلدون : المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٢١

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧

(٣) مآثر الانافة في معالم الخلافة ج ٣ ص ١٥ ـ ١٦

(٤) تاريخ العرب ص ١٨٦

(٥) حمزة : أدب الحروب الصليبية ص ٣٠ .

(٦) سروج : بلدة قريبة من حران من ديار مغر .
ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٢١٦

(٧) الرها : من مدن الجزيرة ، حالياً من الأراضي التركية .

(٨) حيفا : مدينة على ساحل فلسطين .

(٩) قيسارية : على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين .
ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٤٢١ .

(١٠) أرسوف : مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا .
ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ١٥١ .

طرابلس الشام وأغاروا في السنة التالية على مرج الرقة[١] وقلعة جعبر[٢] ومع إطلالة عام ٥٠٥/ ١١١١ ، سيطر الافرنج على المدن الساحلية التالية : اللاذقية[٣] حصن أفاميا[٤] ، طرابلس ، بانياس ، حصن زردنا[٥] ، صيدا ، صور[٦]

بهذه السهولة سقطت المدن الشامية ، وأضحى الصليبيون يشكلون تحدياً صارخاً للسلطنة السلجوقية وللخلافة العباسية والفاطمية على حد سواء ، أما ردة الفعل الاسلامية لمواجهة الاحتلال الافرنجي فقد اتسمت بالتردد والضعف والتخاذل .

فيوم سقطت انطاكية بيد الفرنج ٤٩١/١٠٩٧ أصدر بركيارق أمره إلى جميع الأمراء بالتحرك لصد العدوان الصليبي ، ولم تكن العزيمة صادقة فعاد الأمراء يجرون وراءهم ذيل الهزيمة[٧]

أما الخليفة المستظهر فكل الذي فعله هو أنه أرسل أبا نصر بن الموصلايا إلى المعسكر السلجوقي بنيسابور مستنفراً على الافرنج ، وهو الذي لا يملك أكثر من الكلمة الطيبة[٨]

وبلغت النكبة أقصاها يوم سقوط القدس في يد الفرنج سنة ٤٩٢/١٠٩٨ ، ولهول الفظائع التي ارتكبها الصليبيون في بيت المقدس ، ارتجف الناس في الشام وورد فريق منهم بغداد مستنفرين بصحبة القاضي أبي سعد

---

(١) الرقة : مدينة في الجزيرة السورية .

(٢) قلعة جعبر : على الفرات مقابل صفين .
معجم البلدان ج ٤ ص ٣٩٠ .

(٣) اللاذقية : مدينة في ساحل سورية الشمالي .

(٤) حصن أفاميا : مدينة حصينة من سواحل الشام .
ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٢٢٧

(٥) حصن زردنا : بليدة من نواحي حلب الغربية .
ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ١٣٦

(٦) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٢٤ - ٤٩١

(٧) ابن الأثير : المصدر نفسه ج ١٠ ص ٢٧٦ - ٢٧٨

(٨) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٠٥
حمزة : أدب الحروب الصليبية ص ٣٢

الهروي[1] ، فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وأبكوا وبكوا .

عندئذ تحرك المستظهر وأرسل وفداً إلى العسكركي يشرح الحال وما حل بالمسلمين في القدس وبلاد الشام ، لأن سلاطين السلاجقة مشغولون عن هذه الأحداث بحروبهم الداخلية ، وقد ضم هذا الوفد خيرة رجالات الاسلام بمدينة بغداد ، وعلى رأسهم القاضي أبو محمد الدامغاني[2] ، وأبو بكر الشاشي وأبو القاسم الزنجاني[3] ، وأبو الوفا بن عقيل وابو سعد الحلواني وأبو الحسين[4] بن سماك ، فساروا إلى حلوان[5] فبلغهم قتل مجد الملك[6] البلاساني ، فعادوا من

---

(١) القاضي أبو سعد الهروي : ١١٢٤/٥١٨
هو محمد بن نصر بن منصور ، كان في بداية أمره فقيراً حتى اتصل بالخليفة وصار سفيراً بينه وبين الملوك ، وكانت له اليد الطولى في النظم والنثر ، قتله باطني بمسجد همذان . ومن شعره :

أودعكم وأودعكم جناني
وانثر دمعتي نثر الجمان
وإني لا أريد لكم فراقاً
ولكن هكذا حكم الزمان

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٥٤ - ١٥٥

ابن تغري بردي : **النجوم الزاهرة** ج ٥ ص ٢٢٨

(٢) أبو محمد الدامغاني : ١١٠٨/٥٠٢
هو عبيد الله بن محمد بن طلحة بن الحسين ، تولى القضاء بربع الكرخ سنة ١٠٧٧/٤٧٠ وكان صالحاً ورعاً عفيفاً .
ابن أبي الوفا : **الجواهر المضية** ص ٣٤١

(٣) أبو القاسم الزنجاني يوسف بن علي : ١١٠٦/٥٠٠
برع في الفقه وكان من أهل الدين وكانت له كرامات .
ابن القلانسي : **ذيل تاريخ دمشق** ص ٢١٠

(٤) أبو الحسين بن سماك : ١١٠٨/٥٠٢
محمد بن عبد القادر بن أحمد بن الحسين أبو الحسين ابن السماك الواعظ المعدل ، روى الحديث وقال بعضهم لا تحل الرواية عنه لأنه يكذب ، دفن بنهر معلى .
ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٦١

(٥) حلوان : هي في آخر حدود السواد كما يلي الجبال من بغداد .
ياقوت : **معجم البلدان** ج ٢ ص ٢٩٠ .

(٦) مجد الملك البلاساني : ١٠٩٨/٤٩٢
كان متحكماً في دولة السلطان بركيارق ، اتهم بقتل الأمير برست وتشجيع الباطنية على قتل الأمراء ، فاشترط الأمراء على بركيارق قتل مجد الملك حتى لا يفارقوه وهكذا تم ، وكان كفنه لا يفارقه سفراً ولا حضراً ، كان خيّراً كثير الصلاة بالليل ، كثير الصدقة لا سيما على العلويين وأرباب البيوتات ، وكان يكره سفك الدماء وكان يتشيع إلا أنه كان يذكر الصحابة ذكراً حسناً ويلعن من يسبهم .
ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٢٩٠

غير بلوغ أرب ولا قضاء حاجة ووقع التخاذل والهوان[1] .

وهكذا كانت تدور المعارك حامية الوطيس وأمير المؤمنين وسلطانه السلجوقي يتفرجان أزاء هذا الحادث الجلل ، ولا يبديان شيئاً من الاكتراث[2] .

في هذه الأجواء اليائسة أنشد ابو المظفر الأبيوردي قصيدته الشهيرة بدعو فيها سكان بغداد الراضين بالعيش الناعم إلى مساعدة اخوانهم في بلاد الشام الذين يسومهم الروم الهوان ويحتلون أراضيهم ، بينما هم يتفرجون من بعيد راضين أيضا بالذل .

ثم يتحدث عن الدماء التي سالت وعن الأبرياء الذين لاقوا مصرعهم من نساء وولدان ، وعن الروم كيف أعملوا سيوفهم في جماجم الناس حتى أن سكان القبور يصرخون من هول الفواجع .

ثم يذكر حال القوم الذين لا يحبون حمل السلاح دفاعاً عن الدين والمحارم ، ويفضلون السلم والقعود ولا يرغبون في الأجر ولا بالغنائم .

ويحاول إثارة النخوة العربية في نفوسهم ويدعوهم إلى الغضب والتحرك[3] ولكن دون جدوى . وقد جاء في مطلع هذه القصيدة :

وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هنوات أيقظت كل نائم
واخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ... ظهور المذاكي أو بطون القشاعمَ
تسومهم الروم الهوان وأنتم ... تجرون ذيل الخفض فعل المسالم

تمتاز هذه القصيدة بالسلاسة وقلة التكلف ، وهي من شعر الجهاد الجيد[4] والمرة الثانية التي يتعرض فيها موقف السلطان محمد السلجوقي

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٠٨
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٨٤ .
(٢) حتي : تاريخ العرب المطول ج ٢ ص ٥٧٦ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦
(٤) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٠٨

المستظهر العباسي للإحراج ، يوم ورد القاضي فخر الملك[1] ابو علي بن عمار صاحب طرابلس إلى بغداد سنة ٥٠١/ ١١٠٧ مستنفراً على الفرنج طالباً المساعدة السريعة لانقاذ المدينة التي طال حصارها ، وعظم الكرب على أهلها ، وضاقت بهم الحال ، وحمل معه هدية نفيسة للسلطان وأخرى للمستظهر ، وهذه الهدية تحتوي على كمية من الجواهر والخيل[2] .

ورغم الحفاوة التي أحيط بها فإن المساعدة التي قدمت له لم تكن على المستوى المطلوب .

وفي هذه الاثناء جمع الصليبيون قواهم وشددوا الحصار على طرابلس ففتحوها سنة ٥٠٣/ ١١٠٠ وعاثوا فيها قتلاً ونهباً .

وبلغت النقمة عند عامة الناس مداها من الموقف المتخاذل للسلطان والخليفة ، وذلك بعد سقوط مدينة صيدا بيد الفرنج وتقدمهم نحو مدينة حلب سنة ٥٠٤/ ١١١٠ فتحرك وفد من أهلها إلى بغداد مستنفرين على الافرنج أيضاً ، وهناك اجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم فقصدوا جامع السلطان واستغاثوا ومنعوا الصلاة وكسروا المنبر . أمام هذه الغضبة العارمة وعدهم السلطان بانفاذ عسكر للجهاد ، وفي الجمعة الثانية قصدوا جامع القصر مع أهل بغداد ومنعهم حاجب الباب فغلبوه ودخلوا الجامع وكسروا شباك المقصورة والمنبر وبطلت الجمعة أيضاً ، عندئذ أرسل الخليفة إلى السلطان كي يهتم بهذا الفتق ورتقه[3] .

---

(١) فخر الملك أبو علي بن عمار : ٥١٧/١١٢٣ ، تسلم حكم طرابلس في وقت كانت فيه الأحداث تتطور بشكل خطير أثر الغزو الصليبي الذي بدأ يجتاح بلاد الشام من سنة ٤٩١/١٠٩٨ وقد أشاد به الحافظ الذهبي فقال :

«كان من دهاة الرجال وأفراد الزمان شجاعة وإقداماً ورأياً وحزماً ، يمتاز بحسن التدبير وبالمكيدة والمخادعة للعدو .

عمر تدمري : تاريخ طرابلس ص ٢٧٠

(٢) الذهبي : تاريخ دول الاسلام ج ٢ ص ٢١

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٥٢ - ٤٥٣ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣

أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر مجلد أول ج ٤ ص ١٤١ - ١٤٢

وعندما سكت الخليفة عن مواجهة الاحتلال الافرنجي لبلدان الساحل الشامي ، دب حماس الجهاد في بعض أوساط العامة ، وتمكن الشيخ أبو الحسن الزاغوني[1] من قيادة جمع من الناس ، وتوجه إلى البلاد السورية لكنهم عادوا قبل أن يصلوا إلى الهدف المنشود[2] .

كانت المقاومة السلجوقية للاحتلال الصليبي هزيلة جداً ، فرغم الصدامات التي قام بها الأمراء السلاجقة منذ سنة ٤٩١/ ١٠٩٧ إلى سنة ١١١٨/٥١٢ فإن أكثرها باء بالفشل باستثناء المعركة التي قادها الامير مودود[3] سنة ١١١٣/٥٠٧ وحقق فيها نوعاً من النصر على الصليبيين في طبرية[4] ، وهذا الفشل سببه النزاعات الداخلية التي لم تنته بالغزو الصليبي بل زادت حدتها مما قضى على وحدة الموقف ووحدة القرار في الدولة السلجوقية ، وسمح للفرنج بإحكام قبضتهم على معظم السواحل السورية .

أما المقاومة المصرية فبدورها أيضاً كانت بسيطة ومحدودة ، ففي سنة ١١٠٤/٤٩٨ جرت وقعة بين الطرفين لم يحقق فيها فريق نصراً على الآخر[5] ، وفي سنة ١١١٠/٥٠٤ تمكن المصريون من استلام عسقلان وقتل واليها الذي أراد أن ينضم إلى الصليبيين[6] .

---

(١) أبو الحسن الزاغوني : ٥٢٧/ ١١٣٣ : هو علي ابن عبيد الله بن نصر بن السري الزاغوني ، ألم بعلم القراءات والحديث واللغة والنحو والفقه ، كان متفنناً في عدة علوم ، وصنف في الأصول والفروع أنشأ الخطب والوعظ ، وقد صحبه ابن الجوزي وأخذ عنه .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ١٠ ص ٣٢ .

(٢) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٦٥

(٣) الأمير مودود : ١١١٣/٥٠٧

سنة ١١١٣/٥٠٧ ، اجتمع المسلمون وفيهم الأمير مودود بن التونتكين صاحب الموصل ، لقتال الفرنج حيث جرت معركة في طبرية وانتصر المسلمون وأسروا بغدوين ملك الفرنج ثم عاد مودود إلى دمشق ليرتاح ودخل المسجد مع أمير دمشق طغتكين وعند خروجه من الصلاة وثب عليه باطني وقتله وكان صائماً يوم مات : كان خيّراً عادلاً

كتب ملك الفرنج إلى طغتكين بعد قتل مودود : «أن أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها » .

ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٤٩٥ ـ ٤٩٧ .

(٤) ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٤٩٥ ـ ٤٩٦ .

ابن الوردي : **تتمة المختصر في تاريخ البشر** ج ٢ ص ٣٦ .

(٥) ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥

(٦) ابن الأثير : المصدر نفسه ص ٤٨٠ ـ ٤٨١

تعرضت الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية في عهد المستظهر إلى صدمة جديدة فاقت الحروب الصليبية في خطرها على الصعيد الديني والسياسي والاجتماعي ، هذه الصدمة أحدثتها الحركة الباطنية التي ظهرت سنة ٤٨٣/١٠٩٠ ، بعد أن سيطر زعيمها الحسن بن الصباح[١] على قلعة في ناحية الروذناد[٢] وهي من نواحي الديلم الحصينة[٣] .

عقيدة الباطنية

كان هدف الحركة الباطنية مقاومة الديانة الاسلامية فكرياً[٤] والانتقام من السلطنة السلجوقية ، والخلافة العباسية ، بالنهب والسفك والتبسط في أموال المسلمين وحريمهم .

---

(١) الحسن بن الصباح : ٥١٨/١١٢٤ .
اصله من مرو ، كان كاتباً للأمير عبد الرزاق بن بهرام إذ كان صبياً ثم صار الى مصر وتلقى من دعاتها المذهب وعاد داعية للقوم ورأساً فيهم . كان رجلاً شهماً كافياً عالماً بالهندسة والحساب والنجوم والسحر وغير ذلك ، وكان من جملة تلاميذ ابن عطاش الذي ملك قلعة أصبهان . وكان لا يدعو إلّا غبيّاً لا يفرق بين شماله ويمينه ويطعمه الجوز والعسل والشونيز حتى يتسبط دماغه ثم يذكر له ما وقع على أهل البيت المصطفى من الظلم والعدوان ويحدثه بتقديم نفسه في نصرة امامه .
اما صاحب شذرات الذهب فيصفه بالمكر والزندقة وانه من شياطين الانس . ويعتبر الحسن الصباح العقل المدبر الذي نظم هذه الطائفة .
ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٢١
ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٣١٦ - ٣١٧ .
العماد الحنبلي : **شذرات الذهب** ج ٤ ص ٥٨ ، **القرامطة** ص ٣٧ .

(٢) قلعة الروذناد : من نواحي الديلم ، ويحد الديلم من الجنوب قزوين ومن الشرق الري وطبرستان ، ومن الشمال بحر الخزر ، ومن الغرب أذربيجان والران ، وهي سهل وجبل . والديلم تقع شمال السلسلة الجبلية التي تحد هضبة إيران العظمى يقطنها شعب قاسي مقاتل مستقل .
الاصطخري : **المسالك والممالك** ص ١٢١.
لويس : **الدعوة الاسماعيلية الجديدة** ص ٥٥ - ٥٦ .

(٣) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٢١

(٤) يقول هوتسما عن الباطنية : هي ردة فعل فارسية على التسلط التركي والاسلامي اتخذت في تكوينها طابعاً سرياً .
Houtsma. Recueil de textes relatifs à L'histoire des Seljoucides. P. 13- 14.

لذلك لا بد من التعرف على هذه الفرقة ، وعلى عقيدتها ، وتبيان بعض مبادئها وأساليبها ، والاسماعيلية هي احدى فرق الشيعة تقول بـاثبات الامـامة لاسماعيل بن جعفر[١] .

والباطنية هي إحدى فرق الاسماعيلية ، لقبوا بهذا الاسم لـدعواهم أن لظواهر القرآن والاخبار بواطن تجري في الظواهر مجرى اللب من القشر ، ومن ارتقى إلى علم الباطن انحط عنه التكليف واستراح من أعبائه[٢] .

أما عقيدتهم في الألوهية : فمؤداها أنهم يقولون بإلهين قديمين احدهما علة لوجود الثاني ، واسم العلة « السابق » واسم المعلول « التالي » ، وإن السابق خلق العالم بواسطة التالي ، وقد يسمى الأول عقلاً والثاني نفساً ، والسابق لا يوصف بوجود ولا عدم[٣] .

وعقيدتهم في النبوة : يذهبون بهـا مذهب الفـلاسفة والنبي عبـارة عن شخص فاضت عليه من السابق بواسطة التالي قوة قدسية صافية[٤] ، وجبريل هو الفعل الفائض عليه ، والقرآن هو تعبير محمد عن المعارف التي فاضت عليه من العقل (جبريل) ، هذه القوة الفائضة تنتقل من الرسول الناطق[٥] إلى الأساس الصامت[٦] .

وعقيدتهم في الامامة : لا بد في كل عصر من امام معصوم قائم بالحق يرجع إليه في تأويل الظواهر وحل الاشكالات في القرآن والأخبار والمعقولات ، وأن ذلك جار في نسبهم لا ينقطع أبد الدهر . والامام يساوي النبي في العصمة والاطلاع على حقائق الحق في كل الامور،ولا بد للامام من اثنتي عشرة حجة

---

(١) ابو حامد الغزالي : فضائح الباطنية ص ١ ، ٣ .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٤٧ ، ١٩١ ، ١٩٢

(٣) الغزالي : فضائح الباطنية ص ١٢ ، ٣٨

(٤) الغزالي : فضائح الباطنية ص ٤٠ ، ٤٢ .

(٥) الناطق : هو النبي وشريعته ناسخة لما قبله .

(٦) الصامت : ان يكون قائماً على ما أسسه غيره ثم يقوم بعد وفاته ستة أئمة .
الغزالي : فضائح الباطنية ص ٤٣ .

(داعية) متفرقين في الأمصار ، ولا بد لكل حجة من معاونين ولا بد للدعاة من رسل إلى الامام واسم الرسول (الجناح) ، ولكل نبي وصي وعلي هو وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] .

عقيدتهم في القيامة والمعاد : وقد اتفقوا عن آخرهم على إنكار القيامة ، وأن النظام المشاهد لا ينصرم أبد الدهر ، والقيامة هي رمز إلى خروج الامام السابع الناسخ للشرع .

عقيدتهم في التكاليف الشرعية : والمنقول عنهم الاباحة المطلقة ورفع الحجاب واستباحة المحظورات واستحلالها وانكار الشرائع ، ويسقط تكليف الجوارح عندما يحيط أحدهم ببواطن الظواهر[2] .

أما الأسلوب الذي اتبعه أولئك من أجل بث أفكارهم وكسب الأنصار ، فقد تركز على تسع درجات وهي كما يلي :

- **الزرق والتفرس** : ينبغي أن يكون الداعي فطناً ذكياً ، قادراً على ثلاثة أمور :

- ان يميز بين من يجوز أن يطمع في استدراجه ويوثق بلين عريكته .

- ان يرد الظواهر إلى البواطن ، واذا لم يقبل المستجيب تكذيب القرآن والسنة فينبغي أن يستخرج من قلبه معناه .

- أن يدعو كل فرد حسب هواه ومعتقده .

- **التأنيس** : أن يوافق كل من هم بدعوته في أفعال يتعاطاها ومن تميل إليه نفسه ، وأن يتظاهر بأعمال يحبها المدعو .

- **التشكيك** : زلزلة عقيدة المسلم والتشكيك بالقرآن ومعانيه .

- **التعليق** : ان يستوثق منه قبل أن يعطيه السر بعهد وميثاق ويمين .

---

(١) الغزالي فضائح الباطنية ص ٤٤ ، ٤٦ (٢) الحمادي : كشف اسرار الباطنية ص ١٩٥ ـ ١٩٦

- **الربط** : ان يربط لسانه بايمان مغلظة وعهود مؤكدة ولا يجسر على المخالفة لها بحال ، وأن يخلص للمهدي ويحفظ السر ويطيع ، وإذا أخلف فالنقمة والغضب ينصب عليه .

- **التدليس** : ويبدأ :

- التلقي من المعصومين .

- الظاهر له باطن .

- يتستر بحب الروافض وأهل البيت[1] .

في درجات حيلهم

- الحق دقيق والباطل ظاهر .

- يفشي للمستجيب أن بعض الأذكياء يعتنقون هذا المذهب وليكونوا من بلد بعيد حتى لا يتيسر له المراجعة .

- أن يمنيه بظهور شوكة هذه الطائفة وانتشار أمرهم ، ووصول كل واحد منهم إلى مراده[2] .

- ألا يطول الداعي إقامته ببلد واحد .

- التلبيس : يستدرجه من مقدمات مقبولة الظاهر إلى نتائج باطلة .

- الخلع والسلخ : الخلع هو ترك حدود الشرع والسلخ هو خلع الدين ، وهذه الرتبة هي : البلاغ الاكبر[3] .

تنظيم الباطنية

كان للباطنية تنظيم عسكري مكون من الفدائية ومن جيش يرتبط مباشرة

---

(١) الغزالي : فضائح الباطنية ص ٢١ ـ ٣٠ .

(٢) الغزالي : المصدر نفسه ص ٣١ .

(٣) الغزالي : فضائح الباطنية ص ٣٢ .

بالامام أو بنائبه في القطر .

أما الجيش فمؤلف من ثلاث فئات هي :

١ ـ الرفاق وهم قادة الجيش .

٢ ـ الفداوية : ويتكون من الشباب الذين هم في مقتبل العمر .

٣ ـ المستجيبون[١] .

الصراع الفاطمي العباسي وبروز الحركة الباطنية

اتخذ الصراع بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية من جهة ، وبين الخلافة الفاطمية في مصر من جهة أخرى أشكالاً سياسية وعسكرية ومذهبية ، وكان كل فريق يحاول نشر نفوذه بكل الوسائل المتاحة له ، وفي هذا الاطار تعتبر الحركة الباطنية أقسى ضربة وجهتها الخلافة الفاطمية للسلاجقة وللعباسيين على حد سواء ؛ وذلك عندما استمالت إليها الحسن الصباح الذي طاف البلاد ووصل إلى مصر ودخل على المستنصر[٢] فأكرمه وأعطاه مالاً وأمره ان يدعو الناس إلى امامته . فقال له الحسن : من الامام بعدك؟ فأشار إلى ابنه نزار . وعاد من مصر إلى الشام والجزيرة وديار بكر والروم[٣] ورجع إلى خراسان ودخل كاشغر[٤] وما وراء النهر ينشر دعوته ، فلما رأى قلعة الموت[٥] واختبر أهل تلك النواحي أقام عندهم وطمع في اغوائهم ودعاهم في السر واظهر الزهد فتبعه أكثرهم ثم ملك القلعة وارسل السلطان جيشاً لحصاره فلم يتمكن من تنفيذ هدفه ، أخيراً عاد الجيش

---

(١) الولي : **القرامطة** ص ٣٨ .

(٢) المستنصر : ٤٨٧/ ١٠٩٤ ، هو خامس خلفاء مصر من بني عبيد بقي في الخلافة أكثر من ستين سنة .

ابن تغري بردي : **النجوم الزاهرة** ج ١ ص ١ - ٣ .

(٣) الروم : بلاد تمتد من انطاكية إلى القسطنطينية

الاصطخري : **المسالك والممالك** ص ٥ .

(٤) كاشغر : مدينة تقع في وسط بلاد الترك .

ياقوت : **معجم البلدان** ج ٤ ص ٤٣٠

(٥) ألموت : معناها : تعليم العقاب بلسان الديلم ، وهي من نواحي قزوين وقد بناها احد ملوك الديلم .

ابن الاثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٣١٦

بعد مقتل نظام الملك[1] ، وأول بلد غلبوا عليه وتحصنوا به بلد عند قاين[2] ، واجتازت بهم قافلة عظيمة من كرمان إلى قاين فقتلوا أصحابها واستولوا عليها[3] .

الحركة الباطنية تشدد قبضتها على القلاع

واجتمع الباطنيون في مدينة ساوة[4] وهناك دعوا مؤذناً لينضم إليهم فلم يفعل فاغتالوه وتقدم نظام الملك بقتل المجرم وكان نجاراً فقتلوا نظام الملك[5] سنة ٤٨٥/١٠٩٢ ، وقالوا قتل منا نجاراً فقتلناه به .

وفي سنة ٤٩٠/١٠٩٦ قتلوا عبد الرحمن السميرمي وزير أم السلطان بركيارق وأرغش النظامي ، مملوك نظام الملك بالري ، والامير برسق وهو أول شحنة ببغداد .

وفي سنة ٤٩٣/١٠٩٩ قتلوا الأمير بلكا بك سرمز بأصبهان بدار السلطان محمد بن ملكشاه .

وتقدموا خطوة إلى الأمام عندما أخذوا يملكون القلاع الحصينة ، وأول قلعة ملكوها في ناحية يقال لها الروذناذ من نواحي الديلم سنة ٤٨٣/١٠٩٠ فكان متقدمها الحسن بن الصباح[6] .

وأخذ نفوذهم يزداد يوماً بعد يوم فاستولوا على قلعة اصبهان وطبس وبعض قهرستان ، وقلعة وسنمكوه وهي بقرب أبهر[7] وقلعة خالنجان قرب

---

(١) ابن الاثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٣١٧ .

(٢) قاين : بلد بين نيسابور وأصبهان ، وهي قصبة قوهستان وهي محصنة .
ياقوت : **معجم البلدان** ج ٤ ص ٣٠١ .

(٣) ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٣١٤

(٤) ساوة : مدينة حسنة بين الري وهمذان .
ياقوت : **معجم البلدان** ج ٣ ص ١٧٩

(٥) مقتل نظام الملك : اتهم أنصار نظام الملك ، تاج الملك أبا الغنائم بتدبير اغتياله لأنه كان طموحاً في الوصول إلى وزارته .
HOUTSMA. Recueil de textes relatifs à l'histoire des seljoucides P. 10- 11 .

(٦) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢

(٧) أبهر : مدينة مشهورة بين قزوين وزنجان وهمذان. ياقوت: **معجم البلدان** ج ١ ص ٨٢ .

أصبهان وقلعة استونا وند وهي بين الري وآمل ، ومنها أردهن[١] .

وفي «ألموت» أقام الحسن الصباح التحصينات وهيأ التموين المستمر ، وحكم القلعة بشدة وصرامة حتى أنه قتل أولاده واحداً منهم بسبب قتله لانسان ، والثاني لأنه شرب الخمر[٢] .

وهكذا وبسرعة فائقة أنشأت الحركة الباطنية دولة القلاع بغفلة عن السلطنة السلجوقية ، لأنه لم يكن عندها أصحاب أخبار حتى تكون على علم بتحركاتهم ، ويعتبر نظام الملك هو المسؤول عن الغاء نظام الخبر والبريد في الدولة السلجوقية لأنه هو الذي أقنع ألب ارسلان[٣] بانهاء هذه الوظيفة . إن هذا التدبير أسهم في سيطرتهم وازدياد قوتهم في منأى عن أعين السلطة حتى تمكنوا ونشروا الرعب في قلوب الناس ، واستولوا أيضاً على قلعة كردكوه وقلعة الناظر بخوزستان وقلعة الطنبور قرب أرجان وقلعة خلادخان بين فارس وخوزستان .

كما قتلوا الوزير الأعز أبا المحاسن عبد الجليل ابن محمد الدهستاني وزير السلطان بركيارق على أصبهان سنة ٤٩٥/١١٠١[٤] .

وفي سنة ٥٠٠/١١٠٦ قتل الباطنية فخر الملك أبا المظفر بن[٥] نظام الملك وفي سنة ٥٠٣/١١٠٩ حاولوا قتل نظام الدين أحمد بن نظام الملك ، وفي سنة ٥٠٧/١١١٣ وبعد أن أحرز الأمير مودود نصراً على الفرنج في طبرية دخل دمشق ليستريح بها قليلاً ، وفي يوم الجمعة عندما كان خارجاً من

---

(١) ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٣١٥ ـ ٣١٨

(٢) بدوي : **مذاهب الاسلاميين** ج ٢ ص ٢٢١ ـ ٢٢٢

(٣) ألب ارسلان : ٤٦٥/١٠٧٢

هو ألب ارسلان محمد بن داود جفري بك بن ميكائيل بن سلجوق ، وكان كريماً عادلاً ، عاقلاً واتسع ملكه جداً ، ودان له العالم وبحق قيل له سلطان العالم ، وكان رحيم القلب رفيقاً بالفقراء ، وكان يقرأ عليه تواريخ الملوك وآدابهم وأحكام الشريعة وكان يكره السعاية .

البنداري : **تاريخ دولة آل سلجوق** ص ٦٨

(٤) ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٧٤ ـ ٧٥ ، ٣١٩ ، ٣٣٥ .

(٥) ابو المظفر بن نظام الملك : ٥٠٠/١١٠٦ .

وزر للسلطان بركيارق ثم للسلطان سنجر بن ملكشاه ، جاءه باطني بشكل متظلم فقتله .

ابن الاثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٤١٨ ، ٤١٩

المسجد مع طغتكين[1] وثب عليه باطني فقتله ، فأرسل ملك الفرنج في القدس رسالة بهذه المناسبة لأمير دمشق ينعي فيها الأمير مودود .

لم يكتف زعماء الحركة الباطنية بتصفية الأمراء البارزين في الدولة السلجوقية بل خططوا للقضاء على السلاطين أنفسهم ، وفي سنة **١٠٩٥/٤٨٨** حاولوا قتل السلطان بركيارق فلم يظفروا به ، ونجا بعد أن جرح في عضده ، وتبين أن القاتلين من أهل سجستان[2] .

كما أن المستظهر تعرض سنة **١١١١/٥٠٥** لمحاولة اغتيال ولكن دون نتيجة[3].

كيف ردّ السلاجقة والعباسيون على الباطنية

أمام خطر الباطنية وتحدياتها كان لا بد للسلاطين السلاجقة وللخليفة المستظهر أن يدافعوا عن وجودهم ومكتسباتهم ، خاصة وأن علماء الاسلام أفتوا بإلحادهم ، وعلى رأسهم ابن عقيل . قال أحد خصومهم : إن تقتلهم أعظم ثواباً من أن تقتل سبعين كافراً . وكان الباطنية بالنسبة لضحاياهم مجرمين متعصبين انغمسوا في قتال ضد الدين والمجتمع ، وأول باطني قتله المستظهر على باب النوبي كان سنة **١٠٩٦/٤٩٠** . وفي سنة **١١٠٠/٤٩٤** وبعد الجرائم الكثيرة التي ارتكبوها في أصبهان تجرد للانتقام منهم أبو القاسم مسعود بن محمد

---

(١) طغتكين : ١١٣٠/٥٢٢
ظهير الدين أبو منصور ، كان اتابكا عند دقاق وبعده ، ملك دمشق الى يوم وفاته ، كان من امراء تتش السلجوقي بدمشق ، فزوجه بأم ولده دقاق ، ثم انه صار أتابك دقاق ثم تملك دمشق ، وكان شهماً مهيناً مدبراً سائساً له مواقف مشهورة مع الفرنج .
الذهبي : **العبر في خبر من غبر** ج ٤ ص ٥١ .

(٢) سجستان : يحدها من الشرق مكران وارض السند ، ومن الغرب خراسان والهند ، ومن الشمال الهند ، ومن الجنوب فارس وكرمان .
الاصطخري : **المسالك والممالك** ص ١٣٩

(٣) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٨٦ ـ ٨٧ ، ١٤٨ ، ١٦٣ ، ١٦٧

الخجندي[1] الفقيه الشافعي وقتل منهم خلقاً كثيراً .

وحنق عليهم الأمير جاولي[2] سقاووا وقتل منهم أعداداً كبيرة وغنم ما معهم من دواب وسلاح ، ولما اعتنق صاحب كرمان تيرانشاه بن تورانشاه بن قاورت بك عقيدة الباطنية وفتك بأهل السنة ثار عليه الناس وفر من كرمان وتبعه ارسلان شاه بن كرفشاه بن قاورت بك وقتله .

واستغل الباطنية النزاع الذي كان قائماً بين السلطان بركيارق وأخيه السلطان محمد واندسوا في عسكر بركيارق وظهرت قوتهم وصاروا يهددون من يخالفهم بالقتل حتى أن الأمراء والمتقدمين كانوا لا يخرجون من بيوتهم قبل أن يلبسوا الدروع تحت ثيابهم ، وكان أعداء السلطان بركيارق يتهمونه بالميل اليهم ، فعندما سنحت له الفرصة أُذن بالفتك بهم وكتب إلى بغداد بالقبض على أبي ابراهيم الأسداباذي وكان من أعيانهم ورؤ وسهم فقتل والقي خارج السور ولم يُصَلِّ عليه أحد . وألقى السلطان محمد القبض على الكيا الهراسي[3] أبي الحسن علي بن محمد المدرس بالنظامية يتهمه أنه باطني فأرسل المستظهر بالله من استخلصه وشهد له بصحة الاعتقاد حتى أن ابن كوخ الصوفي وكان قد أقام ببغداد بدرب زاخي في الرباط مدة ، قد قاتل الباطنية ثم قتل جماعة من القضاة اتهموا بهذا المذهب[4] .

---

(١) الخجندي : ٤٩٦/١١٠٢ ، ينسب الى المهلب بن أبي صفرة ، قتله علوي بالري في الفتنة بين السنة والشيعة .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٣٧

(٢) جاولي سقاووا : ٥١٠/١١١٦

أقطعه السلطان محمد بلاد فارس ثم بدأ يقتل الأمراء المجاورين ، وكان يدمن شرب الخمر .

ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٥١٦ ـ ٥٢١ .

(٣) الكيا الهراسي : علي بن محمد ٥٠٤/١١١٠

ابن علي ابو الحسن الطبري الهراسي ويعرف بالكيا ، تفقه على أبي المعالي الجويني وكان حافظاً للفقه ، درس بالنظامية ببغداد ، واتهم برأي الباطنية فشهد له جماعة بالبراءة منهم أبو الوفاء بن عقيل ، كان اماماً نظاراً قوياً في البحث دقيق الفكر جهوري الصوت حسن الوجه جداً .

(٤) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٠٣ ، ١٢٢ ، ١٣٧ ، ١٦٧

المصنف : **طبقات الشافعية** ص ٦٨ . ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

عندما كان الحسن الصباح يبث أصحابه في البلدان من أجل قتل العلماء والأمراء[١] ، أرسل إليه ملكشاه يدعوه إلى الطاعة ويهدده إن خالف ، ولما وصله رسول ملكشاه طلب ابن الصباح من أحد أتباعه أن يقتل نفسه ومن الآخر أن يلقي بنفسه من أعلى القلعة فتم ما أراد بسرعة فائقة ، والتفت بعد ذلك إلى رسول ملكشاه وقال له عندي من هؤلاء عشرون ألفاً وهذا هو الجواب[٢] .

وفي سنة ٥٠٠/١١٠٦ عندما دانت الممالك للسلطان محمد تجرد للقضاء على الباطنية وكان أحمد بن عبد الملك[٣] بن عطاش متقدم الباطنية بقلعة أصبهان وقد بقي مسيطراً عليها اثنتي عشرة سنة بعد وفاة السلطان ملكشاه . وبعد حصار طويل استسلم ابن عطاش وقتل وسلخ جلده وقتل ابنه وألقت زوجته نفسها من أعلى القلعة وأرسل رأسه إلى مدينة بغداد[٤] . كان السلطان محمد جاداً في قتال الباطنية ، وبقي سبع سنوات متواصلة حتى تمكن من اخضاع هذه القلعة التي كانت مدججة بالسلاح والذخيرة[٥] .

بعد أن حقق السلطان محمد نصراً عليهم في قلعة أصبهان ، سير وزيره نظام الملك أحمد بن نظام الملك إلى قلعة «ألموت» لقتال الحسن بن الصباح ومن معه فحاصروهم سنة ٥٠٣/١١٠٩ ، ولكن بعد أن هجم الشتاء عادوا ولم يبلغوا منهم غرضاً[٦] .

ملك الحسن الصباح قلعة «ألموت» ما يقارب ستاً وعشرين سنة نشر خلالها الخراب والدمار في المناطق المجاورة له ، ولما اشتد داؤه سير إليه

---

(١) القزويني : آثار البلاد واخبار العباد ص ٣٠٢ .
التونجي : الأدب في العصر السلجوقي ص ٩٠ .

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٢١

(٣) ابن عطاش: كان طبيباً ألبسه الباطنية بأصبهان تاجاً وجمعوا له أموالاً كان يرسل أصحابه لقطع الطرقات وأخذ الأموال ، وقتل من قدروا على قتله ، وفرضوا على القرى السلطانية الضرائب الباهظة .

(٤) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٥٠ ـ ١٥١
حسنين : سلاجقة العراق وايران ص ١٠١

(٥) الراوندي : راحة الصدور وآية السرور ص ٣٣٥ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٧٧ ـ ٤٧٨ .

السلطان محمد من جديد الأمير أنوشتكين[1] شيركير ، صاحب آبه وساوة فملك منهم قلاعاً عدة منها «قلعة كلام» «وقلعة بيرة» وهي على مقربة من قزوين ، ثم سار إلى قلعة «ألموت» وشدد عليهم الحصار فضاق الأمر على الباطنية وعدمت عندهم الأقوات وأشرفوا على الهلاك في هذه الأثناء بلغهم موت السلطان محمد فارتفعت معنوياتهم وقاتلوا شيركير الذي غادر القلعة تاركاً الباطنية تحكم قبضتها على تلك النواحي .

إن صمودهم في القلاع يدل على مهارة في فنون الحرب والخداع ويشهد لهم بالشجاعة الفائقة، والخطاب الذي أصدره محمد بن ملكشاه إلى وزير المستظهر هبة الله بن محمد بن عبد المطلب بعد قتل ابن عطاش يدل على المتاعب الكبيرة والجهود العظيمة التي بذلها جيشه حتى تمكن من النصر وهو يعكس الفرحة الكبرى التي ملأت نفس السلطان فزفها كبشرى للخليفة[2] .

الغزالي يرد على الباطنية

أدرك الخليفة المستظهر مدى الخطر الفكري والعقائدي الذي أحدثته الباطنية في عقول الناس إلى جانب عمليات القتل والاغتيالات التي نفذتها ضد مناهضيها .

لذلك طلب من العلماء والفقهاء أن يتصدوا لهذه الفتنة بالحجة والبرهان ، وكان من الطبيعي أن يكلف المستظهر حجة الاسلام الامام الغزالي كي يرد عليهم ويكشف بدعهم وضلالاتهم وفنون مكرهم واحتيالاتهم وانسلالهم من ربقة الاسلام، ونفذ الغزالي إرادة المستظهر بشوق واجتهاد وألف كتاباً كاملاً في الرد على الباطنية سماه «المستظهري» ، أو فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية ، وهذا الكتاب موجود بين أيدينا ويقع في عشرة أبواب .

---

(١) انوشتكين : كان صاحب قريحة وبصيرة مع جودة رأي وشجاعة .
ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٥٢٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٥٢٧ ـ ٢٣١
بدوي : مذاهب الاسلاميين ج ٢ ص ٢٣٠ ـ ٢٣١

في الأبواب الثمانية الأول يتحدث عن الباطنية وسبب بعث هذه الدعـوة ودرجات ترقي المدعوين فيها وسبب انتشارها ، ويفصل عقيـدتهم في الألوهيـة والنبوة والامامة والقيامة والمعاد وفي التكاليف الشرعية ، وتأويلهم للظاهر واثبات التعليم من الامام المعصوم وفتوى الشرع في حقهم .

أما في الفصل التاسع فيقدم البراهين على وجوب طاعـة الامام المستـظهر ويفصل صفات الامام والوظائف الدينية التي يقوم بها ،وهو تأييد سياسي للامام المستظهر .

كان الغزالي متحمساً جداً في رده على مبادىء الباطنية وهو يعتبر عمله هذا نضالاً من أجل الدفاع عن الحق وقطع دابر الملحدين .

ولقد تمكن بذكائه وسعة اطلاعه أن يفند كل ما عند الباطنية من تصورات ومعتقدات ، وأن يرد عليها الرد المنطقي الممزوج بالعاطفة الايمانية المتأججة ، وأن يدرك هدفهم الأسمى ألا وهو إبطال الشرائع والانسلاخ عن قواعد الدين[١] .

أمـا رواد هذه الـدعوة حسبـما يؤكد الغـزالي فهم جماعـة من المجوس[٢] والمزدكية[٣] وشرذمة من الثنوية[٤] الملحدين وطائفة كبيرة من ملاحدة الفلاسفة المتقدمين .

لقد حز في نفوسهم أن يروا الاسلام مسيطراً على بلدانهم فابتكـروا هذه العقيدة كي يفتكوا بالاسلام من الداخل بطريقة المكر والاحتيال ، وانتسبوا إلى

---

(١) الغزالي : فضائح الباطنية ص ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ١٢

(٢) المجـوس : يعتقدون أن أصـل الكـون النـور والظلمة ، النور أزلي والظلمة محدثة ، والمبدأ الأول من الأشخاص هو كيـومرت الحي الناطق أو آدم .
الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٣

(٣) المزدكية : أصحاب مزدك ، النور عالم حساس والظلام جاهل أعمى ، والناس شركة في النساء والأموال وأصل الكائنات ثلاث : الماء والارض والنار .
الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٤٩

(٤) الثنوية : يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان بخلاف المجوس .
الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٤٤

أهل البيت وتباكوا من الظلم العظيم الذي حل بهم وقبحوا أحوال السلف وما نقل عنهم وقالوا أن للقرآن ظاهراً وباطناً ، وزعموا أن أمامهم من أهل البيت وأنه يجب على كافة الخلق طاعته ومبايعته لأنه خليفة رسول الله ومعصوم من الخطأ ، ثم بعد ذلك يصلون الى الملك ويسيطرون على البلاد والعباد وينتقمون من أعدائهم بالنهب والسفك[١] .

وبعد أن يفصل الغزالي في الرد على عقائد الباطنية ويبطل مذهبهم في الامامة ، ينتقل الى الدفاع عن الامام المستظهر ويسرد البراهين الشرعية التي تسنده ، فهو في نظره الامام الحق الواجب طاعته ، ويعلن أن إمامته أجمع عليها أئمة العصر وعلماء الدهر وجماهير الخلق وأقاليم الأرض في أقصى المشرق وفي أقصى المغرب إلا شرذمة الباطنية .

ثم يبين الغزالي شروط الامامة الخَلْقية والخُلْقية .

فالخلقية ستة وهي : البلوغ والعقل والحرية والذكورية ونسب قريش وسلامة الحواس وسلامة البدن من الأمراض والتشويه[٢] .

والخلقية أربعة وهي : النجدة[٣] ، والكفاية[٤] ، والورع[٥] ، والعلم[٦] .

إن كل هذه الشروط متوفرة في شخصية الامام المستظهر لذا يتعين على كافة علماء العصر الفتوى بصحة الامامة المستظهرية وانعقادها بالشرع ، وأن مقتضى

---

(١) الغزالي : **فضائح الباطنية** ص ١٨ ـ ٢٠ .

(٢) الغزالي : المصدر نفسه ص ١٧٠ ـ ١٧٣ .

(٣) النجدة : وهي حاصلة لهذه الجهة المقدسة من ناحية الترك فهم يوالون المستظهر ويدينون باعتقاد خلافته وامامته ووجوب طاعته .

الغزالي : **فضائح الباطنية** ص ١٨٢ .

(٤) الكفاية : مقصودها إقامة تناظم الامور الدينية والدنيوية .

الغزالي : **فضائح الباطنية** ص ١٨٦

(٥) الورع : تميز المستظهر بمتانة الدين وصفاء العقل واليقين والعطف على الرعايا ولبس الخشن واجتنب الترف وواظب على العبادات وهجر الشهوات .

الغزالي : **فضائح الباطنية** ص ١٨٧ ـ ١٨٨ .

(٦) العلم : ان يحصل الخليفة على رتبة الاجتهاد في الفتوى وامور الشرع ، وإذا لم يصل إلى هذه الدرجة يحكم بما اتفق عليه العلماء في كل واقعة .

الغزالي : **فضائح الباطنية** ص ١٩١

أمر الله أن الامام الحق هو المستظهر بالله المتعين لخلافة الله[1] .

وهناك وظائف لا بد للامام من إقامتها والمواظبة عليها منها وظائف علمية ، ومنها وظائف عملية ، وبمتابعة هذه الوظائف يدوم استحقاق الامامة ، وكان المستظهر خير من يقوم بها .

الوظائف العلمية

١ ـ أن يعرف الهدف من خلق الانسان في هذا العالم وأن هذه الدار ليست دار مقر .

٢ ـ أن زاد السفر إلى الآخرة التقوى ، واصلاح القلب ، وكراهية الدنيا .

٣ ـ أن معنى خلافة الله على الخلق هي اصلاح الناس ولا بد من اصلاح نفسه أولاً .

٤ ـ أن يتمثل بالصفات الملكية ويبتعد عن الصفات البهيمية .

الوظائف العملية

١ ـ أن يقيس على نفسه في كل قضية يبرمها ، وأن يهتم بأمر المسلمين .

٢ ـ أن لا يترك حاجات الناس وينصرف إلى نوافل العبادة ، وأن يترك الترف ، وأن يحكم بالعدل ، وأن يشفق على الناس .

٣ ـ أن يحصل مرضاة الخلق بمرضاة الخالق .

٤ ـ أن يدرك خطر الامامة وزوائدها في الدنيا والآخرة .

٥ ـ أن يكون متعطشاً إلى نصيحة علماء الدين متعظاً بمواعظ الخلفاء الراشدين .

٦ ـ أن يتمتع بحسن الخلق والعفو والحلم وكظم الغيظ مع القدرة[2] .

---

(١) الغزالي : فضائح الباطنية ص ١٨١ ـ ١٩٤

(٢) الغزالي : فضائح الباطنية ص ١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢٢٠

إن هذا الدفاع القوي عن خلافة المستظهر ، وهذه الدعوة الحارة لطاعته ، والالتفاف حوله ، كل ذلك يعكس الأهمية التي بلغتها الحركة الباطنية في مدينة بغداد وغيرها من المدن الاسلامية ، فهي تيار المعارضة السياسي والعقائدي للخلافة العباسية وتقدمها كان على حساب نفوذ الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية ، لذلك انبرى لها سلاطين السلاجقة بسيوفهم كما انبرى لها المستظهر بالقلم والحجة ، ورغم الجهود الكبيرة التي بذلها السلاطين لم يتمكنوا من القضاء عليها سياسياً ، ورغم الدعاية القوية التي قام بها الفقهاء وعلى رأسهم الغزالي بقي تيار الباطنية مستمراً له أنصاره حتى اليوم .

خاتمة

إن المآسي التي أحدثتها حروب التصفية بين أولاد ملكشاه ، أصابت آثارها سكان مدينة بغداد ، والمستظهر كان محايداً ولم يحقق أي نوع من الاستقلال الداخلي كما فعل أمير الحلة ، وإذا حصل على ثقة محمد بن ملكشاه فذلك من باب التبرك به فقط ، ولكن تحسنت أحوال بغداد الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية في أيام محمد بن ملكشاه .

وكانت العلاقة الحسنة مع المرابطين من الأسباب التي زادت من هيبة المستظهر وأثرت في النواحي الحياتية في عاصمة الخلافة العباسية وجاءت الحروب الصليبية كي تبرهن للناس عن عجز سلاطين السلاجقة وعجز المستظهر الذي كان لا يملك حولاً ولا قوة ثم كانت الضربات التي وجهتها الحركة الباطنية للسلطنة السلجوقية وللعلماء المسلمين من الأمور التي نشرت الرعب والخوف في المجتمع ، وجعلت نوعاً من القلق النفسي والحذر يسود وخاصة في صفوف الزعماء والفقهاء .

الفَصلُ الثَالِثُ

أحوال بغداد الداخلية في عهد المستظهر

مقدمة

بعد ان درسنا علاقة المستظهر بالقوى الخارجية ومدى تأثير هذه القوى في حياة الناس في مدينة بغداد ننتقل في هذا الفصل كي نطلع على أحوال بغداد الداخلية وعلى نوعية العلاقات التي كانت سائدة بين الناس .

وقد تم ايجازها في ست نقاط رئيسة وهي :

- المذاهب الاسلامية .
- العيارون .
- أهل الذمة .
- المرأة .
- العمران والاقتصاد .
- الكوارث الطبيعية .

إن العلاقة التي قامت بين السنة والشيعة في أيام المستظهر ، تميزت بالصلح والتآخي والاحترام كما ان الفتن بين الأشعرية والحنابلة همدت كثيراً ، وهذا يعود للسياسة الحكيمة التي انتهجها الخليفة .

وفي بعض الأحيان كانت تحدث فتن بين عامة بغداد إلا أن أشدها كان موجهاً ضد التسلط السلجوقي في داخل المدينة .

وكان **العيارون** يشكلون قوة شعبية تناهض رجال الحكم العباسيين والسلاجقة ، وكانوا ينتهزون فترات القلاقل كي يوجهوا ضرباتهم إلى أعدائهم ، وتمكنوا من التغلغل في أحياء بغداد الغربية .

وفي بغداد عاشت **طائفة اليهود** في كنف الخليفة المستظهر ، تنعم بحرية العبادة وخير دليل على هذه الحرية احتفالات تنصيب « رأس الجالوت » وانتشار الكنائس اليهودية ببغداد إلى جانب الأملاك الواسعة التي كانت في حوزة رأس الجالوت كلها دلائل على حسن العلاقة التي كانت قائمة بين اليهود والخليفة .

كان **النصارى** ببغداد أيضا يتمتعون بحرية دينية كاملة في أيام المستظهر ، وتتجلى هذه الحرية يوم تنصيب الفطرك حيث تشارك الجموع الغفيرة في تكريم الجاثليق وتصل العلاقة بين النصارى والخليفة إلى درجة عالية من الثقة والاحترام وذلك عندما يأمر المستظهر بازالة الغيار عن أهل الذمة .

إن **المرأة البغدادية** في أيام المستظهر ، شاركت في ميادين كثيرة سياسية واجتماعية وعلمية ، وقد تمكنت بعض النساء من احداث تأثير مباشر في سير الأحداث التي عرفتها السلطنة السلجوقية والخلافة العباسية .

إن **حركة العمران** شهدت تطوراً ملحوظاً في أيام المستظهر . وقد تجلى هذا التطور في انشاء السور والمساجد ودور الخلافة والأبنية السلطانية والحمامات والأربطة والمشاهد والمدارس .

كما أن **الحالة الاقتصادية** عرفت تحسناً كبيراً في أيام محمد بن ملكشاه الذي شجع التجارة وزاد الانتاج الزراعي بفضل عناية وزير الخليفة هبة الله بن المطلب .

أما **الكوارث الطبيعية** فيأتي في طليعتها الحرائق والفيضانات والأوبئة فقد زادت من متاعب الناس وهمومهم .

وعلى العموم كانت مدينة بغداد في أيام المستظهر تنعم بالهدوء والاستقرار والاحترام المتبادل بين الطوائف الدينية والاجتماعية .

كما أن الحالة العمرانيـة والاقتصاديـة فيها عـرفت تحسناً ملمـوساً رغم الكوارث الطبيعية والسياسية .

أولاً ـ المذاهب الاسلامية

المجتمع الاسلامي قبل كل شيء ، والسنية مذهبه الرسمي ، والحنفية مذهب الخلفاء والسلاطين ، ولكن الشافعية لم تلبث أن استبدت ، وكان نظام الملك من أعاظم معتنقيها والمدافعين عنها والعاملين على تأسيس مدارسها[1] ، أما مذهب أحمد بن حنبل فيعتنقه سواد العامة ببغداد .

كان التنافس بين المذاهب الاسلامية من الأمور التي ألفها الناس في هذه المرحلة والتعصب المذهبي هو صفة العصر البارزة ، إلا أن هذه المذاهب في عهد المستظهر عرفت تلاقياً وتعاوناً قل نظيره في الفترات السابقة .

١ ـ السنة والأشعرية

شهدت مدينة بغداد في عهد المستظهر شيئاً من الهدوء في العلاقة بين السنة والأشعرية ، ولم يعكر صفو الأجواء فيها إلا فتنة واحدة وقعت سنة ٤٩٥/١١٠١ ، وسببها أنه قـدم إلى بغداد أبـو المؤيد عيسى[2] بن عبـد الله الغزنوي ووعظ في الجـامع وأظهـر المذهب الأشعري ، ومال معـه صاحب المخزن ابن الفقيه[3] ، ووقعت فتنة وجاز يوماً من مجلسه ماضياً الى منزله برباط

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٦٦

(٢) ابـو المؤيـد عيسى بن عبـد الله الغزنـوي : ٤٩٨/١١٠٤ ، ابن القاسم كان واعظاً شاعراً ، كاتباً ورد بغداد ووعظ بها ونصر مذهب الأشعري فأخرج من بغداد فقصد غزنة .
ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٤٥

(٣) ابن الفقيـه : ٥٠٢/١١٠٨ ، هـو صـاعـد بن محمـد بن عبد الرحمن ابو العلاء البخاري القاضي من أهل اصبهان ، سمع الحديث بها وببغداد وتفقه على مذهب أبي حنيفة وبرع حتى صار مفتي البلد ، كان متديناً .
ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٦٠

أبي سعد الصوفي فرجم من مسجد ابن جردة وكثر أصحابه ثم خرج من بغداد سنة ٤٩٦/١١٠٢[١] .

٢ ـ السنة والشيعة

يعتبر عهد المستظهر فترة الصلح والوفاق بين أهل السنة والشيعة بمدينة بغداد ، وهذا يعود إلى السياسة الحكيمة التي اتبعها الامام المستظهر في تقريب العلماء واكرامهم .

ففي سنة ٤٨٨/١٠٩٥ تصالح أهل الكرخ مع بقية المحال وتزاوروا وتواكلوا وتشاربوا حتى أن ابن الجوزي اعتبر هذا الحدث من العجائب بعد الأحداث الأليمة السابقة[٢] .

وفي سنة ٥٠٢/١١٠٨ تجدد الصلح بين عامة بغداد السنة والشيعة ، وكان الخلفاء والسلاطين ورجال الدولة قد بذلوا جهوداً حثيثة لاصلاح الحال بين الطرفين فتعذر عليهم الأمر حتى تم هذه السنة بغير تدخل من أحد .

وتجهز السنة لزيارة قبر مصعب بن الزبير[٣] ومعهم الزينة والسلاح فاستقبلهم أهل الكرخ بالبخور والطيب والماء المبرد والسلاح وكذلك الأمر خرج الشيعة إلى مشهد موسى بن جعفر[٤] ولم يعترضهم أحد من السنة .

---

(١) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ س ١٣١

(٢) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٨٧ .

(٣) مصعب بن الزبير : ٧١/٦٩٠ ، استعمله أخوه على البصرة ، قال الشعبي ما رأيت أميراً على منبر أحسن من مصعب ، قتله عبد الملك بن مروان بموضع قريب عند دير الجاثليف وقبره معروف إلى الآن هناك .
الكتبي : **فوات الوفيات** ج ٤ ص ١٤٣
ابن كثير : **البداية والنهاية** ج ٨ ص ٣١٨ .

(٤) موسى بن جعفو : ١٨٣/٧٩٩ . ابو الحسن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر ابن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، أحد الأئمة الأثني عشر ، كان يدعى العبد الصالح من عبادته واجتهاده ، وكان سخياً كريماً ، حمله هارون الرشيد معه من المدينة الى بغداد وحبسه الى ان توفي في محبسه ، ودفن في مقابر الشونينزيين وقبره مشهور يزار ، وعليه مشهد عظيم فيه قناديل الذهب والفضة وأنواع الآلات والفرش ما يحد وهو في الجانب الغربي .
ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٥ ص ٣٠٨ ـ ٣١٠ .

وهكذا كان الوئام والاحترام هو طابع العلاقات بين السنة والشيعة في عهد المستظهر[1] .

ويرد صاحب كتاب عمران بغداد سبب الصلح إلى مقتل صدقة بن مزيد الذي كان يساند شيعة بغداد[2] .

٣ ـ الفتن بين عامة بغداد

بين الحين والآخر كانت تحدث فتن بين أهالي المحال ببغداد ؛ ففي سنة ٤٨٧ / ١٠٩٤ وقعت فتنة بين أهل نهر طابق[3] وأهل باب الارجاء فاحترقت نهر طابق وصارت تلولاً وتدخل يمن[4] وصاحب الشرطة من أجل تهدئة الموقف ، وفي السنة نفسها قتل أهل باب البصرة النقيب طراد الزينبي فانفذ شحنة بغداد اليهم قوة لمعاقبتهم فاستغل أهل الكرخ الموقف وأحرقوا ونهبوا فتدخل المستظهر وأمر بالكف عنهم .

وفي بعض الأوقات كان العامة يثورون على شحنة المدينة إذا حل بهم ضيم أو جاوز حده فاعتدى على أحدهم ، وهذا ما حدث سنة ٤٩٥/١١٠١ ، عندما قتل أصحاب ايلغازي بن أرتق ملاحاً ، فرجمهم العامة وشاركهم العيارون فقتلوا أكثر الأتراك ، ومن نجا غرق في نهر دجلة ، وأراد ايلغازي الانتقام من الجانب الغربي فتدخل المستظهر ومنعه من تنفيذ مأربه . هذه الانتفاضة هي شبه ثورة ضد التسلط السلجوقي ، وهي تعبير عن شجاعة العامة ضد الحكم الأجنبي .

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٦٩ ـ ٤٧٠

(٢) الحسيني : عمران بغداد ص ٧٨ .

(٣) نهر طابق : محلة ببغداد الغربية .
معجم البلدان ج ٥ ص ٣٢١ .

(٤) يمن بن عبد الله الجيوشي : ٥١١ /١١١٧ ، أبو الخير أحد خدم المستظهر بالله ، كان مهيباً جواداً حسن التدبير ذا رأي وفطنة ثاقبة ، ارتقت به الأمور العالية حتى فوضت إليه إمارة الحاج ، وبعث رسولاً إلى السلطان من حضرة أمير المؤمنين مراراً .
ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٩٦

كما حدثت فتنة بين العامة سنة ١١١٥/٥٠٩ وسقط فيها بعض القتلى وفي ما خلا ذلك كانت حياة العامة يسودها نوع من الاستقرار والطمأنينة[١] .

ثانياً ـ العيارون في مدينة بغداد

نشط العيارون ببغداد في عهد المستظهر ، وكانوا يستفيدون من القلاقل والاضطرابات التي تحدث ببغداد وما حولها حتى يوجهوا ضرباتهم إلى خصومهم السياسيين والتجار على حد سواء .

وإذا كانت حركتهم قد اتخذت في بداية عهد المستظهر طابع السرية ، فانهم كانوا يظهرون على مسرح الأحداث عندما تدعو الحاجة إلى ذلك ، وقد تم لهم هذا الامر سنة ١٠٩٦/٤٩٠ عندما فتكوا بالجانب الغربي من المدينة[٢] .

وفي سنة ١٠٩٨/٤٩٢ زاد نشاطهم في الجانب الغربي ، وعظم ضررهم حتى أن المستظهر أمر كمال الدولة يمن بالقضاء عليهم فأخذ جماعة منهم وتمكن الباقون من الفرار[٣] .

ويتقدم العيارون خطوة إلى الامام سنة ١٠٩٩/٤٩٣ وتمتد أيديهم إلى رجال الحكم ويأخذون ثياب القاضي أبي الحسن الدامغاني ، وهذا تحد واضح للمستظهر الذي سير إليهم الأمير كمال الدولة يمن من حيث تمكن من قتل بعضهم ، وكانت الدولة المستظهرية غاضبة جداً على كل عيار فهي تفتك بكل من تتأكد من انتسابه إليهم[٤] .

ومع سنة ١١٠٣/٤٩٧ تكثر الفتن بين العامة ببغداد ، وينتهز العيارون هذه المناسبة ويسيطرون على الجانب الغربي من بغداد مجدداً حتى أن صاحب الشرطة اضطر أن ينسحب إلى الجانب الشرقي ، والشحنة كان يعجز عن

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٨٣ . ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٥١٤ .

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٠٣

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٠١

(٤) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١١٣

مقاومتهم فلا يقع في يده إلا الضعفاء ، وبقي الشر مستعراً حتى عاد النقيب أبو القاسم إلى باب البصرة وجميع محال أهل السنة والنقيب الرضا إلى الكرخ وتوابعه[1] .

وأراد الشحنة أن يثأر لنفسه من أهل الجانب الغربي فأمر بالنهب ، فلجأ الناس إلى الديوان مستنكرين ، فقرر مع النقيبين ألفين ومائتي دينار على سائر المحال في الجانب الغربي ، فأهلك هذا التدبير الضعفاء حتى أن بعضهم طلب الصدقة من أجل جمع ما يتوجب عليه من مال[2] .

وكان الجانب الغربي من بغداد مركز الثقل بالنسبة لقوة العيارين ، وظهر فيه تحديهم جلياً للسلطة السلجوقية وللخلافة العباسية الموالية لها ، وهكذا يأخذ العيارون دور المناهضين ضد السلطة التي تحكمت ببلادهم وبخيراتها ومالأها الناس خوفاً على مصالحهم وممتلكاتهم بينما تصدى لهم العيارون وكانوا يحققون عليها بعض الانتصارات المحدودة[3] .

ثالثاً ـ أهل الذمة

وهم اليهود والنصارى[4] .

١ ـ اليهود

كان يقيم في بغداد نحو اربعين ألف يهودي ، وهم يعيشون في أمان وعز ورفاهية في ظل أمير المؤمنين على حد تعبير بنيامين التطيلي ، وبينهم عدد من كبار علماء الدين ، ولهم في بغداد عشر مدارس مهمة ، ولكل مدرسة رئيس يشرف عليها ، والأساتذة العشرة يعرفون بالمعتكفين لا عمل لهم غير النظر في مصالح أبناء طائفتهم ، ويقضون بين الناس طوال أيام الاسبوع كل في مدرسته .

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٧٨

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٣٧ ـ ١٣٨

(٣) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٥٤٥

(٤) أبي يعلى الفراء : الاحكام السلطانية ص ١٥٤

أما يوم الاثنين فيجتمعون في مجلس كبيرهم رأس مثية « غاؤ ون يعقوب » للنظر في أحوال رعيتهم مجتمعين ، أما رئيس هؤلاء العلماء جميعهم فهو الربي دانيال بن حسدأي الملقب « سيدنا رأس الجالوت » ، ويسميه المسلمون سيدنا ابن داود ، ويستمد سلطانه على اليهود ببغداد من كتاب عهد موجه من الخليفة أمير المؤمنين عملاً بأحكام الدين الاسلامي ، وينتقل هذا المنصب إلى ذريته بالوراثة ، وعند تنصيب الرئيس يمنحه الخليفة ختم الرئاسة على أبناء ملته كافة ، وبعد ذلك يتم تكريمه باحتفال رسمي ، وتقضي التقاليد المرعية بين اليهود والمسلمين وسائر أبناء الرعية بالنهوض امام رأس الجالوت وتحيته عند مروره بهم ، ومن خالف ذلك عوقب بضربه مائة جلدة .

وعندما يخرج رأس الجالوت لمقابلة الخليفة يسير معه الفرسان من اليهود والمسلمين ، ويتقدم الموكب منادٍ ينادي بالناس : « اعملوا الطريق لسيدنا ابن داود » ، ويكون الرئيس ممتطياً صهوة جواده وعليه حلة من حرير مقصب وعلى رأسه عمامة كبيرة تتدلى منها قطعة قماش مربوطة بسلسلة منقوش عليها شعار الخليفة[١] .

وعندما يمثل في حضرة الخليفة يبادر إلى لثم يده وعندئذ ينهض الخليفة وينهض معه الحجاب ورجال الحاشية فيجلس الرئيس فوق كرسي مخصص لجلوسه قبالة الخليفة ويسري نفوذ رأس الجالوت على جميع طوائف اليهود المنتشرين في العراق وبلاد خراسان واليمن والجزيرة وأرمينية وبلاد اللان[٢] والتركمان[٣] وسيبيريا[٤] وجورجية[٥] حتى شواطىء نهر جيحون[٦] وحدود

---

(١) بنيامين : الرحلة ص ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧

(٢) اللان : من ممالك أرمينية .
ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ١٦٠

(٣) التركمان : وهي بلاد الترك تصل في امتداده إلى الهند والصين وتصل من ناحية بلاد الاسلام إلى فاراب . ياقوت: معجم البلدان ج ٢ ص ٢٣

(٤) سيبيريا : تابعة اليوم للاتحاد السوفياتي قريبة من المحيط المتجمد الشمالي .

(٥) جورجية : في الاتحاد السوفياتي اليوم بين طبرستان وخراسان .
ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ١١٩

(٦) نهر جيحون : ينبع من جبل يقع بين السند والهند وكابل، ويصب في بحيرة خوارزم تتجمد مياهه في فصل الشتاء .
ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ١٩٦ - ١٩٧

سمرقند[1] وبلاد التبت[2] وديار الهند . ويخالف آدم متز هذا الرأي ويقول أن كلمة رأس الجالوت لا تسري إلا على شرقي الفرات .

وبعد أن يتسلم كتاب العهد يضع أمير المؤمنين يده على رأس الرئيس الجديد ومن ثم يعود إلى داره بموكبه الخاص وحوله الجماهير الغفيرة وتنفخ أمامه البوقات وتقرع الطبول[3] .

واليهود لهم في بغداد ثمان وعشرون كنيسة ، قسم منها في جانب الرصافة وقسم منها في جانب الكرخ ، وكنيسة رأس الجالوت بناء جسيم فيه أساطين الرخام المنقوشة بالأصباغ الزاهية المزوقة بالفضة والذهب ، وتزدان رؤوس الأساطين بكتابات من المزامير بحروف من ذهب ، وفي صدر الكنيسة مصطبة يصعد إليها بعشر درجات من رخام وفوقها الأريكة المخصصة لرأس الجالوت أمير آل داود[4] .

ورأس الجالوت هو الذي يعين الربيين في البلدان ، وهم يشخصون إلى بغداد بعد نصبهم لمقابلة الرئيس ويحملون إليه الهدايا والعطايا ، ويمتلك الرئيس العقارات الواسعة والمزارع والبساتين وأكثرها مما ورثه عن أجداده ، وأملاكه هذه مصونة ليس من حق أحد أن ينتزعها منه ، وله ايراد سنوي عظيم من الفنادق والأسواق مع الحكمة والفقه بأحكام التوراة والتلمود[5] .

التمسك الشديد بتقاليد الديانة اليهودية

كان اليهود في بغداد يتميزون بتمسكهم الشديد بالتقاليد الدينية وتعصبهم لها ولو أدى ذلك إلى هلاكهم ، ومن هذه التقاليد التي يحافظون عليها عطلة يوم السبت فهم لا يعملون في هذا اليوم أبداً ، وصدف أنه في سنة ١١٠٧/٥٠١

---

(١) سمرقند : من بلاد ما وراء النهر ، وهي قصبة الصغد من بلاد روسية اليوم .
ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٢٤٦ .

(٢) تبت : تقع بين الهند والصين .
ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ١٠

(٣) بنيامين : الرحلة ص ١٣٨ ـ الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٨١ .

(٤) بنيامين : المصدر نفسه ص ١٣٩
الأريكة : الكرسي الرحب .

(٥) بنيامين : الرحلة ص ١٣٨

احترقت خرابة ابن جردة وهلك فيها كثير من الناس واحترق ما لا حد لـه من الأمتعة والأموال وأثاث البيوت ، وكان بها جمـاعة من اليهـود لـم ينقلوا شيئاً لتمسكهم بسبتهم ، وكان بعض أهله قد عبروا إلى الجانب الغربي للفرجة على عادتهم في السبت الذي يلي العيد فعادوا فوجدوا بيوتهم قد خربت وأهلهم قد احترقوا وأموالهم قد هلكت[1] .

٢ ـ النصارى

أما النصارى ببغداد فكانوا يتمتعون بحرية كاملة من الناحية الدينية وخير مثل على هذه الحرية هو اختيارهم لرؤسائهم الروحيين بدون تدخل من الدولة المستظهرية . ففي سنة ١٠٩٢/٤٨٥ ، خلا كرسي الفطركة من مـدبر وراعٍ فـوقع الإجمـاع على مارمكيخيـا الجاثليق[2] حيث عقـدت له الفـطركـة في المداين ، وكان يوماً مشهوداً عم السرور فيه الناس[3] .

وفي سنة ١٠٩٦/٤٩٠ جرى بين الأب الجاثليق وبين أبي الفرج سعيد ابن ابراهيم الواسطي خلاف حول بعض طقوس العبادة في البيع فلما تولى مارمكيخيا الجاثليق الفطركة أمر الناس بالعودة إلى الرسوم القديمة ، ومنع تغيير العادة ، وطلب أبو الفرج سعيد بن ابراهيم الواسطي من أبي الفرج ابن التلميذ أن يتدخل لاصلاح الحال بين الـطرفين فلم يفعل ، وتـطور الخلاف وجـرت خطوب كثيرة حتى تدخل وزير المستظهر عميد الدولة أبو منصور محمد بن جهير من أجل حسم الخلاف ، وكان بعض القساوسة ينقلون إلى الجاثليق كلاماً لم يقله الواسطي من أجل زيادة الفتنة حتى حرمه الجاثليق من ممارسة الطقوس

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٥٥

(٢) مارمكيخيا الجاثليق : هذا الأب القديس الطاهر من بغداد ، كان زاهداً عفيفاً محباً للصواب ، وتعرض لصناعة الطب برهة من زمانه ، وكـان قسـاً يتردد إلى بيعة السيدة مارت مريم بالعقبة ، مدة من زمانه من غير أجر .

صليبا : اخبار فـطاركة كـرسي المشرق ص ١٣٧

(٣) صليبـا : اخبار فـطاركة كـرسي المشـرق ص ١٣٧

الدينية في بيعة سوق الثلاثاء فأنكر بعض المؤمنين هذا التدبير لحبهم للواسطي .

وتمكن عميد الدولة اخيراً من جمع الجاثليق وابن الواسطي وأجرى بينهما الصلح فقام ابن الواسطي وقبل يد الجاثليق فرضي عنه[1] .

وتتجلى الحرية الدينية التي كان يتمتع بها نصارى بغداد في المناسبات الدينية وخاصة يوم تنصيب الفطرك . ففي سنة ٥٠٤/١١١٠ ، عندما استناح مكيخيا وقع الاختيار الكلي على ايليا[2] الثاني فطركاً بالمدائن ، وحضر تنصيبه مطران نصيبين[3]، ومطران الري وحلوان[4] ، وأسقف عكبري[5] ، وأسقف القصر[6] ، والنهروانات[7] ، وأسقف أصفهان ، وأسقف أدرمة ، وأسقف بشتدر ، وأسقف أرومي ، والجموع الكثيرة من قسان وشمامسة ووزراء ورؤساء ومؤمنين ، وحضر الأجل أمين الدولة فوقف الملك رئيس الكفاة والحكماء أبو الحسن هبة الله ابن صاعد ابن ابراهيم الطيب الغياثي المعروف بابن التلميذ ، وكان يوماً مشهوداً ، واستقبله رجال الدين بالصليب والانجيل والشموع والبخور والصلاة ، وفرشوا الطريق أمامه مثل جاري العادة بالبسط والثياب وعملوا القياب[8] .

---

(١) صليبا : اخبار فطاركة كرسي المشرق ص ١٤٢

(٢) ايليا الثاني : الجاثليق المعروف بابن المقلي ، هذا الأب القديس الطاهر من أهل الموصل ومطرانها .
صليبا : أخبار فطاركة كرسي المشرق ص ١٥٢

(٣) نصيبين : وهي مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام .
ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ٢٨٨

(٤) حلوان : مدينة عراقية تقع آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد .
ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٢٩٠

(٥) عكبري : اسم بليدة من نواحي دجيل (نهر ينبع من أعلى بغداد مقابل القادسية) قرب صريفين وأوانا ، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ .
ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ١٤٢

(٦) القصر : بالرقة وهو من أبنية أبرشيد .
ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٣٥٤ .

(٧) النهروانات : وهي ثلاثة الأعلى والأوسط والأسفل ، وهي كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي .
ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ٣٢٤ .

(٨) صليبا : أخبار فطاركة كرسي المشرق ص ١٠٣

وأخيراً عاد بالجموع إلى بغداد ، وجلس في القلاية بدار الروم[١] ، وقام بتعيين الرؤساء الروحيين على رعايا النصارى في مختلف مناطق السلطنة السلجوقية ، وكان حكمه بالحق والنصف بين القوي والضعيف والغني والفقير ، وكانت مدة رياسته احدى وعشرين سنة وسبعة أشهر وعشرين يوماً ، وخلا الكرسي بعده لمدة سنة .

وتصل العلاقة الحسنة بين المستظهر ونصارى بغداد إلى درجة عالية من الثقة والاحترام ففي سنة ٤٩٨/ ١١٠٤ ، أصدر المستظهر أمره بازالة الغيار عن أهل الذمة بعد أن دام حوالي أربع عشرة سنة وأربعة أشهر .

إن هذا العمل أزال عن النصارى كثيراً من القيود التي كانت تحد من حركتهم وتجعلهم في حالة من العزلة النفسية والاجتماعية ، وبهذا يكون عهد المستظهر من أزهى العهود العباسية التي مر بها أهل الذمة ببغداد وغيرها من المناطق المحيطة بها .

أما السبب الذي من أجله أزال المستظهر الغيار عن أهل الذمة فيسكت عنه ابن الجوزي الذي يقول بأنه لا يعرف السبب ، وكذلك بقية المؤرخين المسلمين ، أما صاحب المجدل فيرد هذا الأمر إلى تأثير أبي الفرج سعيد بن ابراهيم الواسطي الطبيب القس الراهب نظراً لقربه من الخدمة الشريفة الامامية المستظهرية وتقديراً لأفعاله المرضية الحسنة ولأخلاقه العالية[٢] .

لقد نعم أهل الذمة في عهد المستظهر بقسط وافر من العدالة والمساواة وساهموا في مختلف مجالات الحياة الاقتصادية والعلمية ونبغ منهم في ميدان الأدب والطب أعلام حصلوا على شهرة عالية[٣] .

---

(١) القلاية : صومعة الرهبان ، وأخيراً أصبحت مركز الجاثليف ودار الروم تقع شمال الرصافة .
ياقوت : معجم البلدان ج٣ ص ٣٦١ .

(٢) صليبا : أخبار فطاركة كرسي المشرق ص ١٠٣ - ١٠٤ - ١٤٤ . ابن الجوزي : المنتظم ج ١٠ ص ١٤٣

(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ٣٤٢ .

ومن الملاحظ أن أكثر الصيارفة كانوا من اليهود ، وأكثر الأطباء والكتبة من النصارى[1] .

ولكن رغم العلاقة الطيبة التي كانت تربط أهل الذمة بالمستظهر فقد بقيت الجزية[2] مفروضة عليهم لأنها أحد موارد الخزينة ، وبنفس الوقت كان المستظهر لا يترك مسلماً ولا ذمياً ضاقت به الحال إلا سد حاجته وأعطاه ما يكفيه لأنه جعل للفقراء نصيباً من الأموال التي ترد إلى خزانته[3] .

يبدو أن العلاقة الحسنة التي كانت قائمة بين أهل الذمة والمستظهر ، لم تكن مقبولة عند السلطان محمد خاصة وأن الفرنج قد احتلوا سواحل البلاد الشامية وسقطت القدس بأيديهم . وفي سنة ١١٠٧/٥٠١ ، أصدر السلطان أمره إلى الخليفة بأن يعزل وزيره مجد الدين بن المطلب ولم يرده إلى الوزارة إلا بشروط منها :

العدل وحسن السيرة وأن لا يستعمل أحداً من أهل الذمة في أجهزة الوزارة أو غيرها[4] .

هذا التدبير كان عملاً استثنائياً في أيام المستظهر ، وعلى العموم لم يتأثر وضع أهل الذمة من جراء سقوط مدينة القدس في يد الصليبيين .

---

(١) التونجي : **الأدب في العصر السلجوقي** ص ٩٦ .
متز : **الحضارة الاسلامية** ج ١ ص ٨٦ .

(٢) الجزية : قيمة مالية تؤخذ ممن له كتاب لقاء حمايته وهي موضوعة على الرؤوس ولا تجب من الناحية الشرعية إلا على الرجال الأحرار العقلاء ولا تجب على امرأة ولا صبي ولا مجنون ، وقدرها من الغني الموسر ثمانية وأربعون درهماً في السنة ، ومن المتوسط أربع وعشرون درهماً ، ومن الفقير العامل اثنا عشر درهماً
أما في أيام المستظهر فكانت الجزية أربعين درهماً على الشخص الواحد .
الفراء : **الأحكام السلطانية** ص ١٥٣ - ١٥٥

(٣) الغزالي : **فضائح الباطنية** ص ١٨٩ ، ١٩٠

(٤) ابن الاثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٤٥٤ .
يقول الاب فييه :
إن سقوط مدينة القدس سنة ١٠٩٨/٤٩٢ بيد الصليبيين لم يتأثر به وضع أهل الذمة ببغداد ولم يسجل حادث ضدهم .

رابعاً ـ المرأة في عهد المستظهر

شاركت المرأة البغدادية الرجل في ميادين كثيرة سياسية واجتماعية وعلمية ، ومن نساء السلاطين من كان لهن دور بارز في توجيه الأحداث السياسية ، ومن أشهر نساء السلاجقة زوجة السلطان ملكشاه .

تركان خاتون : ٤٨٧/ ١٠٩٤

عندما توفي زوجها استولت على السلطة بعده وساست الأمور سياسة عظيمة ، وأنفقت الأموال التي كانت تزيد على عشرين مليون دينار فأرضت بها العسكر واتفقت مع الخليفة على ترتيب.ولدها محمود في السلطنة وعمره يومئذ خمس سنين وعشرة شهور ، وخطب له على منابر الحضرة وترتب لوزارته تاج الملك أبو الغنائم المزربان بن خسرو ، وجاء عميد الدولة بخلع من الخليفة فأفاضها على محمود ودخل إلى أمه فعزاها وهنأها عن الخليفة ، ثم خرجت إلى أصبهان[١] .

وكان ينافس ابنها أخوه بركيارق فجرت بين عساكر الطرفين معارك انتصر فيها بكريارق ، بعد أن قتل تاج الملك ، وعندما فشلت في مواجهة بركيارق أثارت ضده خاله اسماعيل بن ياقوتي أمير أذربيجان ولكنه هزم أمام قوات بركيارق أيضاً .

وكانت مصممة على الاتصال بتاج الدولة تتش بن ألب أرسلان حين وافتها المنية سنة ٤٦٧/ ١٠٧٤ وكان بيدها أصبهان ومعها عشرة آلاف فارس من الأتراك[٢] ، وهكذا باشرت الحروب ودبرت الجيوش وقادت العساكر وبموتها انحل أمر ابنها محمود وعقد الأمر لبركيارق بن ملكشاه[٣] .

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٦٢

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٢١٥ ـ ٢١٦ ، ٢٢٤ ، ٢٤٠

(٣) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٨٤ .

السيدة بنت القائم بأمر الله : ١١٠٢/٤٩٦

كانت زوجة السلطان طغرلبك وكانت موصوفة بالدين وكثرة الصدقة وكان الخليفة المستظهر بالله قد ألزمها بيتها لأنه أبلغ عنها أنها تسعى في إزالة دولته[١] .

السيدة بنت ملكشاه الثانية وزوجة المستظهر ٥٣٦/ ١١٤١

سنة ١١٠٨/٥٠٢ تزوج المستظهر خاتون بنت ملكشاه ، وقد جرى عقد الزواج في مدينة أصفهان ، عاصمة الدولة السلجوقية وكان وكيل الخليفة نظام الدين أحمد بن نظام الملك والخطيب أبو العلاء صاعد بن محمد الفقيه .

وفي سنة ١١١٠/٥٠٤ بعث الخليفة زين الاسلام أبا سعد محمد نصر الهروي إلى أصفهان لاستدعاء زوجته الخاتون ، فدخلت بغداد ونزلت بدار المملكة عند أخيها السلطان محمد وزينت بغداد ونقل جهازها في رمضان فكان على مئة واثنين وستين جملاً وسبعة وعشرين بغلاً ، وجاءت النجائب والمهور والجواري والمزينات وغلقت الأسواق ونصبت القباب وتشاغل الناس بالفرح ، وكان الزفاف في ليلة العاشر من رمضان ، وكانت ليلة زفافها من ليالي السرور العظيمة[٢] .

وفي سنة ١١٢٣/٥١٧ ، أمر المسترشد بعمارة السور على بغداد الشرقية ، وقد تناوب على العمارة أهل كل محلة لمدة أسبوع ، وكانوا يخرجون بالطبول والصنجان والملاهي وعزم الخليفة على ختان أولاده ، وزينت بغداد وعمل الناس القباب وعملت خاتون زوجة المستظهر قبة بباب النوبي وعلقت عليها من الثياب والجواهر والديباج ما أدهش الناس وعملت قبة في درب الدواب وعليها غرائب منحوتة مع الحلل ونصب عليها ستران من الديباج الرومي وعلى

---

(١) ابن الاثير : **الكامل** ١٠ ص ٣٦٦ .

(٢) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٥٩ ـ ١٦٠ ، ١٦٥ ـ ١٦٦

أحدهما اسم المتقي لله وعلى الآخر المعتز بالله وأظهر الناس مخبآتهم من الثياب والجوهر سبعة أيام بلياليهن .

وفي سنة ١١٢٧/٥٢١ ، حين توترت العلاقة بين السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وبين المسترشد جاء جماعة من عسكر السلطان يريدون اقتحام دار الخلافة من باب النوبي فمنعتهم خاتون الثانية نظراً لجاهها وعلو منزلتها ، ولكنهم عادوا فدخلوا من باب[1] الغربة ونهبوا دار الخلافة فخرجت الجواري حاسرات يلطمن ودخلن دار خاتون يستشفعن بها .

وفي سنة ١١٣٢/٥٢٦ تكلم الناس في الخاتون واتهمت بابن المهير وأخذت خيله وقريته وقتل وأشيع أنه هرب ، ثم راسل المسترشد أخاها سنجر وأخبره بأمرها وحل المسترشد اقطاعها وأقام معها في دارها من يحفظها ، وتألمت الخاتون من ذلك وكتبت إلى سنجر فرد عليها بأنه يريد أن يفتك بالمسترشد فأخذ المسترشد منها الكتاب وهيجه ذلك على الخروج للقتال ، وبهذا الأمر تنقطع العلاقة بين السلطنة السلجوقية والخلافة العباسية وتبدأ مرحلة من العداوة المريرة تنتهي بالقضاء على المسترشد والتنكيل به .

وفي سنة ١١٣٦/٥٣٠ حصلت لها محمدة ذلك حين حاصر السلطان مسعود[2] الخليفة الراشد[3] بن المسترشد وخاف أهل بغداد فحمل كثير منهم أموالهم إلى دار الخليفة ودار الخاتون ثم خرج الراشد من بغداد بعد أن سلم دار الخلافة ومفاتيحها إلى خاتون فأخرجت أصحابها لحفظ باب النوبي وهو باب من أبواب دار الخلافة وترك الراشد نساءه وأولاده عند الخاتون أيضاً ودخل مسعود بغداد واستولى على ممتلكات الراشد فذهبت اليه خاتون وردت إلى أهل الراشد

---

(١) باب الغربة : أحد أبواب دار الخلافة ببغداد .
ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٤٥٠ .

(٢) مسعود : ١١٥٢/٥٤٧ ، ابن محمد بن ملكشاه ، تمكن في السلطنة وأذعن له الأمراء .
ابن الجوزي : المنتظم ج ١٠ ص ١٥١

(٣) الراشد : ١١٣٧/٥٣٢ : هو منصور بن المسترشد ، قتله الباطنية فأصبهان ، كان مهيباً شديد القوة والبطش .
ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٦٢ .

كل ما أخذه تقريباً وهكذا عظمت منزلتها كثيراً[١] .

وفي سنة ٥٣٣ / ١١٣٩ ، وصل رسول من ابن قاورت ملك كرمان إلى السلطان مسعود يخطب خاتون زوجة المستظهر فجاء وزير مسعود إلى دارهـا فاستأذنها فأذنت فحضر القضاة دار السلطان ثم أوقع الملاك على مئة ألف دينار ونثرت الدراهم والدنانير وسيرت إليه فكانت وفاتها هناك[٢] .

وهكذا لعبت دوراً مهماً في الأحداث الكبرى التي عرفتها بغداد وكانت سبباً في تلك العداوة الشرسة بين السلطنة والخلافة .

يقول عنها ابن الساعي : كانت رئيسة جليلة من أعقل النسـاء وأشدهن حزماً وسداداً وأنشأت مدرسة بشارع سوق العسكر ووقفتها على أصحاب الامام أبي حنيفة وليس في الدنيا مدرسة أكبر منها[٣] .

قهرمانة المقتدي

ومن النساء اللواتي كان لهن التأثير المباشر في وصول المستظهر إلى مركز الخلافة قهرمانة المقتدي ، التي كانت تتمتع بنفوذ كبير فهي تنفذ مهام الـدار العزيزة كما ينفذ الوزير مهام الديوان العزيز ، وحين قدمت الطبق للمقتدي كان عنده جارية صغيرة ، «حسب» ، فمات فجأة ، فأغلقت باب الحجرة[٤] ووكلت بالباب من يحرسه وأرسلت إلى الـوزير وتعـاهدت وايـاه على تأمين مصلحـة أصحابها وأصحابه ، وعندما أخذت منه اليمين قالت : «حسن الله عزاءك في أمير المؤمنين فقد زمت أمر الدار فزم أنت أمر البلد» ، ثم أدخلته على ولي العهد المستظهر ، وقرر معه موت المقتدي وخلافته بعده ومضى الوزير إلى السلطان

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ١٠ ص ٢ ، ٢٧ ، ٢٨

(٢) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ١٠ ص ٥٩ ـ ٧٨ .

(٣) ابن الساعي : **نساء الخلفاء** ص ١٠٨ ـ ١٠٩

ناجي معروف : **عالمات بغداديات** ص ٢٠٨

(٤) باب الحجرة : موضع بدار الخلافة ببغداد وهي عظيمة الشأن عجيبة البنيان فيها يخلع على الوزراء وإليها يحضرون في أيام الموسم للهناء .

ياقوت : **معجم البلدان** ج ١ ص ٣٠٧ .

وتدارس معه الأمر ثم عاد وأجلس المستظهر وأشاع موت المقتدي كل ذلك كان بتدبير القهرمانة[1] .

قهرمانة المستظهر

كان الخطيبي يريد ازعاج المستظهر فاختار لتحقيق هذه الأمنية القهرمانة التي تستطيع أن تؤثر على الخليفة ، وقد تحدث وزير المستظهر ، ابن المطلب فقال :

ما زال الخطيبي يتقرب من دار الخلافة حتى أبصر قهرمانة المستظهر فقال لها : اليوم أجرى معي السلطان حديث هارون شقيق الامام المستظهر وسألني عنه . فدخلت القهرمانة إلى الدار وأخبرت الخليفة بحديث الخطيبي ، فثارت ثائرته واستدعى الوزير وأمره بالركوب مباشرة إلى الخطيبي وأرسل معه ستة آلاف دينار أميرية وطلب منه أن يكف عن ذكر أخيه وبهذه الطريقة أرضاه ودفع شره .

يتبين من هذه الحادثة أن قهرمانة المستظهر كانت على صلة بالأحداث الداخلية في دار الخلافة ولها تأثير على المستظهر ولذلك اختارها الخطيبي لتوصيل مكره إلى الخليفة[2] .

أما على الصعيد العلمي فقد اشتهر عدد من النساء منهن : دلال بنت أبي الفضل محمد بن عبد العزيز بن المهتدي ، سمعت أباها توفيت سنة ١١١٤/٥٠٨

رابعة بنت أبي الحكيم ١١١٨/٥١٢

ابن أبي عبد الله الحيري ، سمعت من الجوهري وابن المسلمة وابن النقور وغيرهم وحدثت وروى عنها ولدها وكانت خيرة[3] .

---

(١) ابن الساعي : الجامع المختصر في عنوان التاريخ وعيون السير ج ٩ ص ٤١ ـ ٤٢ .

٢) الخطيبي : هو حاكم اصفهان يمتاز بالاحتيال والمكر والوقيعة ، وقد رمى وزير السلطان محمد بتهمة الباطنية حتى صلب .

البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٨٩ .

(٣) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٨٠ ، ٢٠١

الحرانية وبنت الجنيد وبنت الغراد

تتلمذ عليهن في الزهد أبو الوفاء علي بن عقيل ١١١٩/٥١٣ وهو فريد دهره وامام عصره ، وبنت الغراد كانت منقطعة إلى قعر بيتها لم تصعد سطحاً قط ولها كلام في الورع .

فاطمة بنت عبد الله الخيري الفرضي : ٥٣٤/ ١١٣٩

سمعت الحديث وحدثت به .

أما في ميدان الزهد والتعبد فقد اشتهرت ببغداد :

السيدة فاطمة بنت الحسين : ١١٢٨/٥٢١

ابن الحسن بن فضلويه الرازي ، كانت واعظة متعبدة لها رباط تجتمع فيه الزاهدات سمعت أبا جعفر بن المسلمة وأبا بكر الخطيب وسمع منها صاحب المنتظم بقراءة شيخه أبي الفضل بن ناصر كتاب ذم الغيبة لابراهيم الحربي وروت مسند الشافعي(١) .

وفي مجال البر وأعمال الخير والتعبد برزت :

خاتون السفرية : ٥١٥ / ١١٢٢

كانت حظية ملكشاه فولدت له محمداً وسنجر ، وكانت تتدين وتبعث حمال السبيل إلى طريق مكة ولما حصلت في الملك بحثت عن أهلها وأمها وأخواتها حتى عرفت مكانهم ثم بذلت الأموال لمن يأتيها بهم ، فلما وصلوا إليها ودخلت أمها كانت قد فارقتها منذ أربعين سنة فجلست البنت بين جوار يقاربنها في الشبه حتى تنظر هل تعرفها أم لا ، فلما سمعت الأم كلامها نهضت إليها فقبلتها وأسلمت الأم ، فلما توفيت خاتون قعد لها السلطان محمود في العزاء(٢) .

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٢١٢ ، ٢٢٩

(٢) ابن الجوزي : المصدر نفسه ج ١٠ ص ٧ ـ ٨ ، ٨٨ .

اختلاط النساء بالرجال

لم يكن المجتمع البغدادي يستسيغ الاختلاط بين النساء والرجال في الطرق وكان المحتسب لا يسمح حتى للزوجين أن يجتمعا في طريق خال من المارة وكان يفصل بين النساء والرجال أثناء ركوب الزوارق عند عبور دجلة ، ولم يكتف المحتسب بذلك بل أصدر أمره سنة ٥٠٢/١١٠٨ بمنع النساء من العبور مع الرجال في نفس الزورق .

وصدر التشديد على النساء من المستظهر سنة ٤٩٤/١١٠٠ حين أمر المحتسب بمنعهن من الخروج ليلاً للتفرج عند افتتاح جامع القصر، ومع سهر المستظهر وعنايته بحفظ أخلاق الناس ، كانت تقع حوادث فيها مخالفة للقوانين الشرعية فبعضها يفلت من مراقبة الحكومة والبعض الآخر تتمكن من التعرف عليه .

وكان بعض الناس يخرجون على القيم الاجتماعية ؛ فكان الرجال يلتقون بالنساء خفية في الليل ولكن ذلك كان من قبيل المغامرة إذ أنهم بمحاولتهم الالتقاء بالنساء يعرضون أنفسهم لانتقام ذويهن كما حدث سنة ٥٠٠/١١٠٦ ، عندما دخل صبي إلى داره فوجد فيها رجلاً غريباً عند أخته فما كان منه إلا أن أسرع إلى قتل ذلك الرجل ، وقد يقوم بمهمة القتل هذه زوج المرأة إذا علم باتصالها برجل آخر ولا يعبأ بالنتائج المترتبة على هذا القتل بسبب الغيرة على العرض .[١] .

خامساً ـ العمران والاقتصاد في عهد المستظهر

قبل عهد المستظهر أخذ الخلفاء العباسيون يبنون قصورهم في جنوب محلة المخرم، ثم نشأ حول هذه القصور أرباض جديدة ولما تولى المستظهر أمر

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٢٣ ، ١٤٨ ، ١٥٧ ، ١٥٩ . فهد : العامة ببغداد ص ٢٦٣

الخلافة بدأ يعمل على تعمير بغداد وتحصينها ضمن الإمكانات التي يملكها . وأهم الأعمال العمرانية التي نفذها هي :

١ ـ سور الحريم

بدأ العمل بهذا السور سنة ٤٨٨/١٠٩٥ ، وانطلق عميد الدولة يجمع الأموال اللازمة لاتمام هذا المشروع وتقديم التعويضات لأصحاب الأبنية التي ستزال بسبب السور .

وأذن عميد الدولة للعامة بالاحتفال بهذا المشروع والمشاركة فيه وكانت مناسبة فريدة من نوعها حيث خرج الناس بالسلاح والأعلام والبوقات والطبول والزمور وأنواع الملاهي المعروفة .

وبدأ أصحاب المواهب الفنية والحرف والمهن وأهل الأحياء يعرضون ما عندهم في الشوارع أمام الناس والزينة ملأت شوارع المدينة أيضاً ، وخلال هذه الاحتفالات خرج الرجال والنساء وجرى كثير من التصرفات والأعمال التي تخالف الشريعة الاسلامية .

لذلك تحرك أبو الوفاء بن عقيل وأعلن سخطه على هذه الانحرافات لوزير المستظهر الذي يعتبر مسؤولاً مباشرة عن هذه المنكرات وأهمها كشف عورات الرجال أمام النساء والزنى الظاهر بباب بدر ولبس الحرير وحذره من غضب الله وسخطه ونقمته كما حذره من الانتهازيين الذين يحسنون له هذه الأعمال ويمدحونه زوراً[١] .

أحيط السور من الخارج بخندق وجعل له أربعة أبواب :

الشمالي ويسمى بباب السلطان وباب الظفرية نسبة الى ظفر أحد مماليك الخلفاء وباب خراسان ولا يزال موجوداً حتى الآن واتخذ متحفاً للأسلحة ، ثم

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٨٥ ـ ٨٦ .

باب الحلبة إذ كان هناك ميدان للعب بالكرة والصولجان[1] .

٢ ـ فتح جامع القصر[2]

سنة ١١٠٠/٤٩٤ تقدم المستظهر بتحسين جامع القصر وترميمه وإنارته ورتب فيه للامامة أبا الفضل محمد بن أبي جعفر عبد الله بن أحمد المهتدي وأمر بالجهر بالبسملة والقنوت على مذهب الشافعي ، وأن يصلى فيه صلاة التراويح ، كما طلب من المحتسب أن يمنع النساء من الخروج ليلاً للتفرج .

أسهم السلطان محمد في عمارة مدينة بغداد ، ولذلك ندب لهذه المهمة سنة ١١٠٤/٤٩٨ ، محمداً بن الحسن البلخي[3] ، وفي سنة ١١٠٨/٥٠٢، فوض إلى بهروز الخادم عمارة العراق فشرع في تتمة جامع السلطان وعمارة دار المملكة وحفر الأنهار وكذلك السواقي فازدهرت الزراعة وعم الرخص ، كما أن بهروز الخادم بنى رباطاً للصوفية قريباً من المدرسة النظامية ، ومنع النساء أن يعبرن مع الرجال في السميريات وأحسن إلى الناس في المدينة[4] .

٣ ـ بناء دار الريحانيين

وهي دار الخلافة ببغداد مشرفة على سوق الريحان ، استجدها المستظهر بالله فقد أمر بنقض دار خاتون التي بباب الغربة ودار السيدة بنت المقتدي ، وكانت بالريحانيين سوق للسفطيين فأخربه وأضافه اليها وكان فيه اثنان وعشرون دكاناً ، وهناك خان يعرف بخان عاصم فيه ثلاثة وعشرون دكاناً ومن ورائه سوق للعطارين فيها ثلاثة وأربعون دكاناً وستة عشر دكاناً كان فيها مداد الذهب وعدة آدر من دار الحرم وعمل الجميع داراً واحدة ذات وجوه أربعة متقابلة وسعة صحنها ستمائة ذراع في وسطها بستان وفيها ما يزيد عن ستين حجرة ينتهي آخرها إلى

---

(١) فرنسيس : بغداد تاريخها وآثارها ص ٩ ـ ٣٥ .

(٢) سنة ٤٨٥ / تقدم ملكشاه بعمارة هذا الجامع وفي سنة ١١٣٠/٥٢٤ تم بناؤه على يد بهروز الخادم

ابن الجوزي : مناقب بغداد ص ٢٢

(٣) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٢٣ ، ١٤٣

(٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ص ٢٧

ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٥٩

الباب المعروف بدركاه خاتون من باب الحرم قرب باب النوبي وابتدىء بعملها في سنة ۱۱۰۹/٥٠٣ وفرغ منها في سنة ۱۱۱۳/٥٠٧[١] .

وأمر الامام المستظهر ببيع البدرية وهي منسوبة الى بدر غلام المعتضد بالله وكانت من أحسن دور الخلفاء وكان ينزلها الراضي بالله ثم تهدمت وصارت تلاً فأمر القادر أن يسور عليها سوراً لأنها مع الدار الإمامية أما المستظهر فقد سمح ببيعها وعمرها الناس[٢] .

٤ ـ الدار السلطانية

وفي سنة ۱۱۰۹/٥٠٣ عندما دخل السلطان إلى بغداد فوض عمارة المدينة إلى عميد الدولة بن صدقة أبي علي وفي سنة ١١١٥/٥٠٩ تكاملت عمارة الدار التي استجدها بهروز الخادم في الدار السلطانية وحمل اليها أعيان الدولة الفروش الحسنة والكسي الرائقة ، واستُدعي القراء والفقهاء والقضاة والصوفية فقرأوا فيها القرآن ثلاثة أيام متوالية احتفاء بانتهاء البناء[٣] .

٥ ـ الحمامات

بلغ الاعتناء بالحمامات والاكثار منها مبلغاً كبيراً في الدولة العباسية حتى أصبح عددها ببغداد مضرب الأمثال ، وكانت هذه الحمامات على نوعين من حيث الملكية خاصة وعامة .

الخاصة هي التي يمتلكها التجار والوزراء والقادة والقضاة والأشراف في دورهم. إن الحمامات العامة كانت كثيرة ببغداد أما نسبتها فكانت تختلف بين فترة وأخرى ففي أيام المقتدر كان عددها سبعة وعشرين ألف حمام وفي سنة ١٠٢٩/٤٢٠ قدرت بمائة وسبعين حماماً[٤] ، وقد يعود انحسارها إلى خراب الكثير منها نتيجة لحدوث الحرائق وعبث الجند البويهي .

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٤٢٠
(٢) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٥١٤
(٣) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٦٣ ، ١٨٢
(٤) ابن الجوزي : مناقب بغداد ص ٢٤

وكانت الحمامات العامة على صفتين من حيث النوعية ؛ حمامات للرجال وأخرى للنساء ، ولم تكن الحكومة غافلة عن أمر الحمامات ومراقبتها لذلك رأينا القاضي أبا حفص محمداً بن مبارك ما أن يتولى الحسبة سنة ٤٩٤/١١٠٠ حتى بادر إلى معالجة هذه الحالة في الحمامات فأصدر أمره إلى قوام الحمامات بعدم السماح لأي شخص من الدخول إلى الحمام بلا مئزر وتهديد من يفعل ذلك بالإشهار .

٦ ـ المدارس والأربطة والمشاهد

من مظاهر الحركة العمرانية ببغداد أيضاً :

ـ بناء المدارس لطلبة العلم والثقافة[١] .

ـ وبناء الأربطة لطلبة الزهد والتعبد .

ـ والمساجد .

ـ والمشاهد على القبور[٢] .

الحالة الاقتصادية في عهد المستظهر

تأثرت الحالة الاقتصادية في مدينة بغداد بالعوامل التالية :

١ ـ الحروب الخارجية

إن المعارك العديدة التي نشبت بين السلطان بركيارق وأخيه السلطان محمد التي استمرت فترة طويلة من الزمن أدت إلى تخريب الحياة الاقتصادية في معظم مناطق السلطنة السلجوقية وخاصة في الأماكن التي كانت مسرحاً للاعمال العسكرية ، وبغداد كانت هدفاً للسلاطين السلاجقة لأنها مركز الخلافة العباسية ، لذلك كانت الجيوش السلجوقية تتنافس للسيطرة عليها حتى دارت في

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٢٨ ، ١٢٩

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٢٦ ، ٤١٥ .

داخلها الحرب بين قوات الطرفين محمد وبركيارق ، وكان للاعتداءات التي يقوم بها جنود السلاجقة بين الحين والآخر على بغداد أثر كبير في تدهور الحالة الاقتصادية[1] .

٢ ـ الفتن الداخلية

لعبت الفتن الداخلية في بغداد دوراً بارزاً في إضعاف النشاط الاقتصادي فالأحداث التي جرت سنة **١٠٩٣/٤٨٧** وفي سنة **١١٠١/٤٩٥** أدت إلى إحداث شلل في حركة البيع والشراء وشجعت العيارين على تطوير نشاطهم وخاصة في الجانب الغربي من بغداد مما زاد في تأزيم الحالة الاقتصادية[2] .

٣ ـ الاحداث الطبيعية

إن الكوارث الطبيعية التي وقعت في بغداد جعلت الحالة الاقتصادية تسوء كثيراً ، فالحرائق الكبرى اندلعت حوالي ست مرات وكان اكبرها حريق سنة **١١١٦/٥١٠** الذي امتد من دجلة إلى المدرسة النظامية ، كما ان فيضانات دجلة التي حدثت سنة **١١٠٥/٤٩٩** وفي سنة **١١٠٨/٥٠٢** أدت إلى ازعاج الناس وهلاك الغلات الزراعية ، وكذلك زلزال سنة **١١١٧/٥١١**[3] .

٤ ـ الزراعة

رغم الظروف السياسية القاسية التي عرفتها مدينة بغداد ، فقد عمل الخليفة على تشجيع التجارة والزراعة ، من أجل تحسين مستوى الحياة الاقتصادية .

ويأتي هبة الله بن المطلب في طليعة وزراء المستظهر الذين ساهموا في تطوير الانتاج الزراعي إذ تمكن بفضل جهوده وسهره من تحقيق فائض في الغلات الاستهلاكية[4] .

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٢٣ ، ١٣٥

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨

(٣) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٤٦ ، ١٨٤ ، ١٩٣ .

(٤) ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص ٣٠١ .

٥ ـ حركة الاسعار

إن حركة الأسعار ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحالة الاقتصادية :

فإذا ساءت الحالة الاقتصادية وقع الغلاء وزادت الأسعار ، وكثرت الأوبئة والأمراض وقلت المؤن والمواد الغذائية وقد يموت الناس جوعاً. وهذه الحالة تكررت في عهد المستظهر مرات عدة وخاصة قبل أن يحل الصلح بين السلطان محمد وبركيارق[1] .

ولكن بعد أن انفرد السلطان محمد بأمر السلطنة ، بدأ يعمل على توطيد الأمن والاستقرار وإشاعة العدل بين الناس فتحسنت الحالة الاقتصادية وعم الهدوء والطمأنينة ، وتوافرت الغلات الاستهلاكية وعم الرخص ، وهذا ما حدث ببغداد سنة ٤٩٥/١١٠١ وما بعدها[2] . وفي سنة ٥٠١/١١٠٧ ، أقدم السلطان محمد على خطوة جيدة عندما ألغى الضرائب والمكوس وكتب هذه الأوامر على لوحات نشرت في الأسواق مما أدى إلى انفراج في الأسعار[3] .

وهكذا نلاحظ بأن ميزان الأسعار كان يرتبط بالحالة السياسية والاقتصادية السائدة داخل بغداد وخارجها .

سادساً ـ الكوارث الطبيعية ببغداد في عهد المستظهر

إن الأحداث الطبيعية التي شهدتها بغداد في عهد المستظهر ، من حرائق وفيضانات وزلازل وأوبئة وجفاف وقحط ، ساهمت في زيادة المآسي والآلام التي كان يكابدها الناس ويعانون منها .

١ ـ الحرائق

ويأتي في طليعة تلك الكوارث الحرائق التي كانت تشتعل بين الحين

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٠٩ ، ١١٣ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ـ ١٣٨ ، ١٩٣

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٩٦ ، ٥٤٤

(٣) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٣٢

والآخر والخسارة تكون على حجم الحريق وقوته ، وأولها حريق وقع سنة ١٠٩٩/٤٩٣ بخرابة ابن جردة حيث التهمت النيران معظمها وكانت الريح عاصفة فطارت شرارة أحرقت داراً برحبة الجامع وأخرى أحرقت دار الوزير بباب العامة[١] .

وفي سنة ٤٩٥/ ١١٠١ وقعت نار بنهر معلى واتلفت أموالاً عظيمة[٢] .

أما سنة ١١٠٧/٥٠١ فكانت سنة الحرائق ببغداد وأول حريق شب في خرابة ابن جردة وكانت حضيلته إتلاف ما يزيد عن ثلثمائة ألف دينار وهلاك نفوس كثيرة ومن الناس من فر بواسطة ثقب إلى مقابر باب ابرز . وتجدد الحريق عدة مرات بدرب القيار وغيره حتى ارتاع الناس وأقاموا على سطوحهم من يحفظها وانشغلوا بهذا الامر وتعطلوا عن معايشهم .

وفي سنة ١١١٤/٥٠٨ وقع حريق في الريحانيين وقنطرة باب بدر هلك فيه عقار جليل ، وفي سنة ١١١٥/٥٠٩ وقع حريق في قراح أبي[٣] الشحم احترقت فيه دور ودكاكين كثيرة . أما الحريق الكبير الذي فاق كل الحرائق التي سبقته فهو الذي وقع سنة ١١١٦/٥١٠ في دكاكين الحطب على دجلة وامتدت النار إلى باب المراتب[٤] فأحرقت كنائسها واحترقت الدور بدرب السلسلة وامتدت النيران إلى المدرسة النظامية فأحرقت دار الكتب فيها إلا أن الكتب سلمت لأن الفقهاء تمكنوا من نقلها إلى مكان آخر ووصلت إلى دور الخليفة ورباط بهروز وكان ذلك عبرة لمن اعتبر .

وفي سنة ١١١٨/٥١٢ قبيل وفاة المستظهر احترقت الريحانيين وسوق عبدون[٥] . ويقول سبط ابن الجوزي أنه احترقت ببغداد من الجانب الشرقي

---

(١) باب العامة : أحد ابواب دار الخلافة ببغداد .

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١١٣

(٣) قراح أبي الشحم : محلة كبيرة من بغداد فيها أسواق ومساجد .
ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٣١٦ .

(٤) باب المراتب : هو أحد أبواب دار الخلافة وأشرفها .
ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٣١٢ .

(٥) سوق عبدون : يقع في الجانب الشرقي من بغداد .

حريقاً أتى على معظم أسواقها ودورها وخاناتها ولم يبق منها إلا شيء يسير[1]

٢ ـ فيضانات نهر دجلة

دجلة هو الذي يمد بغداد بالخصب والخيرات ، واذا ما غضب زرع فيها الخراب والدمار ، ففي سنة ٤٩٩/١١٠٥ فاض في فصل الشتاء حيث هلكت الغلات الزراعية وخربت دور كثيرة وانزعج الخلق ، وفي ربيع سنة ٥٠٢/١١٠٨ فاض من جديد وقطع الطرق وغرقت الغلات الشتوية والصيفية ، مما أدى إلى حدوث غلاء عظيم وفقد الخبز رأساً وأكل الناس التمر والباقلاء الخضراء ، أما أهل السواد فأكلوا الحشيش والتوت[2] .

٣ ـ زلازل في بغداد

وقع زلزال واحد ببغداد في عهد المستظهر سنة ٥١١/١١١٧ ، وأدى الى خراب دور ودكاكين كثيرة في الجانب الغربي[3] .

كانت الكوارث الطبيعية من حرائق وفيضانات وزلازل ، تسهم في زيادة حجم الخسائر الاقتصادية والبشرية ، ويبدو أن مقاومة هذه الكوارث كانت تعتمد على وسائل بدائية جداً ، لذلك نلاحظ تحكم الحرائق في الأبنية والشوارع قبل أن يتمكن الناس من اطفائها .

---

(١) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٥٧ ، ١٨٠ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٩٦

(٢) ابن الاثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٤٧٠ ـ الحسيني : **عمران بغداد** ص ٧٩ .

(٣) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٩٣ .

خـاتمـة

تميزت العلاقة بين المذاهب الاسلامية في عهـد المستظهـر ، بالصلح والمودة والاحترام وهذا كان بفضل السياسة الحكيمة التي اتبعهـا الخليفة في معاملة عامة الناس .

كان العيارون يوجهون نشاطهم ضد رجال الحكم العباسيين والسلاجقة ، وقد ظهرت قوتهم في الجزء الغربي من بغداد حيث عجزت السلطة السلجوقية عن مقاومتهم . إنهم يمثلون المعارضة الشعبية للحكم الأجنبي وهم من الفقراء والمسحوقين والمعدمين .

ويعتبر عهد المستظهر من أزهى العهود التي عرفها أهل الذمة ببغداد ، لأن المستظهر حرص على معاملتهم بالحسنى وقرب زعماءهم وأزال عنهم الغيار ، كما تمكنت المرأة البغدادية أن تبرع في حقول عديدة سياسية ودينية وعلمية وفي مجالات البر والإحسان .

وحرص المستظهر على تطوير العمران والاقتصاد وقد ساعده في هذا الأمر حالة الاستقـرار والهدوء التي رافقت حكم السلطان محمـد بن ملكشاه ورغم الكوارث الطبيعية فقد تحققت مشاريع عمرانية جديدة وتحسنت الزراعة .

إن الجهود التي بذلها المستظهر والحكام السلاجقة أثمرت ببغداد تحسناً ملموساً من الناحية الاجتماعية والدينية والاقتصادية والعمرانية مما يزيد من أهمية وصف ابن الاثير لأيام المستظهر بالله العباسي ، بأنها من حسنهـا كأنهـا أعياد ومسرة .

الحياة العلمية ببغداد في عهد المستظهر

مقـــدمـــة

إن الحيـاة العلمية في أيـام المستظهـر ، تأثـرت بالعـوامـل السيـاسيـة والاجتماعية والاقتصادية التي ألمت بعاصمة العبـاسيين ، وفي **الفصل الثـاني** أعطينا صورة عن العلاقات السياسية والدينية التي كانت تربط المستظهر بالقوى الداخلية والخارجية .

أما في **الفصل الثالث** فقد تم الحديث عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية داخل المدينـة ، وهذا الفصـل سيتناول الحيـاة العلمية والثقـافية من جـوانبها المختلفة .

وتم تقسيم البحث إلى خمس عشرة نقطة :

في **النقطة الاولى** بحثت المدارس الفقهية الجديدة التي نشأت ببغـداد وتعتبر ظاهرة المدارس من الانجازات الحضارية المهمة التي أسهمت في توفير الظروف الملائمة لطلبة العلم وهذا ما جعل الحركة الفقهية والعلمية تصل إلى مرحلة متقدمة من النضج والانتشار .

في **النقطة الثانية** تم بحث الحركة الفقهية من جوانبها المختلفة ؛ التيار الحنبلي هو المسيطر ويليه التيار الحنفي والشافعي ، أما التيار المالكي فكـان هزيلاً جداً ، والتيار الشيعي كان نفوذه ضعيفاً في أيام المستظهر .

ويمتاز فقهاء هذه الفترة بتنوع الثقافة الاسلامية والأدبية والعلمية ، منهم من عمل في أجهزة الخلافة العباسية أو في أجهزة الدولة السلجوقية ، ومنهم من اشتغل في التدريس والتصنيف ومنهم من اشتهر بالتعبد والزهد .

وعلى العموم كانت الحركة الفقهية في زمن المستظهر مزدهرة وقد برز عدد من الفقهاء الكبار أمثال الشاشي وابن عقيل وابو الخطاب البغدادي ورزق الله التميمي الذين لعبوا دوراً مهماً في دفع الحركة الفقهية والعلمية إلى الأمام .

في النقطة الثالثة ذكرت أهم رجال التفسير الذين ظهروا في تلك المرحلة وعلى رأسهم النسفي والتميمي ، وامتاز علماء التفسير بثقافة شاملة ومتنوعة وقدموا للمكتبة الاسلامية مجموعة قيمة من التفاسير التي لا تزال تحتل مرتبة حسنة حتى الآن .

في النقطة الرابعة جرى الحديث عن القراء الذين برزوا في أيام المستظهر ، وكانت هناك جمهرة كبيرة من علماء القراءة قدموا للمجتمع البغدادي عدداً كبيراً من المصنفات في علم القراءة ، وبعضهم احتل منزلة اجتماعية جيدة حين قدمه المستظهر ليكون اماماً له في الصلاة ، وبعضهم بذل جهوداً كبيرة في نشر هذا العلم بين الناس .

في النقطة الخامسة ذكرت بعض رجال الحديث الذين برزوا ببغداد واهتموا بعلم الحديث وروايته والصفات التي تمتعوا بها من صدق وأمانة وزهد في الدنيا ومتاعها .

في النقطة السادسة تكلمت عن النجاح الذي حققته الحركة الصوفية حين انضم اليها أبو حامد الغزالي وصنف كتابه « احياء علوم الدين » في التربية الروحية ، وقدمت الحركة الصوفية نماذج جيدة في أيام المستظهر حتى ان بعضهم وصل إلى مرحلة الكرامة .

والدولة السلجوقية أسهمت في دفع الصوفية إلى الأمام حين بنت لها الاربطة وكرمت زعماءها البارزين .

في **النقطة السابعة** تناولت الأدب في أيام المستظهر، والظاهرة اللافتة للنظر هي كثرة الشعراء الذين نبغوا في هذه المرحلة رغم انحطاط مركز الخلافة العباسية ، والشيء الثاني المهم هو الثقافة المتنوعة التي تمتع بها الشعراء ثم بروز عدد من الشعراء الفرس الذين نظموا باللغة العربية ، والمرحلة حد فاصل بين الابداع والجمود .

في **النقطة الثامنة** درست علوم اللغة العربية وبينت أن هذه المرحلة تعتبر مرحلة النضج في هذه العلوم ، وقد برع عدد من العلماء الذين قدموا إلى المكتبة اللغوية مصنفات لا تزال تحتل مركز الصدارة في هذا الميدان وخاصة مصنفات الحريري والتبريزي والجواليقي وابن الشجري وغيرهم .

في **النقطة التاسعة** تحدثت عن المؤرخين الذين برزوا في ايام المستظهر ببغداد وذكرت أشهر هؤلاء المؤرخين وخاصة الأبيوردي والهمذاني .

إن المصنفات التاريخية لهذه الفترة كانت بسيطة ومتواضعة .

في **النقطة العاشرة** ألقيت نظرة على الفلسفة الاسلامية التي كانت سائدة ببغداد والسيطرة كانت للتيار السلفي والديني وقد تمكن الامام أبو حامد الغزالي ان يقف في وجه الأفكار الفلسفية الاغريقية التي تناقض العقيدة الاسلامية وأن يرد عليها رداً قاسياً وشاملاً ، ولا تزال مصنفاته في هذا المجال تنال اهتمام الباحثين في الشرق والغرب ، والامام الشهرستاني أتحف المكتبة الفكرية والفلسفية بكتابه القيم « الملل والنحل » والذي يحتفظ حتى اليوم بأهميته العلمية .

في **النقطة الحادية عشرة** أعطيت لمحة عن علم الفلك وعن المنجم ابن عيشون الذي قربه المستظهر وأعطاه مكافأة على ما عنده من معرفة فلكية .

في **النقطة الثانية عشرة** ذكرت أهم أصحاب علم الحساب والميزات العلمية والخلقية التي تمتعوا بها .

في **النقطة الثالثة عشرة** تحدثت عن الطب في أيام المستظهر ، وعن أشهر

الأطباء الذين عرفتهم مدينة بغداد وما قدموه من مصنفات طبية وما امتازوا به من معرفة متنوعة ، كما ذكرت العناية التي لقيها الأطباء من المستظهر وخاصة ابن الواسطي الذي كان قريباً من مقام الخلافة .

في النقطة الرابعة عشرة لخصت مواقف العلماء من المستظهر بالله العباسي وأعطيت ثلاثة نماذج من هؤلاء العلماء .

- الأول : موقف الامام الغزالي الذي يؤيد المستظهر بحماسة قوية وهذا يظهر من خلال كتابه « فضائح الباطنية » .

- الثاني : موقف الامام أبي بكر الشاشي الذي صنف كتاباً في الفقه هو « حلية العلماء » وفي مقدمته يعلن ولاءه للمستظهر .

- الثالث : موقف محمد بن عبد الملك الهمذاني الذي صنف « تكملة تاريخ الطبري » وفي مقدمة هذا الكتاب يعلن طاعته للامام المستظهر .

في النقطة الأخيرة بحثت موقف الامام الغزالي من السلطان محمد بن ملكشاه من خلال كتابه « التبر المسبوك في نصيحة الملوك»، وهو موجه إلى السلطان محمد وفيه تفصيل لأصول الايمان وفروعه ، ونصائح أخرى في العدل والاحسان إلى الرعية وحسن اختيار الوزراء والمسؤولين .

أولاً ـ المدارس في عهد المستظهر

استمرت حركة بناء المدارس في بغداد في عهد المستظهر ، وظهرت مدارس جديدة إلى جانب المدارس القديمة ، وكان أتباع المذاهب يتسابقون في هذا المضمار سواء على مستوى الدولة أم على مستوى الافراد ، من أجل نشر مذاهبهم وزيادة أنصارهم من الفقهاء والعلماء الذين كان لهم دورهم البارز في توجيه حياة الناس ،

وفي سنة ١١٠٦/٤٩٨ قصد الوزير سعد الملك المدرسة النظامية وحضر

تدريس الكيا الهراسي بها ليرغب الناس في العلم والمعرفة[١] .

والخليفة نفسه كان يشجع العلماء ويكرمهم ويستعين بهم[٢]، وإذا كانت المدارس ظاهرة من ظواهر التقدم الديني فهي بنفس الوقت استجابة للحاجات الاجتماعية لأن الموظفين في أجهزة الدولة يختارون عادة من الفقهاء ورجال العلم الذين يتخرجون من تلك المعاهد.

ونلاحظ في بغداد ثلاثة أنواع من المدارس هي :

أ ـ المدارس الحنفية

١ ـ مدرسة سعادة

ـ بنى هذه المدرسة الامير سعادة الرسائلي خادم الخليفة المستظهر بالله[٣] وألحق في جوارها رباطه المعروف للصوفية على شاطىء نهر دجلة في موضع المحاكم المدنية الحالية ، وقد دامت هذه المدرسة فترة جد طويلة تقرب من قرنين من الزمان حيث تأسست في أواخر القرن الخامس للهجرة وبقيت عامرة إلى ما بعد الاحتلال المغولي لبغداد وآخر خبر تدريس بالمدرسة كان سنة ٦٨٢/١٢٨٣[٤] .

ـ مؤسس المدرسة : هو الامير سعادة بن عبد الله الرومي المستظهري (نسبة لسيده) الخادم الرسائلي ، ذكره ابو الحسن محمد بن عبد الملك الهمذاني في تاريخه فقال : « كان خادماً شهماً له منظر حسن ومختبر مستحسن يفصح بأكثر اللغات ، أرسله المستظهر بالله الى السلطان محمد بن ملكشاه سنة ٤٩٥/١١٠١ ، وأخرج معه الشيخين الحسن بن محمد[٥] الاستربادي وأبا

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٤٣

(٢) الشاشي : حلية العلماء ج ١ ص ٥٣ ـ ٥٤ .

(٣) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب ج ٤ ، القسم الاول ص ١٥٨

(٤) عماد رؤوف : مدارس بغداد ص ٤٥ .

(٥) الاستربادي : ٥٤١/١١٤٦ ، برع في الفقه وحدث ببغداد .
ابن ابي الوفا : الجواهر المضية في طبقات الحنفية ص ٢٠١

سعد بن الحلواني فمضى وأدى الرسالة وقفل من حضرته بالأموال العظيمة وصار يتولى المصالح مع الشحنة البرسقي وعمر لنفسه الدار الجميلة على دجلة وهي التي أوقفها على الصوفية وجعل أمرها إلى القاضي وجيه الدين عمر[1] السهرودي البكري[2] .

٢ ـ المدرسة التتشية

ـ بناها خمارتكين بن عبد الله التتشي مولى تاج الدولة تتش بن ألب ارسلان بباب الأزج ببغداد كما بنى البيمارستان التتشي أيضاً وغيره من الأبنية ، مات سنة ١١١٤/٥٠٨[3] .

٣ ـ المدرسة المغيثية

منسوبة الى مغيث الدين محمود بن محمد السلجوقي، ١١٣١/٥٢٥ ، تولى السلطنة سنة ١١١٨/٥١٢ ، خطب له ببغداد وغيرها ولعمه سنجر وكانت له معرفة بالنحو والشعر والتاريخ[4] .

ـ ومن الفقهاء الذين درسوا في هذه المدرسة :

ـ محمد بن محمد بن الحسين : ١٦٥١/٥٤٦ .

ابن صالح الضرير الحنفي ، كانت له معرفة تامة بالفقه وناب في التدريس بمشهد أبي حنيفة ثم درس بالغياثية[5] .

٤ ـ مدرسة جامع السلطان

سنة ١٠٩٢/٤٨٥ ، أمر السلطان ملكشاه الأول بن ألب ارسلان ببناء دار

---

(١) عمر السهروردي : قدوة اهل التوحيد وشيخ العارفين .
ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج ٥ ص ١٥٣

(٢) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب ، القسم الاول ص ١٥٨ ـ ١٥٩ .

(٣) السمعاني : الأنساب ج ٣ ص ١٩
ناجي معروف : نشأة المدارس المستقلة في الاسلام ص ٢١

(٤) الذهبي : العبر في خبر من غبر ج ٤ ص ٦٦ .

(٥) الذهبي : العبر في خبر من غبر ج ٤ ص ٦٦ .

السلطنة وإضافة الأسواق والخانات اليها ودور الضرب ، كما أمر ببناء جامع قريب من قصره عرف فيما بعد بجامع المدينة أو جامع السلطان[1] .

ـ وفي سنة ١١٠٨/٥٠٢ ، ابتدأ بهروز أبو الحسن الخادم الأبيض مولى السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه بانشاء مدرسة كبرى لتدريس الفقه الحنفي . ـ

٥ ـ المدرسة الموفقية

ـ بنى هذه المدرسة موفق بن عبد الله الخاتوني خادم الخاتون زوجة المستظهر ، وهي تقع في سوق العسكر. يقول ابن الساعي « وليس في الدنيا مدرسة أكبر منها »،وكانت خاتون قد وقفتها على أصحاب أبي حنيفة ، وفي أيام ابن الساعي كانت المدرسة قد خربت وليس لها باب ولا يمكن السكن فيها[2] .

ب ـ مدارس الشافعية

بنى ثقة الدولة ابن الانباري[3] مدرسة لأصحاب الشافعي على شاطىء دجلة بباب الأزج وإلى جانبها رباطاً للصوفية ووقف عليها وقوفاً حسنة[4] .

ج ـ مدارس الحنابلة

١ ـ مدرسة المخرمي

بناها ابو سعد المخرمي[5] بباب الأزج وأوقفها للحنابلة ثم جددها ووسعها

---

(١) ابن أبي الوفا : **الجواهر المضية** ج ٢ ص ١١٥

الصفدي : **الوافي بالوفيات** ج ١ ص ١٦١

(٢) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٦٠ ، ١٥٩

(٣) ابن الانباري : هو علي بن محمد بن يحيى ابو الحسن الدريني ، كان من الأماثل والأعيان واختص بالامام المقتفي لأمر الله وكان فيه أدب ويقول الشعر وسمع الحديث . توفي سنة ١١٥٤/٥٤٩

ابن خلكان : **وفيات الاعيان** ج ٢ ص ٤٧٨ .

(٤) ابن خلكان : **وفيات الاعيان** ج ٢ ص ٤٧٨ .

(٥) ابو سعد المخرمي : ١١١٩/٥١٣ .

المبارك بن علي ابن الحسين سمع الحديث ودرس الفقه وأفتى ودرس وجمع كتباً كثيرة ولم يسبق إلى جمع مثلها ، شهد عند أبي الحسن الدامغاني وناب في القضاء عن السيبي والهروي وكان حسن السيرة جميل الطريقة شديد الأقضيه ووكل بالديوان على حساب وقوف الترب وعند

تلميذه عبد القادر[1] الكيلاني ١١٦٥/٥٦١

٢ ـ مدرسة أبي شجاع[2]

بنى مدرسة لأصحاب أحمد بباب الأزج ثم وقف قطعة من أملاكه على الفقهاء الذين يدرسون فيها[3] .

٣ ـ مدرسة الابرادي

- بنى مدرسة لأصحاب أحمد بن حنبل بالبدرية[4].

- إذا كانت المدرسة النظامية قد استأثرت بالشهرة طوال عهد ملكشاه، فإن الذي يلفت النظر في عهد المستظهر هو تفوق المدارس الحنفية ، التي عمل على انشائها المسؤولون السلاجقة وقد بلغت المدارس الجديدة التي نشأت ببغداد ، خمس مدارس حنفية وثلاثة مدارس حنبلية ومدرسة شافعية واحدة .

وأكثر المدارس كانت تخصص لها أوقاف من أجل الانفاق على المدرسين وعلى الطلاب ، وبجانب المدارس كانت تنشأ الأربطة الموقوفة على العبادة والزهاد ، وفترة التدريس كانت تختلف في الطول والقصر من مدرسة إلى أخرى

وفاته دفن قرب أحمد بن حنبل .

من العلماء الذين درسوا في مدرسة ابي سعد المخرمي :

الشيخ عبد القادر الجبلي : ١١٦٥/٥٦١

صاحب المقامات والكرامات وشيخ الحنابلة : كان امام زمانه وقطب عصره وشيخ شيوخ الوقت بلا مدافعة ، صنف في الفروع والاصول .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٢١٥ - ٢١٦

الكتبي : **فوات الوفيات** ج ٢ ص ٣٧٣ - ٣٧٤

المخرمي : بكسر الراء منسوب الى المخرم . محلة بشرق بغداد .

ابن رجب : **ذيل طبقات الحنابلة** ج ٣ ص ١٦٦

(١) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٢١٦

فرنسيس : **بغداد تاريخها وآثارها** ص ١٦

(٢) ابو شجاع : هو بهرام بن بهرام سمع الحديث وكان كريماً . توفي سنة ١١٢٦/٥٢٠

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٢٦٢

(٣) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٢٦٢

(٤) الابرادي : هو محمد بن أحمد بن علي أبو الحسن . توفي سنة ١١٣٦/٥٣١

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ١٠ ص ٧٠ .

حتى أن إحداها استمر التدريس فيها قرنين من الزمن .

وأساتذة المدارس كانوا يتمتعون بثقافة دينية وأدبية عالية ، لذلك كانت بغداد مقصداً لرواد العلم في أيام المستظهر حتى من المغرب العربي والأندلس .

إن التنافس بين رجال الحكم السلجوقي ورجال الخلافة العباسية من أجل انشاء المدارس وتسهيل سبل المعرفة يعتبر من الظواهر الحضارية الجديرة بالعناية والاهتمام .

ثانياً ـ الحركة الفقهية في عهد المستظهر

وصلت الحركة الفقهية إلى درجة عالية من النمو والنضج في عهد المستظهر بالله ، أما العوامل التي ساعدت في تطوير الحركة الفقهية عديدة منها :

ـ تشجيع الدولة السلجوقية والخلافة العباسية للمذاهب الفقهية .

ـ بناء المدارس الكثيرة ببغداد التي أخذت على عاتقها الاهتمام بالفقهاء من الناحية العلمية والاجتماعية .

ـ حاجة مؤسسات السلطنة والخلافة إلى الطاقات العلمية المثقفة .

وأرادت الدولة السلجوقية والخلافة العباسية مواجهة التحديات العقائدية التي أحدثتها الحركة الفاطمية من جانب والحركة الباطنية من جانب آخر فلجأت إلى أسلوب التعليم في المدارس والمساجد واستقطبت طلاباً من بغداد ومن مناطق اسلامية بعيدة[١] .

أما الفقهاء فبعضهم يشغل مراكز في الدولة تتناسب مع مقامهم الديني

---

(١) ابن رجب : الذيل على طبقات الحنابلة ج ٣ ص ٤٩ ، ٦٩ ، ٨٦ ، ٨٩ .
ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٩٦ .

والاجتماعي[1] وبعضهم برع في عدد من العلوم الاسلامية كعلم الحديث والفقه والتفسير وعلم القراءات والنحو والصرف وغيره[2] .

ومنهم طائفة غلب عليها الزهد والورع فتعالت على ممارسة عمل في أجهزة الدولة حتى تصون سيرتها من أي غش قد يلحق بها[3] .

والمذاهب الفقهية التي كانت سائدة في عهد المقتدي استمرت في أيام المستظهر وهي كما يلي :

أ ـ فقهاء المذهب الحنبلي

من الفقهاء الذين نبغوا في مذهب أحمد بن حنبل نذكر :

ـ رزق الله بن عبد الوهاب التميمي[4] ، وعبد الملك بن ابراهيم[5] ، وعلي بن المبارك الكرخي[6] ، وعبد الله بن جابر[7] ، وعبد الباقي بن حمزة بن

---

(١) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٨٨ ـ ٨٩ .

(٢) ابن الجزري : **غاية النهاية في طبقات القراء** ج ١ ص ٥٥٦ ـ ٥٥٧ .

(٣) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٠٠

(٤) ابن عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن الليث بن سليمان بن الأسود بن سفيان ابن يزيد بن اكينة ابن عبد الله ، شهد عند ابي عبد الله الدامغاني ، وكان قد اجتمع له القراءات والفقه والحديث والادب والوعظ وكان جميل الصورة فوقع له القبول بين الخواص والعوام وجعله المستظهر رسولاً إلى السلطان في مهام الدولة وله الحلقة في الفقه والفتوى والوعظ بجامع المنصور وجامع القصر ، كان سيد الجماعة من أصحاب أحمد يمناً ورياسة وحشمة . توفي سنة ١٠٩٥/٤٨٨
ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٨٨ ـ ٩٩ .

(٥) ابن احمد الهمذاني : **١٠٩٥/٤٨٩**
كان يعرف العلوم الشرعية والادبية إلا أن علم الحساب والفرائض انتهى إليه ، وكان قد تفقه على أقضى القضاة أبي الحسن الماوردي ، كان عفيفاً زاهداً استدعاه الوزير ابو شجاع ليتولى قضاء القضاة فاعتذر ترفعاً .
ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٠٠

(٦) علي بن المبارك الكرخي : **١٠٩٥/٤٨٩**
من أقران ابن عقيل ، تفقه وكان كثير الذكاء قيماً بالفرائض .
ابن رجب : **الذيل على طبقات الحنابلة** ج ٣ ص ٨٧ .

(٧) عبد الله بن جابر : **١٠٩٩/٤٩٣**
ابن ياسين بن الحسن بن محمد بن أحمد بن محمويه ، سمع الفقه والحديث ، كان صدوقاً مليح المحاضرة حسن الخط ، كثير القراءة للقرآن ، حسن الحساب .
ابن رجب : **الذيل على طبقات الحنابلة** مجلد ٣ ص ٨٧ ـ ٨٨ .

الحسين بن الحداد[1] ، ومحمد بن الحسن[2] ، ومحمد بن محمد[3] ، وابو سعد البرداني[4] ، والمبارك بن عبد الجبار[5] ، ومحمد بن علي[6] ، وعلي ابن محمد[7] ، ومحفوظ بن احمد[8] ، وعقيل بن محمد[9] ، وصالحة بن أحمد[10] ، وعلي بن عقيل .

---

(١) شيخ صالح خير قرأ الفقه وله يد بالفرائض والحساب وله كتاب « الايضاح في الفرائض » توفي سنة ١٠٩٩/٤٩٣

ابن رجب : **الذيل على طبقات الحنابلة** مجلد ٣ ص ٩٠ .

(٢) ابو عبد الله الراذاني : كان فقيهاً مقرئاً من الزهاد والمنقطعين والعباد الورعين له كرامات .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٢٧

(٣) ابن عبد العزيز النحاس أبو الفرج قاضي العراق . توفي سنة ١١٠١/٤٩٥ .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٣٣

(٤) محمد بن الحسن الحنبلي : كان من الفقهاء وتوفي سنة ١١٠٢/٤٩٦

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٣٦

(٥) ابن أحمد بن القاسم بن أحمد ابو الحسين الطيوري الصيرفي : ١١٠٦/٥٠٠ وكان صالحاً اميناً صدوقاً متيقظاً صحيح الأصول حافظاً ورعاً حسن السمت كثير الصلاة سمع الكثير ونسخ بخطه انتشرت عنه الرواية .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٥٤

(٦) ابن محمد بن عثمان بن المراق الحلواني : سمع الحديث ودرس الفقه أصولاً وفروعاً ودرس بمسجد الشريف ابي جعفر بالحريم ، وكان مشهورا بالورع والدين .

ابن رجب : **الذيل على طبقات الحنابلة** ج ٣ ص ١٠٦

(٧) ابن علي بن أحمد بن اسماعيل الانباري : سمع الحديث وبرع في الفقه وأفتى ووعظ بجامع القصر والمنصور والمهدي وشهد عند ابي عبد الله الدامغاني وولي القضاء بباب الطاق .

ابن رجب : **الذيل على طبقات الحنابلة** ج ٣ ص ١١١

(٨) ابن الحسن بن أحمد الكلوذاني : ابو الخطاب البغدادي ، أحد أئمة المذهب وأعيانه ، سمع الحديث وبرع في الفقه الحنبلي وصنف كتباً في الفقه منها « الهداية في الفقه » « والانتصار في المسائل الكبار » « ورؤوس المسائل » . « والتهذيب » « والتمهيد » « والعبادات الخمس » « ومناسك الحج » ويقول الشعر وكان حسن الاخلاق ، عدلاً ، ثقة . توفي سنة ١١١٦/٥١٠

ابن رجب : **الذيل على طبقات الحنابلة** ج ٣ ص ١١٦ ـ ١١٧

(٩) ابن عقيل بن محمد بن عقيل ابو الحسن ابن الامام ابي الوفاء : ١١١٦/٥١٠

سمع الحديث وشهد عند قاضي القضاة محمد ابن علي الدامغاني .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٨٦

(١٠) ابن الحسن بن قيس الكندي : سمع الحديث وقرأ الفقه وكان عارفاً بالمذهب حسن المناظرة وله حلقة بجامع القصر .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٢٠٢

ب ـ فقهاء المالكية

احمد بن محمد بن عبد الله بن عمروس أبو العباس المالكي أحد الفقهاء المالكية ، كان صدوقاً متيقظاً صالحاً ، توفي سنة ٥٠٧/١١١٣[١] .

ج ـ فقهاء الشيعة

من ابرز فقهاء الشيعة في عهد المستظهر :

محمد بن محمد[٢] ، ومحمد بن أحمد[٣] ، ومحمد بن سعيد[٤] .

د ـ فقهاء المذهب الشافعي

كان من ابرزهم :

محمد بن أحمد[٥] ٤٩٤/١١٠٠ ، ويوسف بن علي[٦] ٥٠٠/١١٠٦ ، والحسين بن علي الطبري[٧] ٤٩٥/١١٠١ ، وابو بكر الحلواني ، وأبو محمد

---

(١) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٧٥

(٢) ابن احمد بن حمزة ابو الوضاح العلوي : تفقه على أبيه وبرع في الفقه ودرس . توفي سنة ٤٨٨/١٠٩٥
ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٠٧

(٣) ابن طاهر بن احمد بن منصور : يعرف بخازن دار الكتب القديمة ، فقيه مذهب الامامية وزعيمهم . توفي سنة ٥١٠ / .
ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٨٩

(٤) ابن ابراهيم بن نبهان ابو علي الكاتب : ٥١٢/ ١١١٨ ، انتهى إليه الإسناد .
ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٩٥

(٥) ابن عبد الباقي بن الحسن بن محمد بن طوق أبو الفضائل الربعي : سمع الحديث وكتب الكثير وكان صالحاً . ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٢٦

(٦) ابو القاسم الزنجاني : برع في الفقه وكان من أهل الدين وظهرت له كرامة .
ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٥٤ ـ ١٥٥

(٧) برع في المذهب الشافعي ودرس في النظامية ، كان إماماً كبيراً أشعري العقيدة ، جرت بينه وبين الحنابلة خطوب .
السبكي : **طبقات الشافعية** ج ٣ ص ١٥٢

الشيرازي[1] والكياالهراسي[2] ، والقاضي ابو الفرج السيبي[3] ، وأبو بكر الشاشي[4]

هـ ـ فقهاء المذهب الحنفي

أبرز فقهاء هذا المذهب :

عبد الملك[5] بن محمد الذي شغل مناصب عدة في حياته ، وبكر[6] بن محمد والحسين بن محمد[7] واسماعيل بن علي[8] بن عبيد الله الخطيبي وأبو

---

(١) احمد بن علي بن بدران : كان بغدادياً صالحاً عفيفاً سمع الحديث والفقه ، من تصانيفه « لطائف المعارف » توفي سنة ٥٠٧/١١١٣

السبكي : **طبقات الشافعية** ج ٤ ص ٤٢ .

(٢) عبد الوهاب بن عبد الواحد بن محمد الفارسي : سمع الحديث وتفقه ثم ولاه نظام الملك سنة ٤٨٣/١٠٩٠ التدريس في النظامية . توفي سنة ٥٠٠/١١٠٦

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٥٢ ـ ١٥٣

(٣) علي بن محمد بن علي ابو الحسن الطبري : كان حافظاً للفقه ، وسمع الحديث ، كان مقيماً ببغداد ودرس بالنظامية واتهم برأي الباطنية . توفي سنة ٥٠٤/١١١٠

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٦٧

(٤) عبد الوهاب بن هبة الله بن عبد الله السيبي : كان يقضي في الجانب الشرقي في الحريم وفي دار الخلافة مستقلاً بنفسه وسمع الحديث ثم توفي سنة ٥٠٤/١١١٠

السبكي : **طبقات الشافعية** ج ٤ ص ٢٦٩

(٥) ابن الحسن أبو سعد السامري : ٤٩٣/١٠٩٩

حدث ببغداد وشهد عند أبي عبد الله الدامغاني وكان حجاجاً واليه كسوة الكعبة وعمارة الحرمين والنظر في البيمارستانين العضدي والعتيق والجوامع بمدينة السلام والجسر والترب بالرصافة ، كان كثير الصدقة ظاهر المعروف وافر التجمل مستحسن الصورة كامل الظرف روت عنه شهده بنت الأبري .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١١٧

(٦) ابن علي بن الفضل بن عبد الله الأنصاري : أبو الفضل الزرنجي ٥١٢/١١١٨ ، وزر نجر قرية من قرى بخاري ، برع في الفقه وحفظ مذهب أبي حنيفة وكان الفقهاء إذا أشكل عليهم شيء رجعوا اليه وحكموا بقوله .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٢٠٠

(٧) ابن علي بن الحسن بن محمد بن عبد الوهاب : أبو طالب الزينبي ٥١٢/١١١٨ برع في الفقه وانتهت إليه رياسة أصحاب أبي حنيفة ببغداد ولم يزل والياً للمدرسة التي بناها شرف الملك أبو سعد تدريساً ونظراً ، وترسل إلى ملوك الأطراف من البلاد من قبل الخليفة وولي نقابة الطالبيين والعباسيين ، كان شريف النفس كثير العلم غزير الدين .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٢٠١

(٨) اسماعيل الخطيبي : ٥٠٢/١١٠٨

تفقه على أبيه وتردد على قاضي القضاة أبي عبد الله الدامغاني وولي القضاء بأصبهان وفي =

علي الفقيه[1] وابو محمد الفقيه[2] وابو القاسم الشلجي[3] وابو محمد الدامغاني[4] وابو سعد البشكاني[5] .

إن فقهاء المذاهب السنية الثلاثة (المذهب الحنبلي والحنفي والشافعي) كانوا يشكلون القوة المسيطرة في مدينة بغداد أيام المستظهر .

سنة ١١٠٧/٥٠١ قصد دار الخلافة فجلس له الوزير أبو المعالي بباب الفردوس وقام له عند دخوله وخروجه وخرج ، إلى مدح الخليفة المستظهر بالله وكان ينزل بدرب الدواب ويحضر عنده أهل العلم من سائر الطوائف قتل شهيداً بجامع همذان .

ابن أبي الوفاء : **الجواهر المضية في طبقات الحنفية** ج ١ ص ١٥٨

(١) الحسن بن سلامة بن صاعد أبو علي الفقيه : ١١٣٨/٥٣٣

من أهل منبج قدم بغداد واستوطنها وشهد عند قاضي القضاة أبي عبد الله الدامغاني وتولى القضاء بنهر عيسى بن علي الهاشمي ، وكان إماماً فقيهاً مدرساً .

ابن أبي الوفا : **الجواهر المضية في طبقات الحنفية** ج ١ ص ١٩٤

(٢) الحسن بن محمد بن أحمد بن علي أبو محمد الفقيه : ١١٤٦/٥٤١

برع في الفقه شهد عند قاضي القضاة أبي الحسن علي بن محمد الدامغاني ، واستنابه قاضي القضاة أبو سعد محمد بن نصر الهروي في قضاء حريم دار الخلافة سنة ١١٠٨/٥٠٢ ، وحدث ببغداد .

ابن أبي الوفا : **الجواهر المضية في طبقات الحنفية** ج ١ ص ٢٠١

(٣) خلف بن أحمد بن عبد الله أبو القاسم الضرير الشلجي الفقيه : ٥١٥/ ١١٢١ ، ولد بالشلج وهي قرية من قرى بغداد ، برع في المذهب والخلاف والأصول وعلم الكلام وكان يدرس بمشهد أبي حنيفة بباب الطاق وسمع الحديث وحدث باليسير .

ابن أبي الوفا : **الجواهر المضية** ج ١ ص ٢٣١

(٤) عبيد الله بن محمد بن طلحة بن الحسين أبو محمد الدامغاني : ١١٠٨/٥٠٢ تولى القضاء بربع الكرخ سنة ٤٧٠/ وكان صالحاً ورعاً عفيفاً .

ابن أبي الوفا : **الجواهر المضية** ج ١ ص ٣٤١ .

(٥) محمد بن نصر بن منصور الهروي أبو سعد البشكاني من أهل هراة : ١١٢٤/٥١٨ كان من دهاة الرجال فقيهاً على مذهب أبي حنيفة له يد بالعربية والأصول ، قدم بغداد واتصل بخدمة دار الخلافة المعظمة وكان ينفذ بالرسائل إلى الاقطار حتى ارتفع جاهه وعلا قدره وتولى القضاء ببغداد سنة ١١٠٨/٥٠٢ للإمام المستظهر بالله على حرم دار الخلافة مما يليه من النواحي والأقطار وديار بكر وربيعة وخوطب بأقضى القضاة وخلع عليه وقرىء عهده على الناس ، ثم عزل واتصل بخدمة السلاطين السلجوقية وقتل بهمذان .

ابن أبي الوفا : **الجواهر المضية** ج ٢ ص ١٣٧ - ١٣٨

أما التيار القوي الذي كان سائداً فهو تيار الحنابلة ، وهذا التيار هو الذي تولى الدفاع عن العقائد السلفية وتصدى لعلم الكلام بدون هوادة ، وحدثت انقسامات في صفوف الحنابلة بسبب التطرف الذي كان مسيطراً على أكثريتهم في محاربة المنكرات ، والرجال الذين نبغوا في هذا المذهب جمهرة كبيرة ولكل فقيه ميزات أدبية وعلمية ، كان بعضهم يجمع علوماً عديدة إلى جانب الفقه .

وبعضهم احتل منزلة سياسية في أجهزة الخلافة العباسية ، وبعضهم عمل في كسوة الكعبة وعمارة الحرمين والنظر في البيمارستان ، ومنهم من برع في التصنيف والتأليف .

أما التيار الثاني الذي كان يتمتع بنفوذ كبير ببغداد فهو تيار المذهب الحنفي الذي كان يتلقى الدعم من السلطنة السلجوقية مباشرة ، وكانت أكثر الوظائف في الدولة المستظهرية من فقهاء المدرسة الحنفية ، وقاضي القضاة ببغداد كان من الأحناف والمستظهر كان يرسل بعضهم إلى الملوك والامراء ، وبعضهم برع في الاصول وعلم الكلام والخلاف وانقسم الأحناف إلى ثلاث فئات :

سلفي يؤيد الحنابلة ، ووسطي يلتف حول العقيدة الطحاوية ثم كلامي معتزلي .

والتيار الفقهي الثالث هو تيار الشافعية .

كان الشافعية ينتقدون المالكية والأحناف عامة والحنابلة خاصة ، وهم ينقسمون إلى فئتين :

شافعية سلفية وشافعية أشعرية ، وقد برز بعض فقهائهم في التصنيف والقضاء والتدريس في النظامية وبعضهم امتاز بالزهد والعلم والحياة الخشنة وكان منهم بعض المقربين للمستظهر بالله العباسي .

كان المذهب المالكي ضعيفاً جداً ولذلك لم نصادف سوى فقيه واحد من أتباعه .

أما فقهاء الشيعة في بغداد فكانوا قلة من حيث العدد، ولكن امتازوا بثقافة عالية بعضهم كان مرجعاً في الإسناد ومنهم من عمل في خزانة دار الكتب .

أما الدولة السلجوقية والمستظهرية ، فكانتا تحرصان على تقوية التيار السني عامة لمواجهة تحدياتِ الحركة الباطنية والدولة الفاطمية .

ثالثاً ـ رجال التفسير في عهد المستظهر

كان علماء التفسير يحيطون بعدة علوم أدبية واسلامية تساعدهم على فهم معاني القرآن الكريم واستنباط أحكامه ومضامينه[١] .

وأشهر هؤلاء المفسرين : محمد النسفي[٢] وعبد الرحيم القشيري[٣] ، واسماعيل الطلحي[٤] وأبو القاسم الهمذاني[٥] .

يبدو أن علماء التفسير في بغداد كانوا قلة من حيث العدد إنما كانوا يتميزون

---

(١) السيوطي : طبقات المفسرين ص ٨ .

(٢) محمد بن علي بن يحيى بن يونس بن الحسين بن محمد بن عبيد الله بن هبيرة ، أبو الرضى النسفي ثم البغدادي : كان صالحاً فاضلاً خبيراً بالتفسير والنحو والأدب . مات سنة ١١١٦/٥١٠

السيوطي : طبقات المفسرين ص ٣٨ .

(٣) ابن أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن أبو نصر القشيري النيسابوري : هو إمام الأئمة وحبر الأمة برع في النظم والنثر واستوفى الحظ الأوفى من علم التفسير والأصول ثم لازم امام الحرمين حتى أحكم عليه المذهب والخلاف والأصول وسمع الحديث وحدث بالكثير توفي سنة ١١٢٠/٥١٤

السيوطي : طبقات المفسرين ص ١٨ ـ ١٩

(٤) ابن محمد بن الفضل بن علي بن أحمد بن طاهر الحافظ الكبير أبو القاسم التميمي الطلحي الأصبهاني : هو إمام في التفسير والحديث واللغة والأدب ، عارف بالمتون والأسانيد وهو إمام أئمة وقته ومن تصانيفه التفسير الكبير ثلاثون مجلداً والمعتمد في التفسير عشرة مجلدات والايضاح في التفسير أربعة مجلدات والموضح في التفسير ثلاثة مجلدات والتفسير باللسان الأصبهاني عدة مجلدات والترغيب والترهيب والسنة وكتاب دلائل النبوة وشرح مسلم وإعراب القرآن توفي سنة ١١٤٠/٥٣٥

السيوطي : طبقات المفسرين ص ١٨

(٥) ابن الفتح بن حمزة بن الفتح : كان من أهل الفضل والتقدم في الفرائض والتفسير والآداب واللغة والمعاني والبيان والكلام ، استوطن بغداد آخر عمره وله تفسير حسن اسم تفسيره «كتاب البديع في البيان عن غوامض القرآن» مات بعد الخمسمائة .

السيوطي : طبقات المفسرين ص ١٠٠

بثقافة واسعة وعالية ، جعلتهم يتبؤ ون منزلة علمية واجتماعية محترمة في المجتمع البغدادي ، وقدم هؤلاء العلماء مجموعة من التفاسير القيمة التي لا تزال حتى الآن تنال اهتمام الباحثين والمتخصصين في هذا الميدان .

وإذا كان تفسير النسفي هو الأكثر شهرة وانتشاراً بين الناس ، فإن أبا القاسم التميمي الطلحي الذي كان إمام وقته في عدد من العلوم الاسلامية والأدبية والنحوية ، قد أتحف المكتبة الاسلامية بستة مصنفات في التفسير .

الأول يقع في ثلاثين مجلداً ، والثاني في عشرة مجلدات والثالث في أربعة مجلدات والخامس في خمسة مجلدات والتفسير السادس باللغة الفارسية يقع في عدة مجلدات ، وهذه التفاسير بمجموعها تشكل ثروة أدبية وفكرية قل نظيرها ، وساهم الامام أبو نصر القشيري في علم التفسير ، وكذلك الامام أبو القاسم الهمذاني الذي وضع تفسيراً آخر أسماه «كتاب البديع في البيان عن غوامض القرآن» .

بفضل جهود هؤلاء العلماء أحرز علم التفسير تقدماً واضحاً في أيام المستظهر الذي كان يحب العلماء ويقربهم .

رابعاً - القراء في عهد المستظهر

استمر هذا العلم في اندفاعه وتقدمه ، وكان الناس يحرصون أولاً على حفظ القرآن الكريم باللهجة الصحيحة ، من أجل ذلك لجأ عدد من العلماء إلى تأليف كتب ومصنفات في علم القراءات[1] ، وقد تمكن بعض هؤلاء العلماء أن يصل إلى مرتبة عالية في هذا الفن ومنهم من احتل مرتبة الرياسة فيه[2] ، ومنهم من نذر حياته لتعليم القرآن وخرّج الأعداد الكبيرة من الطلاب[3] ، ومنهم من برع في علوم عديدة الى جانب علم القراءة[4] . والقراء جمهرة كبيرة أبرزهم : أبو

---

(١) ابن الجزري : **غاية النهاية في طبقات القراء** ج ١ ص ٨٣ ، ٢٥١ ، ج ٢ ص ٧٤ .

(٢) ابن الجزري : المصدر نفسه ج ١ ص ٥٤٩ .

(٣) ابن الجزري : المصدر نفسه ج ٢ ص ٧٤

(٤) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٠١

الفضل البغدادي[1] وابن بدران الحلواني[2] وأبو طاهر بن سوار[3] والحسين بن محمد الدباس[4] وعلي بن الجراح[5] والمبارك بن الحسين[6] ومحمد بن عبد الرزاق[7] ومحمد بن الحسين بن بنـدار القلانسي[8] ومحمـد الشيباني[9]

---

(١) أحمد بن الحسن بن هبة الله أبو الفضل البغدادي الاسكاف : المعروف بـابن العالمة ، قرأ على عبـد السيـد بن عتـاب وأبي الـوفـا بن أبي الفـوارس ، وتلقن القـرآن من أبي منصـور الخياط ، روى عنه أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي الحافظ . توفي سنة ١١٣٥/٥٣٠
ابن الجزري : **غاية النهاية في طبقات القراء** ج ١ ص ٨٣ .

(٢) ابن بـدران الحلواني : ١١١٣/٥٠٧ ، أستـاذ ماهر صالح ثقة عالي الإسناد قرأ على الحسن بن غالب وعلي بن محمد بن فارس الخياط . قرأ عليه أبو محمد سبط الخياط والمبارك بن الحسن الشهـرزوري وعبـد الـوهـاب بن محمـد الصابوني .
ابن الجزري : **غاية النهاية في طبقات القراء** ج ١ ص ٨٤ .

(٣) أبو طاهر بن سوار : ١١٠٢/٤٩٦ ، أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن سوار الأستاذ أبو طـاهر البغـدادي الحنفي مؤلف المستنير في العشر إمام كبير محقق ثقة ، قرأ على عدد كبير من عظماء عصره ، وروى قراءة الإمام محمد بن ادريس الشـافعي وقرأ عليـه عدد من مشـاهير القراء .
ابن الجزري : **غاية النهاية في طبقات القراء** ج ١ ص ٨٦ .

(٤) ابن محمد بن عبد الوهاب بن أحمد بن محمد بن حسين بن عبد الله بن الوزير القاسم بن عبيد الله ابن سليمان الشيخ أبو عبد الله البارع البغدادي : مقـرىء صـالـح وأديب مغلق صـاحب كتـاب الشمس المنيرة في التسعة الشهيرة ، قرأ عليـه عدد من المشاهير . توفي سنة ١١٢٩/٥٢٤
ابن الجزري : **غاية النهاية في طبقات القراء** ج ١ ص ٢٥١

(٥) ابن عبد الرحمن بن هارون بن عيسى بن داود الجـراح أبـو الخـطاب : الـوزيـر البغـدادي الشافعي ، إمام مقرىء كامل حسن الكتابة مجود التـلاوة قرأ عليـه عـدد من الأعـلام ونـظم في القراءات كتاباً وانتهت إليه ريـاسة القـراءة وهو إمـام في اللغـة والنـظم ، كـان يصلي بـأميـر المؤمنين المستظهر بالله التراويح . مات سنة ١١٠٣/٤٩٧ ابن الجزري : **غاية النهاية في طبقات القراء** ج ١ ص ٥٤٩ .

(٦) ابن أحمـد أبـو الخيـر البغـدادي الغسـال الشافعي : إمام مقرىء حاذق أديب مـات سنة ١١١٦/٥١٠
ابن الجزري : **غاية النهاية في طبقات القراء** ج ٢ ص ٤٠ .

(٧) أبـو منصور البغـدادي المعروف بالخـياط : مؤلف كتاب المهذب بالقراءات ، استاذ كبير ، كـان صاحب كـرامات ، بلغ عـدد من أقرأهم القرآن سبعين ألفاً توفي سنة ١١٠٥/٤٩٩
ابن الجـزري : **غاية النهاية في طبقات القراء** ج ٢ ص ٧٤ .

(٨) شيـخ العراق ومقـرىء القـراء ، كـان بصيـراً بالقراءات وعللها وغوامضها عارفاً بطرقها عالي الاسناد . مات سنة ١١٢٦/٥٢٠
ابن الجزري : **غاية النهاية في طبقات القراء** ج ٢ ص ١٢٨

(٩) ابن عبد الواحد أبو غالب البغدادي المعروف بالقزاز : من كبار القراء ببغداد ثقة ، توفي سنة

وأحمد بن عمر [1] ومحمد بن أحمد [2] ومحمد بن علي [3] ونصر بن أحمد [4] وأحمد بن علي [5] وأبو بكر الحلواني [6] والمبارك بن طالب [7]

إن الجمهرة الكبيرة من علماء القراءة الذين ظهروا في أيام المستظهر ، تدل على عناية المسلمين واهتمامهم الفائق بتلاوة القرآن ومعرفة أحكام القراءة والترتيل كما أمر الله تعالى .

- وامتازت هذه المرحلة بغزارة المؤلفات التي تبحث في علم القراءة وبالرجال المخلصين الذين يقومون بتلقين هذا العلم في المساجد والمدارس ، أمثال الخياط الذي قرأ عليه ما يزيد عن سبعين ألف تلميذ . والمستظهر كان من جانبه يرعى العلوم الاسلامية وفي مقدمتها علم القراءة ، فهو يكرم علياً بن الجراح الذي انتهت إليه رياسة القراءة في عصره ويجعله إماماً له في الصلاة .

خامساً - رجال الحديث في عهد المستظهر

كان الاهتمام بحديث رسول الله ﷺ يحتل المرتبة الثانية بعد علوم القرآن

= ١١١٤/٥٠٨

ابن الجزري : **غاية النهاية في طبقات القراء** ج ٢ ص ١٩٣

(١) ابن الأشعث أبو بكر السمرقندي : كان مجوداً بالقراءة وسمع الحديث الكثير وكان ينسخ المصاحف . توفي سنة ١٠٩٥/٤٨٩

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٩٨ .

(٢) ابن عبد الباقي بن منصور أبو بكر ويعرف بابن الخاضبة : كان معروفاً بالافادة وجودة القراءة وحسن الخط وجودة النقل وجمع علم القراءات والحديث . توفي سنة ١٠٩٦/٤٩٠

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٠١

(٣) ابن محمد أبو ياسر الحمامي : كتب الكثير من علوم القرآن والحديث ، كان ثقة إماماً في القراءات والحديث . توفي سنة ١٠٩٦/٤٩٠

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٠١

(٤) ابن عبد الله أبو الخطاب البزاز : انتشرت عنه الرواية والرحلة إليه من الأطراف ، وكان شيخاً صالحاً صدوقاً قارئاً . توفي سنة ١١٠٠/٤٩٤

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٢٩

(٥) ابن عبيد الله بن سوار أبو طاهر : كان ثقة ثبتاً مأموناً إماماً في علم القراءات وصنف فيها كتباً . توفي سنة ١١٠٢/٤٩٦

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٣٥

(٦) أحمد بن علي بن بدران : ١١١٣/٥٠٧ ، المقرىء الزاهد ، كان من أهل الخير والدين .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٧٥

(٧) أبو السعود الحلاوي المقرىء : كان آمراً بالمعروف انتقل من نهر معلى لكثرة المنكر فيها وأقام بالحربية . توفي سنة ١١١٧/٥١١

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٩٦

الكريم ، لذلك أخذ علم الحديث ينمو وينضج شيئاً فشيئاً والدولة من جانبها لعبت دوراً في مساعدة طلاب هذا العلم .

وكان بعض رجال الحديث يرحل من بلد إلى آخر كي يأخذ الأحاديث من أفواه رواتها المشهود لهم بالصدق والأمانة[١] ، وقد برع في هذا الميدان مجموعة من المحدثين نذكر منهم : حمد بن أحمد[٢] ومحمد بن أبي نصر[٣] وأحمد بن الحسن[٤] وعبد المحسن[٥] وأحمد عبد القادر[٦] وبركة بن أحمد[٧] وأحمد بن أحمد[٨] ومحمد بن أحمد[٩] وأحمد بن بندار[١٠] وثابت بن بندار[١١]

---

(١) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١١٠ ، ١٨٠

(٢) ابن الحسن بن أحمد بن مهرة أبو الفضل الحداد الأصبهاني : سمع خلقاً كثيراً وقدم بغداد فروي الحلية عن أبي نعيم وكان إماماً فاضلاً عالماً صحيح السماع محققاً في الأخذ . توفي سنة ١٠٩٥/٤٨٨

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٨٨ .

(٣) فتوح بن عبد الله بن حميد أبو عبد الله الحميدي الأندلسي : سمع ببلده الكثير وبمصر ومكة وبالشام وببغداد ، وكان حافظاً ديناً نزهاً عفيفاً وصنف كثيراً ووقف كتبه على طلبة العلم . مات سنة ٤٨٨/ ١٠٩٥ ودفن بمقبرة باب أبرز .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٩٦ .

(٤) ابن أحمد بن الحسن الكرخي الباقلاوي أبو طاهر : كان ثقة ضابطاً وكان جميل الخصال مقبلاً على ما يّعينه زاهداً في الدنيا ، ولما حضر نظام الملك إلى بغداد سألوه أن يحضر داره فامتنع . توفي سنة ١٠٩٥/٤٨٨

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٩٨ .

(٥) ابن محمد بن علي بن أحمد أبو منصور الشيحي :سمع ببغداد والشام ومصر وأهدى إليه الخطيب تاريخ بغداد بخطه ، وكان ثقة خيراً ديناً . توفي سنة ١٠٩٦/٤٨٩

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٠٠

(٦) ابن محمد بن يوسف أبو الحسين المحدث الزاهد : سافر كثيراً ووصل إلى بلاد المغرب وسمع الحديث . توفي سنة ٤٩٢/ ١٠٩٨

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٠٩

(٧) ابن عبد الله أبو غالب الواسطي : كان ثقة توفي سنة ١٠٩٨/٤٩٢

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١١٠

(٨) ابن الحسن أبو البقاء : كان وكيلاً بين يدي أبي عبد الله الدامغاني ، كان يضرب به المثل في الدهاء والحذق في صناعته . توفي سنة ١٠٩٩/٤٩٣

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١١٥

(٩) ابن محمد أبو طاهر الرحبي:سمع الحديث الكثير وكتب وكان صالحاً . توفي سنة ١١٠٠/٤٩٤

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٢٦

(١٠) ابن ابراهيم أبو ياسر البقال الدينوري : حدث ببغداد وكان ثقة . توفي سنة ١١٠٣/٤٩٧

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٣٩

(١١) ابن إبراهيم بن الحسن بن بندار البقال أبو المعالي : حدث وقرأ وكان ثقة ثبتاً صدوقاً .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٤٤

والمؤتمن بن أحمد[1] .

أجمع المسلمون على أن لشريعة الاسلام مصدرين أساسين هما القرآن الكريم والسنة المطهرة ؛ فالقرآن هو الأساس والسنة شارحته ومبينته بقول الرسول ﷺ وفعله وتقريره ، ولهذا كان ما يجيء به الرسول من شرع ، واجب الطاعة والامتثال كالقرآن وكلاهما وحي من الله عز وجل.

لذلك كان المسلمون ببغداد يهتمون برواية الأحاديث النبوية والتدقيق في أسانيدها وبرع عدد من العلماء الذين اتصفوا بالصدق والأمانة والتثبت فكان بعضهم يرحل من بلد إلى آخر من أجل معرفة حديث واحد ، وبعضهم لا يكتفي بنذر حياته لعلم الحديث ، بل كان يطلب وقف كتبه لطلبة العلم أيضاً .

وبرز في هذه الفترة عدد من العلماء الذين كانوا يحرصون على زهد وتقوى واحتقار للدنيا وأصحابها ، ومن هؤلاء الباقلاوي الذي رفض أن يحضر مجلس نظام الملك حين دعاه إلى داره

سادساً ـ الصوفية في عهد المستظهر

كانت الصوفية تستهوي بعض الناس الذين يرغبون في البعد عن مشاكل الحياة ومتاعبها ، والفوضى الاجتماعية والسياسية في هذه الفترة دفعت فئات عديدة للسير في هذا الاتجاه ، كما أن نزعة الزهد في الدنيا والتطلع إلى الآخرة وحب العبادة وتطهير النفس وتزكيتها جعلت تيار الصوفية يقوى ويشتد، وكانت الدولة السلجوقية تشجع الصوفية وتساعد في بناء الأربطة لهم .

---

(١) ابن محمد بن علي بن إبراهيم بن سعد أبو عبد الله البزدوي الموصلي : كان فاضلاً صالحاً
ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٦١

(٢) ابن علي بن الحسن بن عبيد الله أبو نصر الساجي المقدسي . تفقه على أبي اسحاق الشيرازي ورحل في طلب الحديث الى بيت المقدس وأصبهان وخراسان والجبال ، وكان حافظاً عارفاً بالحديث معرفة جيدة ، وكان حسن القراءة والخط توفي سنة ١١١٣/٥٠٧
ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٨٠
انتشرت عنه الرواية . توفي سنة ١١٠٨/٥٠٢

وانضم إلى الحركة الصوفية عدد من الرجال الذين لا تهمهم الدنيا فكانوا يقولون كلمة الحق لرجال الدولة السلجوقية وللخليفة المستظهر نفسه وبلغ تأثيرهم في هؤلاء المسؤ ولين أنهم يخشعون لكلماتهم ويبكون من مواعظهم .

ومن رجال الصوفية من وصل إلى مرحلة من التقشف والصبر على الجوع والفقر لا مثيل لها[1] وبلغت الصوفية ذروة عالية عندما انضم اليها حجة الاسلام أبو حامد الغزالي وأمدها بعلمه ومعارفه وأعطاها اندفاعاً جديداً عندما صنف كتابه «إحياء علوم الدين» وحدث به ببغداد ، وتكلم عن لسان أهل الحقيقة والقلب ، وكتابه هذا لا يزال حتى اليوم موضع اهتمام الناس على مختلف مستوياتهم العلمية والفكرية[2] .

كتاب إحياء علوم الدين

هذا الكتاب من أوله إلى آخره دعوة لاحياء القلوب بالإيمان وتربية للنفوس على طاعة الله تعالى ، ومن شروط التربية الالتزام بالفرائض والسنن والتورع عن المعاصي ومحاسبة النفس ومراقبتها باستمرار والزهد والتقشف والتطلع إلى يوم الحساب كلها أسباب تساعد السالك على اجتياز الطرق ، وأكل الحلال وتحري الحلال من وسائل النجاة في الدنيا والآخرة .

لذلك فإن الغزالي يحذر من أموال السلاطين في عصره ويعتبرها حراماً لأنها مجموعة من الخراج المضروب على المسلمين ومن أنواع الرشوة ومن الجزية المأخوذة ظلماً من أهل الذمة ، لذلك لا يجوز أخذ شيء من هذه الأموال لأن الحلال فيها معدوم ، وهكذا يحرم الغزالي على المسلمين التعاون مع سلاطين زمانه ، وهذا الموقف يعتبر تحديداً للسلطة الحاكمة[3] .

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١١٦ ، ١٣٦ ، ١٥٩ ، ١٧٣ ، ١٧٤
ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٦٩

(٢) الغزالي : إحياء علوم الدين ج ١ ص (٤٥)

(٣) الغزالي : إحياء علوم الدين ج ٢ ص ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩

إنه يعقد فصلاً كاملاً عن كيفية التعامل مع الحكام الظالمين ، ويتكلم فيه بشجاعة ظاهرة ويورد الأدلة الشرعية التي يجب على المسلم أن يتقيد بها عند الاحتكاك بأهل الحكم .

ويحذر الغزالي من الدخول على الحكام الظلمة لأن هذا التصرف مذموم جداً في الشرع ، فإذا كانت أغلب أموالهم حراماً فلا يجوز الجلوس على فرشهم ، وتحرم التجارة في أسواق بناها السلاطين بالمال الحرام ولا يجوز السكن فيها ، إنما يجوز الدخول على السلاطين لهدفين اثنين :

- إما بطريق الحسبة .

من أجل وعظهم وتذكيرهم بأمور الشرع وحثهم على العدل والانصاف ، وهذا ما فعله الغزالي نفسه عندما وجه نصائحه إلى محمد بن ملكشاه وألف من أجل ذلك كتابه «التبر المسبوك في نصيحة الملوك» .

- وإما بطريق التظلم ، من أجل رفع الظلم والمضرة والسوء عن الناس .

ويعتبر الغزالي أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو من واجبات كل مسلم وخاصة أهل العلم والمعرفة ، وفساد الرعايا بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه على قلوبهم[1] .

وأشهر رجال الصوفية الذين عرفتهم بغداد في أيام المستظهر :

عبد الرزاق الصوفي الغزنوي[2] وأبو الحسن البسطامي[3] وأبو المعالي

---

(١) الغزالي : إحياء علوم الدين ج ٢ ص ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٠ ، ٣٥٧ .

(٢) كان مقيماً في رباط عقاب وكان خيراً . مات ولا كفن له سنة ١٠٩٩/٤٩٣
ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١١٦

(٣) شيخ رباط ابن المحلبان ، وكان لا يلبس إلا الصوف شتاء وصيفاً وترك أربعة آلاف دينار توفي سنة ١٠٩٩/٤٩٣ ، ورباطه مشهور على دجلة غربي بغداد .
ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١١٦

الصالح[1] وأبو بكر الطرثيثي[2] وأخي جمادى[3] والهمذاني[4] وأبو سعد المعمر[5] وأبو الفتح الأرغياني[6] وابن بدران الحلواني[7] وأحمد الفرسي[8]

كان تيار الصوفية ناشطاً ومزدهراً وانضم إليه بعض الرجال الكبار أمثال الإمام الغزالي الذي أثر في الحركة الصوفية حين قدم كتابه «إحياء علوم الدين» الذي لا يزال يحتفظ بقيمته الروحية والتربوية حتى اليوم . قدمت الحركة

---

(١) كان مقيما بمسجد بباب الطاق ، وكان لا يلبس الا ثوباً واحداً شتاء أو صيفاً ، وكان يصبر على الجوع ودخل عليه مرة سعد الدولة شحنة بغداد فأغلق الباب بوجهه فألح عليه سعد الدولة ففتح له الباب فدخل فجعل يوبخه على ما هو فيه وسعد الدولة يبكي بكاء كثيراً . توفي سنة ١١٠٢/٤٩٦

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٣٦ .

(٢) أحمد بن علي ابن الحسين بن زكريا المعروف بابن زهراء المقرىء الصوفي : سمع الحديث ولكنه كان مخلطاً . توفي سنة ١١٠٣/٤٩٧

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٣٨

(٣) هو محمد من أهل الجانب الشرقي ، كان رجلاً صالحاً لزم المسجد نحو أربعين سنة ، أصيب بمرض في يده ثم شفي منه بعد أن رأى رسول الله ﷺ في المنام ، ثم عندما علم الناس به حملوا الجرار والأباريق يريدون أن يأخذوا ماء من وضوئه فاختفى طيلة ذلك النهار . توفي سنة ١١٠٩/٥٠٣

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٦٤ - ١٦٥

(٤) يوسف بن أيوب : برع في الفقه في مرو اجتمع في رباطه خلق زائد عن الحد من المنقطعين إلى الله تعالى ثم عاد إلى بغداد ووعظ بها وكان ذا نظرات ثاقبة . توفي سنة ٥٠٦ /١١١٢

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٧١

(٥) ابن علي بن المعمر بن أبي عمامة الواعظ : جمهور وعظه حكايات السلف ، وكان له خاطر حاد وذهن بغدادي وتماجن وكان يحاضر المستظهر بالله ، ولما دخل نظام الملك وزير السلطان ملكشاه الى بغداد صلى في جامع المهدي الجمعة فوعظه ابن المعمر وقال له بأنه أجير الأمة وذكره بحساب ربه ، وقال له عمّر قبرك كما عمرت قصرك وضرب له أمثلة في العدل قام بها ملك الهند وأنو شروان حتى بكى نظام الملك من هذه الموعظة ، ورفض ابن المعمر أن يأخذ شيئاً من المال . توفي سنة ١١١٢/٥٠٦

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٧٣ - ١٧٤

(٦) سهل بن محمد بن علي الحاكم ١١٠٥/٤٩٩ : تفقه على الجويني وبرز ثم ترك المناظرة وبنى رباطاً واشتغل بالعبادة وقراءة القرآن .

ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٤١٥ - ٤١٦

(٧) ابن بدران الحلواني : ١١١٣/٥٠٧ ، هو أبو بكر أحمد بن علي الزاهد ، روى الحديث وروى عنه خلق كثير .

ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٤٩٩ .

(٨) أحمد العربي : ١١١٧/٥١١ ، كان من عباد الله الصالحين له كرامات .

مات ببغداد وقبره يزار بها .

ابن الأثير : **الكامل** ج ١٠ ص ٥٣٢ .

الصوفية في أيام المستظهر نماذج عالية المستوى على صعيد الفكر والسلوك ، كان أحد روادها لا يلبس طوال حياته الا الصوف وآخر مات ولا كفن له .

وبلغ بعضهم مرحلة من التعبد حيث ظهرت له كرامات ، وكان بعضهم لا يتورع عن نصيحة الملوك والأمراء وارشادهم إلى الطريق المستقيم . إن انتشار الأربطة ببغداد شجع في تقوية الحركة الصوفية وامتدادها بين صفوف الناس وكان الحكام من جانبهم يدعمون هذه الحركة ويقربون رجالها البارزين .

سابعاً - الأدب في عهد المستظهر

كان الخليفة المستظهر يتذوق الأدب وينشد الشعر فتقرب منه شعراء عصره وأحاطهم بعنايته ، وامتاز شعراء هذه المرحلة بالثقافة المتعددة الجوانب[١] وبعضهم وضع المصنفات العديدة في الأنساب واللغة ووصف الخيل وغيرها ، ومنهم من شغل مناصب في الدولة السلجوقية والشعر لم يقتصر على مدح السلاطين والخلفاء بل امتد ليعبر عن المشاعر الدينية والمذهبية[٢] ، ومن الشعراء من مدح أصحاب الحديث ورواته ، ومنهم من مدح المذهب الحنبلي والمستظهر سوية[٣] ، ومن الشعراء من وجه اهتمامه إلى مدح أساتذة النظامية ورثائهم ، ومنهم من برع في الهجاء والغزل والسخف وفنونه والأراجيز[٤]، وجاء الحريري بالمقامات ليضيف إلى الآداب العربية نهجاً جديداً[٥] أغنى المدرسة الأدبية الشعرية .

من أبرز الشعراء الذين ذاع صيتهم في عهد المستظهر : الحسين بن علي

---

(١) الأصبهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ص ٢٨

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ج ١٠ ص ٥٦ ، ٥٧ ، ٢٣٥ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٥٧

(٣) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٥٢ ، ١٩١ ، ١٩٢

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٧ - ٥٨ - ج ٤ ص ٤٥٣ ، ٤٥٦ .

(٥) ابن الأنباري : نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص ٢٦٥

ابن محمد بن عبد الصمد الطغرائي : ٥١٤/١١٢٠[١] .

ومحمد بن أحمد الابيوردي : ٥٠٧/١١١٣[٢] .

---

(١) الأستاذ مؤيد الدين أبو اسماعيل الاصبهاني المعروف بالطغرائي: نسبة إلى من يكتب الطغراء وهي الطرة التي تكتب في أعلى المناشير فوق البسملة بالقلم الجلي تتضمن اسم الملك وألقابه .

كان آية في الكتابة والشعر خبيراً بصناعة الكيمياء له فيها تصانيف ، خدم السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان وكان منشىء السلطان محمد مدة ملكه متولي ديوان الطغراء وصاحب ديوان الانشاء ، تشرفت به الدولة السلجوقية ، تنقل في المناصب والمراتب وتولي الاستيفاء وترشح للوزارة ولم يكن في الدولتين السلجوقية والإمامية من يماثله ، وله في العربية والإنشاء قدم راسخ ، وله البلاغة والمعجزة في النظم والنثر . تصانيفه في الكيمياء : «جامع الأسرار» وكتاب تراكيب الأنوار وكتاب حقائق الاستشهادات ، وكتاب ذات الفوائد وكتاب الرد على ابن سينا في ابطال الكيمياء ومصابيح الحكمة وكتاب مفاتيح الرحمة وله ديوان شعر . من قصيدته الطويلة المعروفة بلامية العجم ، نذكر هذه الأبيات :

أعلل النفس بالآمال أرقبها
ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

وإنما رجل الدنيا وواحدها
من لا يعول في الدنيا على رجل

قد رشحوك لأمر لو فطنت له
فأربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

كان الطغرائي نابغة عصره في النظم والنثر ، له ديوان شعر كبير أكثره في المدح ، وهذه القصيدة تحتل منزلة عالية جداً في الشعر الحكمي من ناحية الشكل والمضمون ، فهي تمتاز بالسلاسة والسهولة والبعد عن التكلف الذي يصبغ العصر وتدل على الثقافة العالية التي كان يتمتع بها الشاعر .

ياقوت : **معجم الأدباء** ج ١٠ ص ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٨

(٢) هو أحد قراء ابيورد ، كان فاضلاً في العربية والعلوم الأدبية نسابه ليس له مثيل ، كان كبير النفس عظيم الهمة ، وقد ولي الأبيوردي ادارة خزانة دار الكتب بالنظامية التي ببغداد بعد القاضي أبي يوسف يعقوب بن سليمان الاسفراييني . ثم في آخر عمره تولى منصب الاشراف في مملكة السلطان محمد بن ملكشاه فسقوه السم وهو واقف عند سرير السلطان فخانته رجلاه فسقط وحمل إلى منزله فقال :

وقفنا بحيث العدل مد رواقه
وخيم في أرجائه الجود والباس

وفوق السرير ابن الملوك محمد
تخر له من فرط هيبته الناس

فخامرني ما خانني قدمي له
وإن ردعني نفره الجأش ايناس

كان صائم النهار قائم الليل متبحراً في الأدب ، هو من ظرفاء الشعراء . هذه الأبيات تدل على شاعريته الجيدة ، رغم أنه نشأ في بيئة فارسية . له تصانيف كثيرة منها : كتاب تاريخ أبيورد ونسا ، كتاب المختلف والمؤتلف كتاب قبة العجلان في نسب آل أبي سفيان كتاب نهزة الحافظ كتاب المجتبى من المجتني في رجال ، كتاب أبي عبد الرحمن النسائي في السنن المأثورة وشرح غريبه ، كتاب ما اختلف وائتلف في أنساب العرب كتاب طبقات العلم في كل فن ، كتاب كبير في الأنساب كتاب تعلة =

والأرجاني[1] ومحمد بن عمر[2] وابو البركات ابن السيبي : ٥١٤/١١٢٠[3] والمبيذي[4] والسراج[5] .

المنتاق الى ساكني العراق ، كتاب كوكب المتأمل يصف فيه الخيل تعلة المقرور في وصف البرد والنيران وهمذان ، كتاب الدرة الثمينة كتاب صهلة القارح ، رد فيه على المعري «سقط الزند» .

وله في اللغة مصنفات ما سبق إليها وسمع الحديث والنحو . قال الأبيوردي كنت ببغداد عشرين سنة حتى أمرن طبعي على العربية وبعد أن أرتضخ لكنه كتب رسالة إلى المستظهر يعتذر بها عن هربه من بغداد ، ويمدحه فيها ويعلن اخلاصه له واستعداده لتقديم الخدمة ، منوه بسعايت أعدائه وحساده حتى فر على جناح الظلام من بغداد . ومرة أخرى كتب إلى المستظهر رقعة وعلى رأسها «الخادم المعاوي» فكره الخليفه هذه اللفظة فكشط الميم من المعاوي ورد الرقعة اليه فصار «الخادم العاوي» وهذا ينوه بالحساسية حتى من كلمة تذكر بالأمويين

ياقوت : **معجم الأدباء** ج ١٧ ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩

الفارقي : **تاريخ الفارقي** ص ٢٨٦

(١) الأرجاني : ٥٤٤/١١٤٩ ، أحمد بن محمد بن الحسين أبو بكر الأرجاني قاضي تستر وهي من بلاد خوزستان وأرجان بلدة منها ، له الشعر المستحسن يتضمن المعاني الدقيقة ورد بغداد ومدح المستظهر بالله .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٣٩

(٢) ابن أبي الصقر محمد بن علي بن الحسين بن عمر : ٤٩٨/١١٠٤ ، كان فقيهاً أديباً شاعراً ، وكان شديد التعصب لمذهب الإمام الشافعي ، وظهر ذلك في قصائده المعروفة بالشافعية وغلب عليه الأدب والشعر فبرع فيهما وجود الخط فبلغ فيه الغاية وجمع ديوانه في مجلد ومن شعره :

من عارض الله في مشيئته ... فما لديه من بطشه خبر

لا يقدر الخلق باجتهادهم ... إلا على ما جرى به القدر

هذا النوع من الشعر يبحث في العقيدة الدينية ويتناول موضوع القدر ، وهو رمزللالتزام بالمفاهيم الدينية في تلك الفترة وهو من الشعر الحسن .

ياقوت : **معجم الأدباء** ج ١٨ ص ٢٥٧

(٣) أحمد بن عبد الوهاب : كان مؤدب الخلفاء وكانت له معرفة بالأدب والشعر .

ابن الأنباري : **نزهة الألباء في طبقات الأدباء** ص ٢٦٨

(٤) محمد بن أحمد المبيذي : ٤٩١/١٠٩٧ ، ابن محمد أبو عبد الله المبيذي ، ومبيذة بلدة من كورة اصطخر ، قدم بغداد وسمع الكثير ، وكان له معرفة باللغة والأدب .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٠٧

(٥) جعفر السراج : ٥٠٠/١١٠٦ ، ابن الحسين بن أحمد أبو محمد القارى ، سافر إلى عدة بلدان كان أديباً شاعراً لطيفاً صدوقاً ثقة وصنف كتباً حساناً ، وشعره مطبوع ، وقد نظم كتباً كثيرة شعراً منها المبتدأ وكتاب مناسك الحاج وكتاب التنبيه حدثت عنه شهرة بنت الأبري . من شعره في مدح أصحاب الحديث :

قل للذين يجهلهم ... أضحوا يعيبون المحابر =

والتبريزي[1] ومحفوظ بن الحسن الكلوذاني[2] وابراهيم الغزي الشاعر[3]،

لولا المحابر والمقا
لم والصحائف والدفاتر
والحافظون شريعة المبعوث من خير العشائر
والناقلون حديثه
عن كابر ثبت فكابر
لرأيت من شيع الضلا
ل عساكراً تتلو عساكر
سميتهم أهل الحديث
أولى النهى وأولى البصائر

هذه الأبيات التي يمدح فيها الشاعر أصحاب الحديث في أيامه تمتاز بالسهولة والبعد عن التصنع وهي تمثل نوعاً جديداً من الشعر العلمي الذي يدل على نضج ديني وأدبي ممتاز .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٥١ - ١٥٢

(١) يحيى التبريزي : ٥٠٢/١١٠٨ ، ابن محمد بن الحسن بن بسطام الثياني أبو زكريا، أحد أئمة اللغة كانت له معرفة حسنة بالنحو واللغة ، كان ثقة وصنف تصانيف الكثيرة . من شعره يرد على العميد الفياض :

يا فارس النظم المرصع جوهرا
والنثر يكشف عنه الأعراض
ولقد عجزت عن القريض وربما
أعرضت عنه أيما أعراض

درس في نظامية بغداد واحتل منزلة رفيعة بين أقرانه .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٦١ - ١٦٢ - ١٦٣

(٢) أبو الخطاب الكلوذاني : ٥١٠/١١١٦ ، محفوظ بن أحمد بن الحسن ، سمع الحديث والفقه وقرأ الفرائض وحدث وأفتى ودرس وكان ثقة ثبتاً غزير الفضل والعقل وله شعر مطبوع منه :

واقصد فاني قد قصدت موفقاً
نهج ابن حنبل الإمام الأوحدِ
خير البرية بعد صحب محمد
والتابعين امام كل موحدِ
ذاك الهمام أبو الخلائق كلهم
نسقاً إلى المستظهر بن المقتدي
صلى الإله عليه ما هبت صبا
وعلى بنيه الراكعين السجدِ
وأدام دولتهم علينا سرمداً
ما حسن في الأسحار كل مغردِ

في هذه الأبيات يمدح الشاعر الإمام أحمد بن حنبل والخليفة المستظهر بالله ، وفيها تتجلى مقدرة الشاعر على استعمال الألفاظ السهلة التي لا يخالطها غريب ولا غامض .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢

(٣) أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى بن عثمان بن محمد الكلبي الأشهبي : ٥٢٤/١١٢٩ شاعر محسن سمع الفقه في دمشق وأقام ببغداد بالمدرسة النظامية سنين كثيرة ومدح ورثى غير واحد من المدرسين بها وغيرهم ثم رحل إلى خراسان وامتدح بها جماعة من رؤسائها ، وله ديوان شعر فيه ألف بيت . من شعره :

حملنا من الأيام ما لا نطيقه
كما حمل العظم الكسير العصائب

ابن خلكان : **وفيات الأعيان** الأول ص ٥٧ - ٥٨ .

وابن الخازن الكاتب[1] وابن الهبارية[2] والحريري[3] .

إن دراسة الأدب في الايام المستظهرية ، أفادتنا بالملاحظات التالية :

ـ أصبح الأدب اسلامياً بعد أن كان محصوراً بالعرب فقط ، ونبغ عدد من

---

(١) أبو الفضل أحمد بن محمد بن الفضل بن عبد الخالق المعروف بابن الخازن ٥١٢/١١١٨ الكاتب الشاعر الدنيوري الأصل البغدادي المولد والوفاة ، كان فاضلاً نادرة في الخط ، كتب من المقامات نسخاً كثيرة وهي موجودة بأيدي الناس من شعره عندما زار بيت صديق طيب وهو أبو القاسم الأهوازي :

وافيت منزله فلم أر حاجباً
الا تلقاني بسن ضاحك
والبشر في وجه الغلام أمارة
لمقدمات حياء وجه المالك
ودخلت جنته وزرت جحيمه
فشكرت رضواناً ورأفة مالك

هذا النوع من الشعر يرمز إلى الجو العام الذي كان سائداً في تلك المرحلة حيث يظهر التكلف في المعاني واستعمال المحسنات البيانية وخاصة في البيت الأخير .

ابن خلكان : **وفيات الأعيان** ج ١ ص ١٤٩ ـ ١٥٠

(٢) ابن الهبارية : ٥٠٩/١١١٥ ، الشريف أبو يعلى محمد بن محمد بن صالح بن حمزة بن عيسى ابن محمد بن عبد الله بن داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الهاشمي المعروف بابن الهبارية ، الملقب نظام الدين البغدادي ، كان شاعراً مجيداً حسن المقاصد . لكنه كان خبيث اللسان كثير الهجاء لا يكاد يسلم من لسانه أحد ، وهو من شعراء نظام الملك وزير السلطان ألب ارسلان وولده ملكشاه . له كتاب : «نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة» وديوان شعره كبير يدخل في أربع مجلدات وله كتاب «الصادح والباغم» نظمه على أسلوب كليلة ودمنة وهو أراجيز وعدد بيوته ألفا بيت نظمها في عشر سنين ، لقد أجاد فيه كل الاجادة ، وسير الكتاب على يد ولده إلى الأمير أبي الحسن صدقة بن منصور بن دبيس الأسدي صاحب الحلة ، فأجزل صلته وأسنى جائزته .

ابن خلكان : **وفيات الأعيان** ج ٤ ص ٤٥٣ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ .

(٣) الحريري : ٥١٦/١١٢٢ ، كان أديباً فاضلاً بارعاً فصيحاً بليغاً ، صنف كتباً حسنة عذبة العبارة رائعة منها كتاب «المقامات» كان مولعاً بالعبث بلحيته ، وتصانيفه تشهد بفضله وتقر بنبله وكفاه شاهداً المقامات التي أبر بها على الأوائل وأعجز الأواخر وله درة الغواص في أوهام الخواص ، من نظمه في المقامات :

سم بسمة تحسن آثارها
واشكر لمن أعطى ولو سمسمة
والمكر مهما استطعت لا تأته
لتقتني السؤدد والمكرمة

ابن الأنباري : **نزهة الألباء في طبقات الأدباء** ص ٢٦٥

السيوطي : **بغية الوعاة** ج ٢ ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

الشعراء الفرس الذين نظموا بالعربية أمثال : الطغرائي والمبيذي والارجاني وغيرهم .

ـ إن الشعر في هذه المرحلة كان غزيراً جداً وواسع الآفاق ، ولكنه متشابه الأفكار والاسلوب إلى حد كبير فيه الانتاج الجيد الرفيع والغث الوضيع ، وهذه المرحلة تعتبر خاتمة لعصر البراعة وفاتحة لعصر الجمود ، وشعراء هذه الفترة لا يوزنون بميزان واحد .

ـ إن شعراء هذه المرحلة لا يقلون عن سابقيهم من حيث استخدام الصور البيانية ولا من حيث الصنعة البديعية بل يزيدون ويشتطون ، كما فعل الحريري في مقاماته الشعرية إذ كان يتلاعب بالألفاظ ويكثر من الوجوه البلاغية .

ـ عدد من الشعراء كانوا أعلاماً في اللغة والنحو والصرف والنقد والبلاغة ولكن تنقصهم الشاعرية التي تعطي للأدب جماله ورونقه ويأتي على رأس هؤلاء الشعراء يحيى التبريزي ومحمد الابيوردي .

ـ إن بعض هؤلاء الشعراء تمكنوا بواسطة أدبهم وفضلهم أن ينالوا مراتب مرموقة في الدولة السلجوقية ، مثل الطغرائي الذي أصبح صاحب ديوان الإنشاء عند السلطان محمد، وكذلك الابيوردي الذي تولى عنده منصب الاشراف .

ـ كانت غالبية الشعراء في هذه المرحلة تمتاز بثقافة اسلامية وعلمية واسعة فالارجاني كان قاضياً في تستر ومحمد بن عمر كان فقيهاً شافعياً ، والسراج كان يروي الحديث والأبيوردي كتب في التاريخ والأنساب والطغرائي كانت له مصنفات كثيرة في علم الكيمياء .

ـ إن ظاهرة الشعر الاسلامي سواء أكان في ناحية العقيدة أم في مدح المذاهب أو أهل العلوم الاسلامية ، تعتبر من التطورات التي تعمق وجودها في هذه المرحلة .

ـ أن المستوى العام للشعر في أيام المستظهر كان حسناً وإن شابه شيء من التقليد والتصنع .

ثامناً ـ علوم اللغة العربية

نعني بعلوم اللغة العربية : النحو والصرف والمعاني والبيان والعروض والمحاضرات والانشاء .

بلغت هذه العلوم درجة عالية من الازدهار والنضج وأكثر علماء اللغة في أيام المستظهر امتازوا بثقافة عالية ومتنوعة[1] ، فمنهم من درس الأدب واللغة في النظامية ، ومنهم من صنف التصانيف الكثيرة[2] ، وبضعهم احتل المرتبة الأولى في النحو وفي التأليف كما احتل مرتبة اجتماعية عالية أيضاً ببغداد[3] ، وقد اشتهر منهم : ابو الحسن الاسفراييني[4] والجواليقي[5] والفصيحي[6] والمبارك بن الفاخر[7] .

وجعفر السراج : ١١٠٦/٥٠٠[8] والبارع النحوي[9] وابو السعادات بن

---

(١) السيوطي : **بغية الوعاة** ج ٢ ص ٢٢٦

(٢) ابن الأنباري : **نزهة الألباء في طبقات الأدباء** ص ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٦

(٣) ابن الأنباري : المصدر نفسه ص ٢٨٦

(٤) علي بن نصر بن محمد بن عبد الصمد الفندورجي ١١١١/٥٠٥ ، له فضل وافر ومعرفة تامة باللغة والأدب وخط وبلاغة وله شعر مليح رائق ويد باسطة في الكتابة والرسائل .
السيوطي **بغية الوعاة** ج ٢ ص ٢١

(٥) موهوب بن أحمد بن الحسن بن الخضر : ١١٤٤/٥٣٩ ، الجواليقي البغدادي كان من كبار أهل اللغة إماماً في فنون الأدب ثقة صدوقاً ، ودرس الأدب في النظامية بعد شيخه التبريزي واختص بإمامة المقتفي لأمر الله ، وكان من أهل السنة طويل الصمت لا يقول شيئاً إلا بعد التحقيق ، وكان مليح الخط يتنافس الناس في تحصيله والمغالاة به ،من تصانيفه شرح أدب الكاتب وكتاب العروض والتكملة أكمل به درة الغواص للحريري ، المعرب من الكلام الأعجمي
ياقوت : **معجم الأدباء** ج ١٧ ص ٢٠٥ ، ٢٠٧

(٦) علي بن أبي زيد الفصيحي : ١١٢٢/٥١٦ ، كان نحوياً حاذقاً ودرس الأدب بالمدرسة النظامية ، وكان يقول الشعر ، اتهم بالتشيع وخرج من المدرسة لهذا السبب .
ابن الأنباري : **نزهة الألباء في طبقات الأدباء** ص ٢٥٥

(٧) أبو الكرم المبارك بن الفاخر ١١٠٦/٥٠٠ ، ابن محمد بن يعقوب النحوي البغدادي ، كان بارعاً في النحو وألف كتباً فيه ، منها «كتاب المعلم في النحو» .
ابن الأنباري: **نزهة الألباء في طبقات الأدباء** .

(٨) كان عالي الطبقة في الحديث والقراءة والنحو واللغة والعروض .
السيوطي : **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة** ج ٢ ص ٢٢٦

(٩) الحسين بن محمد بن عبد الوهاب بن أحمد =

الشجري[1]

وصلت علوم اللغة العربية إلى مرحلة النضج في أيام المستظهر وامتاز علماء اللغة في هذه الفترة بالثقافة الشاملة والعميقة وأكثرهم كان يتقن العربية والفارسية، من هؤلاء الجواليقي الذي كان إماماً في اللغة والأدب ، وكان أيضاً إماماً للخليفة المقتفي ، وصنف في علوم اللغة العربية والفارسية .

ويعتبر ابن الشجري فريد عصره في النحو واللغة ، يشهد على ذلك تصانيفه وحلقاته في المساجد حيث كان يحضر عنده أكابر العلماء ، وكما احتل منزلة علمية ، كان نقيباً للطالبيين يمتاز بالهيبة والوقار .

إن المصنفات اللغوية والأدبية التي قدمها رجال اللغة في هذه المرحلة تعتبر من أمهات المصادر التي تمتاز بالدقة والعمق والتمحص .

تاسعاً ـ علم التاريخ

كانت مدينة بغداد في عهد المستظهر فقيرة بالمؤرخين الكبار ومع ذلك

= الحارثي البكري الدباسي المعروف بالبارع البغدادي ٥٢٤/١١٢٩ ، كان نحوياً لغوياً مقرئاً حسن المعرفة بصنوف الأداب أقرىء القرآن وهو من بيت الوزارة وبينه وبين ابن الهبارية مداعبات وصنف في القراءات وله ديوان شعر حسن من شعره :

لم لا أهيم إلى الرياض وحسنها
وأظل منها تحت ظل ضافي
والزهر حياني بثغر باسم
والماء وافاني بقلب صافي

السيوطي **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة** ج ٢ ص ٢٢٦

(١) هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة العلوي الحسني النحوي المعروف بابن الشجري ٥٤٢/١١٤٧ ، فانه كان فريد عصره ووحيد دهره في علم النحو ، وكان تام المعرفة باللغة وصنف في النحو تصانيف وأملى كتاب «الأمالي» وكان فصيحاً حلو الكلام حسن البيان والافهام ، وكان نقيب الطالبيين بالكرخ نيابة عن الطاهر ، وكان وقوراً في مجلسه ذا صمت لا يكاد يتكلم في مجلسه بكلمة إلا وتتضمن أدب نفس وكان ابن الشجري أنمى من رأينا من علماء العربية وآخر من شاهدنا من حذاقهم وأكابرهم وفي سنة ٥٠٤/١١١٠ ، جلس ابن الشجري في حلقة النحويين بجامع المنصور وحضر عنده الأكابر

ابن الأنباري **نزهة الألباء في طبقات الأدباء** ص ٢٨٦

ابن الجوزي **المنتظم** ج ٩ ص ١٦٥

فقد نبغ في هذا العلم عدد من الرجال نذكر منهم : شجاع بن أبي شجاع[١] ، ومحمد الأبيوردي[٢] ، وهبة الله بن المبارك[٣] ، وابو محمد الطبسي[٤] ، ومحمد بن عبد الملك الهمذاني[٥] .

من خلال دراسة المؤرخين الذين برزوا في أيام المستظهر تبيّن لنا الملاحظات التالية :

ـ هناك عدد من المؤرخين كانوا يجمعون بين علم التاريخ وعلم الحديث فالدقة التي اعتمدها رجال الحديث من أجل تمحيص الروايات المختلفة استفاد منها رجال التاريخ حين أرادوا الكتابة عن الأحداث التاريخية .

---

(١) فارس بن الحسن ابو غالب الذهلي الحافظ : سمع الحديث من أعلام عصره وكتب الكثير ، وكان ثقة مأموناً ثبتاً فهماً يورق للناس ، وكان مفيد أهل بغداد والمرجوع إليه في معرفة الشيوخ ، وشرع في تتمة تاريخ بغداد ثم غسل ذلك قبل موته بعد أن أرخ بعد الخطيب . توفي سنة ١١١٣/٥٠٧

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٧٦

(٢) كانت له معرفة باللغة والنسب وصف تاريخ ابيورد والمختلف والمؤتلف في أنساب العرب . توفي سنة ١١١٣/٥٠٧

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٧٧

(٣) ابن موسى بن علي ابو البركات السقطي: أحد من رحل في طلب الحديث إلى بلدان عديدة وتعب في الجمع ، وكان فيه فضل ومعرفة وأنس بالحديث فجمع الشيوخ وخرج التاريخ وأرخ ، ولكنه أفسد ذلك بأن ادعى سماعاً ممن لم يره . توفي سنة ١١١٥/٥٠٩

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٨٣

(٤) عبد الله بن الحسن ابن أبي منصور أبو محمد الطبسي : جال الاقطار وسمع من الشيوخ الكثير وخرج لهم التاريخ ، وكان أحد الحفاظ ثقة صدوقاً عارفاً بالحديث حسن الخلق . توفي سنة ١١٠٠/٤٩٤

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٢٥

(٥) محمد بن عبد الملك الهمذاني بن ابراهيم بن أحمد أبو الحسن بن أبي الفضل الهمذاني الفرضي : ١١٢٧/٥٢١ ، من أصحاب التاريخ من أولاد المحدثين والأئمة ، جمع تاريخاً في الملوك والدول ، وكان فاضلاً حسن المعرفة بالتواريخ وأخبار الدول والملوك والحوادث . قال ابن النجار وبه ختم هذا الفن وله مصنفات ملاح منها « الذيل على تاريخ الطبري » وذيل آخر على تاريخ الوزير ابي شجاع التالي لكتاب « تجارب الأمم » لابن مسكويه ، وكتاب « عنوان السير » و « اخبار الوزراء » عمله ذيلاً على كتاب ابن الصابي و « كتاب طبقات الفقهاء » و « أخبار دولة السلطان محمد ومحمود» «امراء الحج»، وله كتاب في الشؤم، وكان والده صالحاً ورعاً دُعي إلى القضاء مراراً فلم يفعل .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ١٠ ص ٨ .

الصفدي : **الوافي بالوفيات** ج ٤ ص ٣٧ ، ٣٨ .

ـ والظاهرة الثانية التي اشترك فيها أصحاب الحديث وأصحاب التاريخ هي الرحلة في الأقطار من أجل اخذ المعلومات من مصادرها الصحيحة .

ـ ظهرت مصنفات تاريخية جيدة منها : تاريخ أبيورد والمختلف والمؤتلف في أنساب العرب للأبيوردي .

« والذيل على تاريخ الطبري » والذيل على « كتاب تجارب الأمم » وعنوان السير والذيل على « كتاب ابن الصابي » وطبقات الفقهاء واخبار دولة السلطان محمد ومحمود و« امراء الحج » للهمذاني .

وهكذا فإن الهمذاني هو أبرز رجال التاريخ الذين لمعوا في هذه الآونة ومصنفاته تنال اليوم اهتماماً ملحوظاً .

ـ وعلى العموم كانت المصنفات التاريخية بسيطة من حيث الكم والمضمون .

عاشراً ـ الفلسفة الاسلامية

كان تيار السنة والجماعة هو المسيطر ببغداد في عهد المستظهر ، وكان التعصب شديداً ضد الأفكار الفلسفية حتى أنه في سنة ١١٠٠/٤٩٤ ، أحرقت رسائل اخوان الصفا[١] .

أ ـ **أما المعتزلة** : فلا نكاد نحس بوجودهم ، ومن أبرز رجالهم : القزويني[٢] وابن الشيرجي[٣] .

---

(١) ابو الفضائل محمد بن علي الحموي : **التاريخ المنصوري ، تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان** . موسكو ١٩٦٠/١٣٨٠ حققه بطرس غريا زينويج .

(٢) أبو يوسف القزويني : هو عبد السلام بن محمد بن يوسف بن بندار : ١٠٩٤/٤٤٨ أحد شيوخ المعتزلة المجاهرين بالمذهب الدعاة ، رحل إلى مصر وحصل أحمالاً من الكتب فحملها إلى بغداد ، وكان قاضي القضاة أبو عبد الله الدامغاني يكرمه ويقوم له ، روى الحديث ببغداد ، وفسر القرآن في سبعمائة مجلد ، وكان يدخل على نظام الملك . توفي سنة ١٠٩٤/٤٨٨

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٨٩ ـ ٩٠

(٣) ابن الشيرجي : ١٠٩٩/٤٩٩ ، محمد بن عبد الله بن يحيى ابو البركات ، قرأ القرآن وسمع الحديث وتفقه وسكن الكرخ وكان يتهم بالاعتزال. ابن الجوزي: **المنتظم** ج٩ ص١٤٧

ب ـ الاشعرية : كانوا يشكلون قوة لا بأس بها ببغداد ، وكان بعضهم يتجرأ على عقيدة الحنابلة مما يؤدي إلى حدوث فتن واضطرابات ، كانت الغلبة فيها للحنابلة[1] ، ومن أبرز رجال الأشعرية : الجيلي[2] والغزنوي[3] ، والشهرستاني[4] .

وأشهر مؤلفاته :

كتاب الملل والنحل :

هو دائرة معارف مختصرة للأديان والمذاهب والفرق وللآراء الفلسفية المتعلقة بما وراء الطبيعة التي عرفت في عصره .

قال الشهرستاني : إنه تعرف على مقالات أهل العلم من أرباب الديانات والملل وأصل الأهواء والنحل فأراد أن يجمع ذلك في مختصر مفيد[5] ، وأصل الأهواء والآراء مثل الفلاسفة والدهرية والصابئة وعبدة الكواكب والأوثان

---

(١) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٣١

(٢) ابو المعالي الجيلي : ٤٩٤/ ١١٠٠ ، عزيزي ابن عبد الملك بن منصور القاضي ولي القضاء بباب الأزج ، وسمع الحديث وكان شافعياً لكنه كان يتظاهر بمذهب الاشعري ، وكان فيه حدة وبذاءة لسان .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٢٦

(٣) ابو المؤيد الغزنوي : ٤٩٨/١١٠٤ ، عيسى بن عبد الله ابو القاسم ، كان واعظاً شاعراً كاتباً ورد بغداد ، ووعظ بها ونصع مذهب الأشعري فأخرج منها ، ومات في الطريق .

ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ١٤٥

(٤) هو محمد بن عبد الكريم بن احمد ابو الفتح ابن ابي القاسم : ٥٤٨/١١٥٣ ، المتكلم على مذهب الأشعري كان إماماً مبرزاً فقيهاً متكلماً برع في الفقه وعلم الكلام وصنف : « نهاية الإقدام في علم الكلام » « والملل والنحل » «والمناهج» «وكتاب المضارعة» «وتلخيص الأقسام لمذاهب الأنام» ، وكان حسن المحاورة يعظ الناس دخل بغداد سنة ٥١٠/١١١٦ ، وأقام بها ثلاث سنين وظهر له قبول كثير عند العوام ، واتهم بمذهب الباطنية . أما السبكي فيرد على هذه التهمة قائلاً : إن تصانيف أبي الفتح دالة على خلاف ذلك .

الصفدي : **الوافي بالوفيات** ج ٣ ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩

الذهبي : **العبر في خبر من غبر** ج ٤ ص ١٣٢

طبقات الشافعية ج ٤ ص ٧٩ .

شهرستان : بين نيسابور وخوارزم في آخر حدود خراسان .

ابن خلكان : **وفيات الاعيان** ج ٤ ص ٢٧٤

(٥) **الملل والنحل** ج اول ص ١١

والبراهمة ، وأهل الديانات وفرقهم[1] .

لقد تمكن الشهرستاني من اعطاء فكرة عن الفرق الاسلامية والفرق النصرانية والفرق اليهودية وعن المجوس والثنوية ، كان يشرح آراء الفلاسفة القدماء والفلاسفة المسلمين أيضاً بأسلوب مختصر مفيد .

ج ـ الغزالي يرد على الفلاسفة : إن الحدث المهم على الصعيد الفكري والفلسفي الذي تميز به عصر المستظهر هو الانتصار الذي حققه الإمام الغزالي على أنصار الفلسفة الاغريقية وأنصار الفلسفة المادية بشكل عام وأبطل آراءهم بعد ان دحضها بالحجة الدامغة وهو بالتالي أعطى اندفاعاً جديداً للعقيدة الاسلامية ، هذا الاندفاع بقي مستمراً إلى فترة قريبة من الزمن .

قال عنه ابن السبكي : « أخمد الغزالي من نيران البدع كل ما لا تستطيع أيدي المجالدين مسها . . . جاء والناس إلى رد فرية الفلاسفة أحوج من الظلماء لمصابيح السماء وأفقر من الجدباء إلى قطرات الماء ، فلم يزل يناضل عن الدين الحنفي بحلاوة مقاله حتى أصبح الدين وثيق العرى ، وانكشفت غياهب الشبهات[2] ، برع الغزالي في المذهب والخلاف والجدل والأصول والمنطق وقرأ الحكمة والفلسفة وفهم كلام أرباب هذه العلوم وتصدى للرد عليهم ، وصنف في كل فن كتباً أحسن تأليفها[3] ، والمنقذ من الضلال والباب المنتحل في الجدل والاقتصاد في الاعتقاد ومعيار النظر ومحك النظر[4] .

كتاب تهافت الفلاسفة

في هذا الكتاب يفند الغزالي مذاهب الفلاسفة ونظرتهم الى الكون والخالق والإنسان والحياة، وقد أحصى الموضوعات التي أتاها هؤلاء أولاً فبلغت تسعاً وعشرين مسألة ، والمسألة الأولى التي عالجها هي إبطال مذهب الفلاسفة

---

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٣
(٢) طبقات الشافعية ج ٤ ص ١٠٢
(٣) طبقات الشافعية ص ١٠٣
(٤) المصدر نفسه ص ١١٦

في أزلية العالم ، والمسألة الاخيرة هي إبطال مذهب الفلاسفة في إنكارهم للفناء على النفوس البشرية وإنكارهم لبعث الأجساد[1] .

وكفر الغزالي الفلاسفة في ثلاث مسائل :

- مسألة قدم العالم .

- ومسألة أن الله لا يحيط علماً بالجزئيات .

- والثالثة إنكارهم بعث الأجساد وحشرها[2] .

إن المتتبع للتطورات الفلسفية في أيام المستظهر ، يلاحظ الأمور التالية :

- أن البيئة الدينية والسياسية ببغداد كانت ترفض الأفكار الطبيعية التي نقلها الفلاسفة المسلمين عن اليونان أو الفرس .

- أن الفرق التي تحمل افكاراً فلسفية تراجعت إلى الوراء وأصابها الضعف نتيجة الحملات الشديدة التي شنها عليهم المتعصبون من أهل السلف .

- أن الصراع كان شديداً بين الحنابلة والأشعرية وقد تجلى هذا الصراع على الصعيد الفكري والعملي .

- عرفت هذه المرحلة عدداً من الرجال الكبار الذين خاضوا في ميدان الفلسفة وفي مقدمتهم :

١ ـ الإمام الشهرستاني الذي ألف كتاب « الملل والنحل » وهو دائرة معارف للأديان والمذاهب والفرق الفلسفية المعروفة حتى أيامه .

٢ ـ الإمام الغزالي الذي درس الأفكار التي طرحها الفلاسفة وتعمق بها ، ورد عليها وأفحم أصحابها وأسكتهم .

إن انتصار الغزالي على الفلاسفة الماديين يعتبر انتصاراً للفكر الاسلامي

---

(١) الغزالي : تهافت الفلاسفة ص ٨٦ ـ ٨٧ .

(٢) الغزالي : المصدر نفسه ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨ .

والعقيدة الاسلامية . والكتب التي ألفها في هذا الميدان هي :

« تهافت الفلاسفة ومقاصد الفلاسفة وإلجام العوام في علم الكلام والمنقذ من الضلال والاقتصاد في الاعتقاد وغيرها » كلها مقارعة للفكر الفلسفي الذي كان سائداً في أيامه .

أحد عشر ـ علم الفلك

وصل علم الفلك إلى مرحلة متقدمة من الازدهار والتطور والتنجيم يرتبط بعلم الفلك ارتباطاً وثيقاً ويرمز اليه ، وفي سنة ٤٨٩/١٠٩٥ حكم المنجمون بطوفان يكون في الناس يقارب طوفان نوح وانتشر الحديث بين الناس ببغداد حتى استدعى المستظهر المنجم ابن عيشون[١] كي يطلعه على حقيقة الأمر فأخبره بأن طوفان نوح لن يحدث وإنما الذي سيحدث هو غرق مجموعة من الناس من مناطق متعددة في بقعة من البقاع وخاف الخليفة ان تكون بغداد هي موضع الطوفان خاصة وأن نهر دجلة يمر في وسطها فتقدم بإحكام المسنات والمواضع التي يخشى منها الانفجار ، وكان الناس ينتظرون الغرق فوصل الخبر بأن الحجاج نزلوا في وادي المناقب[٢] بعد نخلة فأتاهم سيل عظيم ولم ينج منهم إلا من تعلق برؤوس الجبال ، وعندما وجد المستظهر الصدق في معلومات ابن عيشون أحضره وخلع عليه وأجرى له مرتباً مكافأة على براعته بهذا العلم[٣] .

---

(١) ابن عيشون : محمد بن محمد بن الحسن : ٥٠٦/١١١٢ ، موفق الملك ابو الفضل المنجم ، كان رأساً في صناعته في النجامة بالعراق وله شعر :

القارىء التشريح أجدر بالتقى
من راهب في قوسه متقوس
ومراقب الأفلاك كانت نفسه
بعبادة الرحمن أحرى الأنفس
وماسح الأرض وهي رحيبة
مسح الأنامل في أكف اللمس
أولى بخيفة ربه من جاهل
بمثلث ومربع ومخمس

الصفدي : **الوافي بالوفيات** ج أول ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .

(٢) وادي المناقب : موضع على مقربة من المدينة في طريق الشام .

ياقوت : **معجم البلدان** ج ٥ ص ٢٧٦

(٣) ابن الجوزي : **المنتظم** ج ٩ ص ٩٧ .

وكان سلاطين السلاجقة لا ينطلقون إلى الحروب إلا بعد استشارة المنجمين والوقوف على إرشاداتهم في الفوز أو الهزيمة . وهكذا كان المنجمون يحتلون منزلة عالية عند أرباب الدولة السلجوقية ، ويتحكمون إلى حد معين في توجيه السلاطين والأمراء ، ففي أوائل عهد السلطان محمد بن ملكشاه عصى ملك العرب صدقة وخلع ربقة الطاعة من عنقه وتوجه من الحلة إلى بغداد ومعه خمسون الف عربي ، فأرسل أمير المؤمنين المستظهر بالله إلى أصبهان كتاباً أثر كتاب ، ورسولاً بعد رسول مستنجداً بالسلطان ، فأخذ محمد بن ملكشاه يسأل المنجمين الاختيار فلا يهتدون إليه ، وكان صاحب طالع السلطان راجعاً ، فقالوا إنّا لا نجد اختياراً يا مولانا ، فقال : ابحثوا ، وشدد عليهم وبرم بهم فولّوا هاربين[1] .

إن علم التنجيم كان يلاقي عناية من السلاطين ومن الخليفة ، وقد وصل إلى مرحلة متطورة بشكل ملموس .

ثاني عشر ـ علم الحساب

عرف علم الحساب اهتماماً ملحوظاً في أيام المستظهر ، وقد برع في هذا العلم عدد من العلماء ، ومنهم من كان يجمع الحساب إلى جانب الفقه وغيره من العلوم الاسلامية .

وأشهر الرجال في هذا الميدان : أبو عبد الله الفرضي[2] ،

---

(١) السمرقندي : المقالات الاربع ص ٧١ .

(٢) ابو عبد الله الشقاق الفرضي : ٥١١/١١١٧ ، هو الحسن بن احمد بن جعفر ، كان واحد عصره في علم الفرائض والحساب وسمع الحديث .
ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٥٣٢ .

والهمذاني[1] ، وعبد الباقي بن حمزة[2] .

إن العلماء الذين عملوا في ميدان الحساب كانوا قلة ولكنهم يتمتعون بثقافة عالية ، واذا كان ابو عبد الله الفرضي أوحد عصره في علم الحساب فإن الهمذاني جمع بين علم الحساب والزهد واعتذر عن تولي منصب قاضي القضاة حين انتدبه الوزير أبو شجاع لهذا الأمر .

ثالث عشر ـ الطب في عهد المستظهر

استمر الاهتمام بالطب من جانب الدولة السلجوقية التي كانت تشجع البيمارستان العضدي بمدينة بغداد[3] وكان المستظهر يقرب إليه الأطباء المشهورين ويستعينهم في مسائل الخلافة إلى جانب عملهم الأساسي في التطبيب والسهر على سلامة الناس .

وقد نبغ في هذه المرحلة عدد من الأطباء الذين أتحفوا المكتبة الطبية بمؤلفات جديدة في غاية الأهمية ، وثقافة الطبيب كانت متنوعة فمن الأطباء من كان يتقن عدة علوم إلى جانب مهنته الأساسية[4] .

أما الاطباء الذين اشتهروا في عهد المستظهر فهم : سعيد بن هبة الله[5]

---

(1) عبد الملك بن ابراهيم بن أحمد الهمذاني : ٤٨٩/١٠٩٥ ، كان يعرف العلوم الشرعية والأدبية إلا أن علم الفرائض والحساب انتهى إليه ، وكان عفيفاً زاهداً . كان الوزير أبو شجاع قد نص عليه لقضاء القضاة واستدعاه فأبى أشد الاباء واعتذر بالعجز وتقدم السن .
ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٠٠

(2) عبد الباقي بن حمزة : ٤٩٣/١٠٩٩ ، ابن الحسين ابو الفضل الحداد القرشي ، كانت له يد في الفرائض والحساب ، وكان ثقة .
ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١١٦

(3) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ١٥٥ ـ ١٥٦

(4) ابن ابي اصيبعة : عيون الأنباء ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٣٤٢ .

(5) ابو الحسن سعيد بن هبة الله بن الحسين . توفي سنة ٤٩٥/١١٠١ ، وكان يتولى مداواة المرضى في البيمارستان العضدي ، وهو صاحب التصانيف في الفلسفة والطب والمنطق .
ابن أبي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ص ٣٤٣ .
اليافي : مرآة الجنان ج ٣ ص ١٦٣

ومحمد بن أبي طالب[1] ، وابن الـواسطي[2] ، وابن التلميـذ[3] ، وابو نعيم الواسطي[4] ، ومروان بن جناح[5] .

عند دراسة الطب في أيام المستظهر نلاحظ ما يلي :

ـ أن أكثر الأطباء الذين ظهروا بمدينة بغداد كانوا من النصارى ، وهذه

---

(١) يحيى بن عيسى بن علي بن جزلة : ١٠٩٩/٤٩٣ ، أبو الخطاب محمد بن محمد ابن أبي طالب ، كان حياً في رمضان سنة ١١٠٦/٥٠٠ مقامه ببغداد وقرأ صناعة الطب على أبي الحسن سعيد بن هبة الله ، وكان متميزاً في الطب وعمله . ألف كتابه : الشامل في الطب جعله على طريق المسألة والجواب في العلم والعمل وهو يشتمل على ثلاث وستين مقالة .

ابن أبي اصيبعة : **عيون الانباء في طبقات الاطباء** ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤ .

كحالة : **العلوم العملية في العصور الاسلامية** ص ٥١ .

(٢) ابن الواسطي : هو ابو الفرج سعيد بن ابراهيم : كان طبيباً للمستظهر بالله ، وكان عنده رفيع المنزلة ، وكان مقدماً على ذوي النفوذ وأصحاب المراتب العليا في دولة الخلافة حتى أن هؤلاء كانوا يستعينون بابن الواسطي عندما تتعقد مشاكلهم ويعجزون عن ايجاد حلول لها ، فيرفعون الأمر إليه كي يخاطب المستظهر في شؤونهم ، وكان ابن الواسطي يلبي طلباتهم عند الخليفة الذي يحترمه ويقدره .

ابن أبي اصيبعة : **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** ص ٣٤٤ .

(٣) يحيى بن صاعد بن يحيى بن التلميذ : الحكيم معتمد الملك النصراني ، طبيب الدولة العباسية في زمانه ، ويستشار برأيه ، وله الفضل الوافر والأدب الغزير والمعرفة الكاملة ، واتفقت له سعادة جد حتى كسب الأموال ، وعاش إلى آخر عهد المستظهر بالله في حدود سنة ١١١٨/٥١٢ ، وله شعر شريف وقصد في المعاني لطيف فمما قاله في دار بناها سيف الدولة صدقة ووقعت النار فيها :

يا بانياً دار العلا ملأتها
لتزيدها شرفاً على كيوانِ
علمت بأنك إنما شيدتها
للمجد والأفضال والإحسانِ
فقفت عوائدك الكرام وسابقت
تستقبل الأضياف بالنيرانِ

القفطي : **تاريخ الحكماء** ص ٣٦٤ .

(٤) ابو نعيم الواسطي : في سنة ١١٠٣/٤٩٧ قتل ابو نعيم بن ساوة الطبيب الواسطي ، وكان من الحذاق في الطب وله فيه اصابات حسنة . يذكر الاب فيه أنه توفي سنة ١٠٩٣/٤٨٧ في ظروف غامضة .

ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٧٨ .
Chrétiens Syriaques P. 223.

(٥) مروان بن جناح : ١١٢١/٥١٥ ، طبيب يهودي المذهب ، له عناية بالمنطق والتوسع في لسان العرب واليهود ومعرفة جيدة بصناعة الطب ، ألف كتاب « التلخيص » ، وقد ضمنه ترجمة الأدوية المفردة وتحديد المقادير المستعملة في صناعة الطب من الأوزان والمكاييل . كحالة : **العلوم العملية في العصور الاسلامية** ص ٥٢ .

الظاهرة لمسناها عند دراسة الطب في أيام المقتدي .

ـ أن المصنفات الطبية التي ظهرت تدل على النضج الذي وصل إليه علم الطب في تلك المرحلة .

ـ أن أكثر الأطباء كان يتقن علم الفلسفة والمنطق ، وبعضهم يتقن بعض العلوم الأدبية واللغوية .

ـ أن بعض الأطباء احتل مركزاً عالياً في المجتمع البغدادي ، وفي مقدمتهم ابن الواسطي الذي كان له نفوذ قوي عند المستظهر .

ـ أن المستظهر أعطى عناية جيدة للطب ولكنه لم يتفوق على والده المقتذي .

رابع عشر ـ موقف العلماء من المستظهر

المصادر التاريخية التي كتبت عن المستظهر تكاد تجمع على أن المستظهر بالله العباسي كان يحب العلم والعلماء والصالحين من الناس ، وقد أشاد بمناقبه العلمية القرماني وأبو شامة وابن الكازروني وسبط ابن الجوزي والأربلي وابن العماد الحنبلي وغيرهم[1] .

لذلك تقرب منه أكثر العلماء والفقهاء ورجال الزهد والتصوف الذين نبغوا في عهده وصنفوا له الكتب في الفقه والأصول والسياسة والتاريخ والآداب[2] .

وإذا أردنا أن نتعمقَ في معرفة موقف العلماء من الخليفة المستظهر كان لزاماً علينا أن نختار مجموعة من كبار رجال العلم الذين ساهموا في ميدان الفقه والسياسة والتاريخ وندرس آراءهم حول المستظهر ونظرتهم اليه .

---

(١) اخبار الدول وآثار الأول ص ١٧٣ ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ص ٢٨
مختصر التاريخ ص ٢١٥ ، مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٣ ، خلاصة الذهب المسبوك ص ٢٧٠ شذرات الذهب ص ٣٣ ج ٤ .

(٢) ابو شامة : كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ص ٢٨

أ ـ موقف الإمام الغزالي من المستظهر : ٥٠٥/ ١١١١ :

إن خير كتاب يعطينا صورة لموقف الغزالي من الخليفة المستظهر هو كتابه « فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية » ، والغزالي ألف هذا الكتاب بناء على طلب المستظهر نفسه حتى يرد به على عقيدة الباطنية(١) .

والباب التاسع من الكتاب خصصه الغزالي بأكمله لاقامة البراهين الشرعية على أن الإمام الحق القائم بالحق الواجب على الخلق طاعته هو الإمام المستظهر ، كما بين بأنه يجب على كافة علماء الدهر الفتوى على البت والقطع بوجوب طاعته على الخلق ونفوذ أقضيته بمنهج الحق وصحة توليته للولاة وتقليده للقضاة وأنه خليفة الله على الخلق وأن طاعته على كافة الخلق فرض(٢) .

وهذا الباب يمتد من الصفحة ١٦٩ إلى الصفحة ٢٢٥ ، وهو من أوله إلى آخره دعوة لطاعة المستظهر وللالتفاف حول منصب الخلافة ، وقد أورد صفات الإمام وواجباته السياسية والدينية .

ب ـ موقف أبي بكر الشاشي : ٥٠٧/ ١١١٣

المعروف بالمستظهري ، الملقب فخر الاسلام الفقيه الشافعي كان فقيه وقته(٣) .

انتهت إليه رياسة الطائفة الشافعية وصنف تصانيف حسنة منها كتاب « حلية العلماء » في مذهب الشافعي ثم ضم إلى كل مسألة اختلاف الأئمة فيها وسماه المستظهري لأنه صنفه للإمام المستظهر بالله(٤) .

ويتكون هذا الكتاب من ثلاثة أجزاء في مقدمة الجزء الاول يمدح

---

(١) الغزالي : فضائح الباطنية ص ٣ .
(٢) الغزالي : فضائح الباطنية ص ١٦٩
(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٤ ص ٢١٩ .
(٤) ابن خلكان : المصدر نفسه ص ٢٢٠

المستظهر ويطلب لأنصاره العزة ويخبر بأنه استخار الله تعالى في وضع هذا الكتاب للإمام فقال :

« أما بعد فإنه لما انتهت الإمامة المعظمة والخلافة المكرمة إلى سيدنا ومولانا أمير المؤمنين المستظهر بالله أعز الله أنصاره ذي الهمة العليا في أمر الدين والدنيا استخرت الله تعالى في كتاب جامع لأقاويل العلماء تقرباً إلى الله تعالى في اطلاعه عليه رجاء أن يكون ما يصدر عنه غير خارج عن مذهب من المذاهب وينتفع به كل ناظر فيه فأرزق الأجر والثواب عليه إن شاء الله تعالى »[1] .

وهكذا يظهر لنا جلياً وقوف أكبر رجل في الطائفة الشافعية إلى جانب المستظهر حتى أنه سمى كتابه باسمه .

ج ـ موقف محمد بن عبد الملك الهمذاني : ٥٢١/ ١١٢٧

كان من كبار المؤرخين في عصره ، صنف عدداً من الكتب التاريخية ومنها كتابه « تكملة تاريخ الطبري » وقد وصلنا الجزء الأول منه . وفي مقدمة هذا الجزء يعلن موقفه من الإمام المستظهر بكل وضوح ، فهو يدعو له ويشيد باحسانه والدهر مفتخر بحصول عنانه في يديه وسلطانه ممدود وأيامه منيعة وهو سيؤرخ مناقبها الرفيعة[2] وبعد ان يتحدث عن كتابه يعلن بيعته لأمير المؤمنين المستظهر الذي قضى حق الله في بريته وارتسم أمره في رعيته ، وفضائل المستظهر في رأيه ومناقبه تداوي الفكر العليل وتشحذ الطبع الكليل .

«ففي أيام المستظهر اعتدل المائل وارتدع الجاهل وأمن السابل وقصر المتطاول ، وهو عمدة الدين وعماد المجد ، فحفظ الله على الدنيا سياسته وعلى أهلها حسن رأفته حتى تضع له الدنيا خدودها ضارعة وتستجيب لأمره سامعة طائعة[3] » .

---

(١) الشاشي : حلية العلماء ج ١ ص ٥٣ ـ ٥٤ .
(٢) الهمذاني : تكملة التاريخ ج ١ ص ١
(٣) المصدر نفسه ص ٣

وهكذا من خلال اطلاعنا على كتب أشهر علماء ذلك العصر نجد حرصاً كبيراً في مؤازرة الخلافة العباسية والدفاع عن الإمام المستظهر والولاء الكامل له بصفته خليفة رسول الله ﷺ في سياسة الدين والدنيا .

خامس عشر ـ موقف الغزالي من السلطان محمد بن ملكشاه

صنف الامام أبو حامد الغزالي كتابه « التبر المسبوك في نصيحة الملوك » وهو عبارة عن توجيهات للسلطان محمد بن ملكشاه الذي كان مستولياً في عهد المستظهر بالله العباسي . يخاطب الغزالي السلطان السلجوقي ويذكره بنعم الله عليه وأهم تلك النعم نعمة الايمان .

وشجرة الايمان لها عشرة أصول وعشرة فروع[1] .

أما أصول الايمان فهي :

ـ إعلم أيها السلطان أنك مخلوق ولك خالق وهو خالق العالم وجميع ما في الكون .

ـ إعلم أن الباريء تعالى ليس له صورة ولا مثل .

ـ وأنه على كل شيء قدير .

ـ وأن علمه محيط بكل شيء .

ـ وأنه سميع بصير ويقول للشيء كن فيكون .

ـ وأمره تعالى على جميع الخلق نافذ .

ـ وأن جميع ما في العالم مخلوق له تعالى وليس معه شريك .

ـ وبعد الموت حساب وسؤال وصراط وجنة ونار .

---

(١) الغزالي : التبر المسبوك ص ٣٠٢ .

ـ وجعل الله رسول الله محمد ﷺ آخر الانبياء وأوصل نبوته إلى درجة الكمال وأمر الخلائق من الإنس والجن بطاعته[1] .

أما فروع شجرة الايمان فهي :

ـ العدل والإنصاف .

ـ استماع نصيحة العلماء المخلصين .

ـ أن يحارب الظلم من أي جهة صدر .

ـ يبتعد عن الغضب ويميل إلى العفو والكرم والتجاوز .

ـ يرضى لنفسه ما يرضاه للمسلمين .

ـ قضاء حوائج المسلمين أفضل من نوافل العبادات .

ـ أن يبتعد عن الشهوات .

ـ الرفق واللطف خير من الشدة والعنف .

ـ كسب رضا الرعية ضمن موافقة الشرع .

ـ أن لا يطلب رضا أحد بمخالفة الشرع .

ومن نصائحه أيضاً :

أن يعرف لماذا وجد الانسان في الدنيا ، وأن يعرف مصيره ، ثم يحذره من الجور والفساد ، وأن يبتعد عن أعمال اللهو كلعب الشطرنج والنرد وشرب الخمر وضرب الكرة والصولجان والصيد لأن ذلك يمنعه عن أمور الرعية .

وعلى السلطان أن يعين رعيته في أوقات الأزمات الاقتصادية .

وأن يكون عالي الهمة ، وأن يتحلى بالحكمة ، وأن يستعمل عقله .

ثم يذكر شروط الوزير :

---

(١) الغزالي : المصدر نفسه ص ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٩ ، ١١

ان يكون كاتباً ، صالحاً ، عادلاً ، وهو حاجة ملحة .

كما يذكر شروط الكاتب ومنها : خفة الروح ، طيب اللقاء ، عالماً ببراية القلم وأن يعطي كل حرف حقه[1] .

كما يتعرض لخير النساء :

- هي الولود الخفيفة المهر .

- صاحبة الديانة ، والعفاف والستر[2] .

إن هذا الكتاب يعبر عن الدروس والنصائح التي يريد الغزالي أن تصل إلى السلطان محمد بن ملشكاه ، لأن صلاح الراعي يؤدي إلى صلاح الرعية ، ويبدو أن السلطان محمد كان يصغي لنصائح الغزالي ويأخذ ببعضها ، لقد حرص هذا السلطان على العدل والاحسان وتقريب أهل الدين والمعرفة .

خاتمة

من خلال دراسة الحياة العلمية ببغداد في زمن المستظهر يمكن ملاحظة النتائج التالية :

- أن الحياة العلمية في عهد المستظهر هي امتداد للحياة العلمية في عهد المقتدي والدليل على هذه الناحية أن كثيراً من العلماء والمفكرين والكتاب حتى الوزراء عاصروا العهدين .

- يبدو أن الدولة السلجوقية كانت جادة في نشر المذهب الحنفي ، لذلك رأينا زيادة المدارس الحنفية في أيام المستظهر أكثر من غيرها .

---

(١) الغزالي : التبر المسبوك ص ١١ ، ١٢ ، ١٥ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٣ ، ٤١ ، ٦٤ ، ٨١ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ١٠٤ ، ١١٦

(٢) الغزالي : التبر المسبوك ص ١٢٣ ، ١٢٧

ـ أن الحركة الفقهية عرفت ازدهاراً كبيراً وتقدماً ملموساً وهذا يعود إلى الدعم الذي قدمه لها الحكام السلاجقة ورجال الخلافة العباسية من أجل مناهضة التيار الشيعي الذي ساندته الخلافة الفاطمية والتيار الباطني الذي بات يهدد السلطنة السلجوقية والخلافة العباسية في عقر دارهما .

ـ ومع تقدم الحركة الفقهية تقدمت العلوم الاسلامية الأخرى وخاصة علوم التفسير والقراءة والحديث وبرع فيها عدد من العلماء الذين تشهد لهم مصنفاتهم القيمة والتي لا تزال حتى اليوم تحتفظ بأهميتها .

ـ لقيت الحركة الصوفية انتشاراً واسعاً ببغداد وأحاطها رجال الحكم بعنايتهم وبنوا لها الأربطة ، وكان انخراط الإمام الغزالي في صفوف الحركة الصوفية هو التطور البارز الذي أعطاها اندفاعاً جديداً وخاصة بعد أن صنف كتاب « إحياء علوم الدين » في تربية النفس وتزكيتها .

ـ أن العلوم الأدبية واللغوية لقيت رواجاً كبيراً في هذه الفترة ، وظهرت مجموعة لا بأس بها من علماء اللغة ومن الشعراء الذين ساهموا في إغناء المكتبة الأدبية واللغوية بمصنفاتهم القيمة . وإذا كان الشعر يعيش مرحلة ما قبل الانحطاط فإن العلوم اللغوية كانت قد وصلت إلى مستوى النضج والتعمق .

ـ كانت المصنفات التاريخية بسيطة من حيث المضمون والحجم وأشهر رجال التاريخ هو محمد بن عبد الملك الهمذاني الذي كتب عدداً من المؤلفات التاريخية الجيدة .

ـ تراجعت الفلسفة الاغريقية إلى الوراء وسيطر التيار السني وقد تمكن أبو حامد الغزالي من تحقيق نصر كبير على الفلسفة الطبيعية عندما ألف كتابه « تهافت الفلاسفة » وغيره من مصنفات تبحث في هذا الموضوع .

والأشعرية رغم مخالفتها لأهل السلف كانت تتمتع بنفوذ قوي ، ومن أبرز علمائها الشهرستاني صاحب كتاب « الملل والنحل » .

ـ أن علم الفلك كان يحظى بعناية السلاطين والخلفاء والمستظهر قرب إليه

ابن عيشون وأكرمه وأجرى له مرتباً ورفع من منزلته .

ـ وعلم الحساب عرف اهتماماً من قبل العلماء الـذين امتازوا بـالثقافـة الواسعة والتبحر في هذا الميدان .

ـ أن علم الطب أحرز تقدماً جيداً فقد برع فيه عدد من الأطباء الذين أتحفوا المكتبة الطبية بمصنفات قيمـة ، والطب نال عناية كبيرة من المستظهر الـذي قرب إليه بعض الأطباء وكان يأخذ رأيهم في كل مسألة .

كان المستظهر حريصاً على كسب العلماء والفقهاء ورجال القلم عموماً لذلك رأينا عدداً كبيراً من هؤلاء يلتف حول المستظهر ويعطيه ولاءه ، وهذا الأمر جعل الحركة العلمية بصورة عامة تندفع إلى الأمام وتحقق تقـدماً في مختلف فروع الثقافة والمعرفة ، وكان السلطان محمد بن ملكشاه بدوره يساعد في تنمية الحياة العلمية وتقويتها كي تتصدى للأفكار الشيعية والباطنية .

أن المدارس الفقهية لعبت دوراً بارزاً في تطوير العلوم الاسلامية والأدبية وهي بنفس الوقت ظاهرة العصر على الصعيد العلمي ، والعلماء الذين برزوا في هذه المرحلة تميزوا بثقافة شاملة وقدموا مجموعة من المصنفـات في مختلف النواحي العلمية ، هذه المصنفات أغنت المكتبة الاسلامية ولا يزال قسم كبير منها يحتفظ بقيمته العلمية حتى اليوم .

أن الحياة العلمية ، عـاشت أزهى أيامهـا في عهد المستـظهر والإنتـاج الحضاري الكبير الذي عرفته مدينة بغداد يؤكد هذا القول ويدعمه .

نتائج البحث

إن المقارنة العامة بين أقوال المؤرخين من جهة والمقارنة بين الأحداث التي شهدتها بغداد في عهدي المقتدي والمستظهر من جهة ثانية ، أرشدتنا إلى النتائج التالية .

١ ـ ارتفع شأن الخلافة العباسية في العصر السلجوقي ، وخاصة في أيام المستظهر لأن السلاطين السلاجقة كانوا يدينون بالمذهب الحنفي ويعتبرون الخليفة رمزاً لامتداد الدعوة الاسلامية وهو مصدر السلطات ، لذلك كانوا يأخذون منه البيعة ويخطبون له على منابرهم ويتبركون بدعواته ويحرصون على إرضائه نظراً لمكانته الروحية في نفوس المسلمين .

٢ ـ كان السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك يتدخلان في أمور المقتدي الكبيرة والصغيرة ، ثم تدهورت العلاقة كثيراً بين ملكشاه والمقتدي عندما عادت زوجة الخليفة خاتون بنت السلطان إلى بيت أبيها ، عندئذ قرر ملكشاه الانتقام من المقتدي فأمر بطرده من بغداد على وجه السرعة ، بهذه الطريقة وجه ملكشاه ضربة قاسية جداً لمقام الخليفة العباسي . وبعد وفاة ملكشاه ، ذهب المقتدي ضحية مؤامرة اشتركت فيها قهرمانته شمس النهار عندما دست له السم في الطعام ، وهكذا انتهت علاقة المقتدي بملكشاه بمأساة حقيقية .

وعندما تولى المستظهر منصب الخلافة بعد والده ، كان أبناء ملكشاه

يتصارعون من أجل السيطرة على العرش السلجوقي ، والحروب بين ورثة ملكشاه استمرت حوالي عشر سنوات ، نتج عنها خراب ودمار في أكثر المناطق السلجوقية .

وتأثرت بغداد بهذه الحروب ، خاصة وأن بعض المعارك بين السلطان بركيارق وأخيه محمد جرت داخل المدينة .

لقد تعرض المستظهر خلال فترة المعارك للأذى لأنه وقف على الحياد وكان يعطي عهده لكل داخل إلى بغداد ، وبعد أن سيطر محمد بن ملكشاه على عرش السلطنة ، أقام علاقة طيبة مع المستظهر وقدم له احترامه وولاءه الديني كما حرص على إرضاء الخليفة بالهدايا الثمينة .

إن هذه العلاقة تطورت إلى مودة ومحبة بين الطرفين انعكست آثارها الحسنة على بغداد ، أمناً وعدلاً وهناء .

٣ ـ إن سقوط الساحل السوري في أيدي الصليبيين ، كان تحدياً للخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية من جانب ، وللخلافة الفاطمية من جانب آخر ، وقد وقف سلاطين السلاجقة متفرجين أمام سقوط بيت المقدس ، وكذلك المستظهر وهم يتجرعون كأس الحسرة والهوان .

٤ ـ زرعت الحركة الباطنية الرعب في نفوس الحكام السلاجقة وأعوان المستظهر لذلك تصدى لها السلاطين بسيوفهم وأمر المستظهر علماء بغداد أن يقارعوها بالحجة والبيان ، وقد تولى أبو حامد الغزالي هذه المهمة بنشاط واجتهاد .

إن الأحداث التي أثارتها الحركة الباطنية والحروب الصليبية ، تركت ظلالها القاتمة على نفسية سكان عاصمة الخلافة .

٥ ـ أسس المرابطون دولة قوية في المغرب العربي والأندلس ، هذه الدولة كانت تدين بالعقيدة السنية لذلك رفضت أن تعطي ولاءها للخلافة الفاطمية الشيعية في مصر ، بل أرسل أميرها يوسف بن تاشفين وفداً إلى

المستظهر وأعطاه ولاءه وطلب منه عهداً فتم له ما أراد مما أدى إلى قيام علاقات دينية وثقافية بين المشرق الاسلامي ومغربه . كل ذلك ساعد في تقوية مركز المستظهر الروحي والمعنوي لأن نفوذه امتد خارج حدود الدولة السلجوقية ، وبغداد استفادت من هذه العلاقة مع المرابطين مادياً ومعنوياً .

٦ ـ إن الصراع العقائدي بين الحنابلة والأشعرية من جهة وبين السنة والشيعة من جهة ثانية ، كان قوياً في أيام المقتدي مما أدى إلى وقوع صدامات ومعارك أسفرت عن خسائر في الممتلكات والأرواح . وفي عهد المستظهر تحول هذا الصراع إلى نوع من الصلح والتلاقي بين السنة والشيعة ، وإلى نوع من الهدوء والاحترام بين الحنابلة والأشعرية مما ساعد في نشر أجواء الراحة والاستقرار داخل بغداد ؛ وهذا كان نتيجة السياسة الحكيمة التي انتهجها المستظهر في تقريب العلماء من شتى الطوائف وتقديم الاحترام والتكريم لهم .

٧ ـ تمكنت حركة الفتوة والعيارين من تنظيم صفوفها في أيام المقتدي ونشطت في عهد المستظهر ، وكان العيارون يوجهون ضرباتهم ضد المسؤولين السلاجقة وكان نشاطهم ملموساً في الجانب الغربي من بغداد .

٨ ـ كان المقتدي قاسياً في معاملة أهل الذمة لذلك فرض عليهم « الغيار » حتى أن بعضهم اضطر إلى اعتناق الاسلام من أجل التخلص من هذه القيود التي تحط من كرامتهم وتحد من نشاطهم .

أما المستظهر فقد جرى على سياسة الوفاق والتعاون مع أهل الذمة ، لذلك التف حوله عدد من زعمائهم البارزين ونبغ منهم أيضاً مجموعة شاركت في الحياة العلمية والاقتصادية . لقد نعم أهل الذمة بمناخ من الحرية الدينية وخاصة عندما أصدر الخليفة أمره بإزالة « الغيار » عنهم ، كل ذلك جعل عهد المستظهر من أفضل العهود التي عرفها اليهود والنصارى ببغداد .

٩ ـ إن الحركة العلمية والفقهية والأدبية نشطت في زمن المستظهر أكثر من زمن المقتدي ، والظاهرة الحضارية التي تميز العصر هي نشوء المدارس الفقهية ، وإذا كانت المدرسة النظامية وأخواتها الشافعيات قد سيطرت في أيام

المقتدي فإن المدارس الحنفية والحنبلية ، لقيت رواجاً في أيام المستظهر ، هذه المدارس ساهمت في ازدهار العلوم الاسلامية واللغوية والأدبية والفلسفية والعقلية .

إن العلماء الكبار الذين نبغوا في مختلف نواحي المعرفة والمصنفات الكبرى التي قدموها إلى المكتبة الاسلامية تشير إلى مرحلة متقدمة من النضج والازدهار ، حققتها الحضارة الاسلامية في أيام المستظهر الذي كان يحب العلماء ويجلهم ، لذلك نرى مجموعة من كبار الفقهاء والمفكرين تلتف حول المستظهر وتعطيه ولاءها وتصنف له المؤلفات القيمة .

١٠ ـ كانت المرأة السلجوقية والبغدادية ، تشاركان الرجل في مختلف الميادين السياسية والاجتماعية والعلمية ، وفي أيام المستظهر لعبت بعض النساء السلجوقيات أدواراً بارزة في النشاطات السياسية ، كما ظهرت مجموعة من النساء البغداديات اللواتي ساهمن في ميادين المعرفة وأعمال البر والاحسان ، وفي المجالات التربوية والدينية والتصوف .

١١ ـ إن تأثير الاحداث الطبيعية من حرائق وفيضانات وأوبئة ، كان قوياً في أيام المقتدي وضعيفاً في أيام المستظهر .

١٢ ـ عندما انفرد السلطان محمد بعرش السلطنة عمل على نشر الأمن والعدل في مختلف المناطق السلجوقية ورفع الضرائب والمكوس عن التجار ، فنشطت الحركة الاقتصادية عامة والتجارة خاصة ، مما أدى إلى زيادة أعوام الرخص في عهد المستظهر وبالتالي امتلأت خزائن السلطان بملايين الدنانير[١] ، واطمأن الناس على أقواتهم وأرزاقهم .

١٣ ـ إن ايام الفرح والسرور التي شهدتها بغداد ، على صعيد الاحتفالات الرسمية والشعبية ، كانت في عهد المستظهر أكثر منها في عهد المقتدي .

---

(١) الذهبي : دول الاسلام ج ٢ ص ٢٦

١٤ ـ إن المستظهر كان حريصا على سعادة الناس ورفاهيتهم ؛ لذلك عين في أجهزة الخلافة عدداً من الموظفين المشهود لهم بالكفاية وحسن التدبير حتى يسهروا على مصالح الناس ويقوموا بخدمتهم وتأمين حاجاتهم الأساسية .

وعمل على محاربة الظلم والفساد والعدوان ، واجتهد في نشر العدالة والإحسان بين مختلف فئات السكان ببغداد .

١٥ ـ من خلال النتائج التي سفرت عن هذه الدراسة ، يمكننا الآن إصدار حكم على قول ابن الاثير الذي يصف عهد المستظهر بالهناء والمسرة .

إن ابن الاثير أصاب الحقيقة الموافقة للواقع الذي عاشته مدينة بغداد وخاصة في الفترة الممتدة من سنة ٤٩٨/١١٠٦ الى سنة ٥١٢/١١١٨ ، حيث انفرد السلطان محمد بالعرش السلجوقي فأخذ يتقرب من المستظهر حتى قامت بين الطرفين علاقة من الاحترام والمحبة والتعاون والقربى انعكست آثارها الحسنة على حياة السكان ببغداد ، أمناً وعدلاً واحساناً .

إن ابن الاثير كان موالياً للدولة العباسية ، ولكنه رغم هذا الولاء كان موضوعياً في نظرته إلى الأحداث التي شهدتها بغداد في ايام المستظهر ، لذلك جاء وصفه لأيام هذا الخليفة بالأعياد والمسرة ، موافقاً لمسيرة حياة الناس وعلى الخصوص ، خلال النصف الثاني من خلافته حين عم الهدوء والاستقرار فنشطت الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية .

أهم المصادر

المصادر العربية

الأربلي : عبد الرحمن سبط فنيتو : ١٣١٨/٧١٧

خلاصة الذهب المسبوك . بغداد ١٣٠٣ / ١٨٨٥

ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني : ١٢٣٢/٦٣٠

- **الكامل في التاريخ** ١٣ ج . بيروت دار صادر ودار بيروت ١٩٧٩/١٣٩٩
- **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل** . القاهرة ١٩٦٣/١٣٨٢
- **اللباب في تهذيب الأنساب** تحقيق عبد القادر أحمد طليحات ، القاهرة ١٣٥٧/ ١٩٣٨

ابن اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري المعروف بالكرخي ، المتوفي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري .

- **المسالك والممالك** . القاهرة . دار القلم ١٣٨١ / ١٩٦١ تحقيق محمد جابر الحسيني ومراجعة محمد شفيق غربال .

الأصبهاني : عماد الدين الكاتب محمد بن محمد بن حامد : ١٢٠٠/٥٩٧

- **تاريخ دولة آل سلجوق** . بيروت دار الآفاق ١٩٧٨ اختصار الفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني .

ـ خريدة القصر وجريدة العصر . القسم العراقي ج ١ . بغداد ١٣٧٥/١٩٥٥ . حققه محمد بهجت الأثري .

ابن أبي أصيبعة : موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي ٦٦٨/١٢٦٩

ـ **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** . بيروت مكتبة الحياة ١٣٨٥/١٩٦٥

ابن الأنباري : أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد ٥٧٧/١١٨١

ـ **نزهة الألباء في طبقات الأدباء** . بغداد مطبعة المعارف ١٣٧٩/١٩٥٩

ابن بطوطة : محمد بن عبد الله بن ابراهيم اللواتي ثم الطنجي : ٧٧٩/١٣٧٧ .

ـ **رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** طبعة بيروت ١٣٧٩/١٩٦٠

ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي ٥٩٧/١٢٠٠

ـ **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** ١٠ج . (الخمسة الأول مفقودة) حيدر آباد الدكن . الطبعة الأولى ١٣٥٩/١٩٤٦

ـ **مناقب بغداد** . طبعة بغداد ١٣٤٢/١٩٢٣
حققه محمد بهجت الأثري البغدادي .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الخضرمي المغربي : ٨٠٨/١٤٠٥

ـ **تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر** .
ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ٧ ج. بيروت دار الفكر ١٣٩٩/١٩٧٩

ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر : ٦٨١/١٢٨٢

- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** ، ٨ ج.بيروت دار صادر ١٩٧٧/١٣٩٧ .

الذهبي : شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد : ١٣٤٧/٧٤٨
- **دول الاسلام** ٢٠ ج . حيدر آباد ١٩١٨/١٣٣٧ .
- **العبر في خبر من غبر** ٥ ج . الكويت ١٩٦١/١٣٨١ تحقيق فؤاد السيد .

السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ١٥٠٥/٩١١
- **تاريخ الخلفاء** . القاهرة . المكتبة التجارية . ١٩٥٢/١٣٧١
- حققه محمد محي الدين عبد الحميد .
- **كتاب طبقات المفسرين** . طهران ١٩٦٠/١٣٨٠
- **المستطرف من أخبار الجواري** : ١٩٦٣/١٣٨٣ حققه الدكتور صلاح المنجد .
- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة** ٢ ج . القاهرة مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٩٦٥/١٣٨٤ . تحقيق أبي الفضل ابراهيم .

الغزالي : أبو حامد محمد بن محمد بن محمد : ١١١١/٥٠٥ .
- **فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية** . الكويت ـ مؤسسة دار الكتب الثقافية . ١٩٦٤/١٣٨٣ . حققه عبد الرحمن بدوي .
- **تهافت الفلاسفة** القاهرة . دار المعارف . الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٢/١٣٩٢ . حققه سليمان دنيا .

القلقشندي : أبو العباس أحمد بن عبد الله : ١٤١٨/٨٢١
- **صبح الأعشى** ١٤ ج . القاهرة المطبعة الأميرية ١٩١٤/١٣٣٢
- **مآثر الأنافة في معالم الخلافة** ٣ ج . الكويت وزارة الارشاد والأنباء ١٩٦٤/١٣٨٤ . تحقيق عبد الستار أحمد فراج .

ابن كثير : الحافظ الدمشقي : ١٣٧٢/٧٧٤ .
- **البداية والنهاية** . أربعة عشر جزءاً . بيروت مكتبة المعارف الطبعة الثانية ١٩٧٧/١٣٩٧

الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب : ٤٥٠/١٠٥٨

- **قوانين الوزارة وسياسة الملك** . بيروت . دار الطليعة **١٩٧٩**

تحقيق الدكتور رضوان السيد .

اليافعي : أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان ١٣٦٦/٧٦٨ .

- **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان . ٤**

ج . بيروت ١٣٩٠/ ١٩٧٠

المصادر الأجنبية

MINORGEC, V et
CAHEN, cl
JOURNAL ASIATIQUE. TOME CCXXXVII
Année 1949. PARIS
Le Recueil transcaucasien
Dr. MASUD. NAMIDAR
DEBUT DU VIé / XII[e] siècle



محتوى الكتاب

الموضوع	الصفحة